أطفال هـــذه الأيام الرائعون

عزيز نِسين

ترجمة: محمد عبد القادر عبداللي

رواية



أطفال هذه الأيّام الرائعون



أطفال هذه الأيّام الرائعون - رواية

تأليف: عزيز نِسين

ترجمها عن التركية: محمد عبد القادر عبداللي

Şimdiki Çocuklar Harika

Aziz Nesin

لوحة الغلاف: سعد شعيب

تصميم الغلاف: قهوة غرافيك

ISBN: 1 - 77 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2022

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

عزيز نِسين

أطفال هذه الأيّام الرائعون

رواية

ترجمها عن التركية:

محمد عبد القادر عبداللي

ABU DHABI INTERNATIONAL BOOK FAIR | معرض أبوظبي الدولي للكتاب

أضواء على حقوق النشر SPOTLIGHT ON RIGHTS

تمّت ترجمة ونشر هذا الكتاب بدعم من مبادرة أضواء على حقوق النشر التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 والذي ينظمه مركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب أو جودة الترجمة.

فهرس المحتويات

تعلّمت الأدب من قليل الأدب.

أبو العلاء المعري 973 – 1057

كان تشارلي شابلن يقول:
«اسمعني يا والت، خذ الأطفال
العاقلين، والكبار الطفوليّين».

والت ديزني

لم أكتب هذه الرواية من أجل
الأطفال فقط، بل من أجل الآباء
والمعلّمين أيضاً.

عزيز نِسين

تشرح هذه الرواية كيفيّة ظهور الكبار في عيون الأطفال.

تنتقد هذه الرواية الآباء، والمعلّمين، والكبار.

تشاكس هذه الرواية بعضَ الأحكام القيّمة التي يعدّونها ضروريّةً في تربية الأطفال، وأنّها ما تزال صالحةً في أيّامنا هذه.

تتناول هذه الرواية دفاعَ الأطفال عن أنفسهم، وعن حقوقهم ضدّ الكبار.

الرسالة الأولى

أنقرة، 12 تشرين الثاني / نوفمبر 1963

أخي أحمد:

قطعنا وعداً على أنفسنا بأن نتراسل. أنتَ لم تثق بي لسببٍ ما. قلت لي: «عندما تذهبين إلى أنقرة، ستكوّنين بعض الأصدقاء، وتنسَيننا يا زينب».

انظر، لم أنسكم قطّ؛ أنا عند وعدي.

مرّ أسبوعٌ على استقرارنا في منزلنا في أنقرة. لم أستطع أن أكتب رسالةً قبل ذلك؛ لأنّني سُجّلت في المدرسة حديثاً. البارحة فحسب عرفت عنوان منزلنا الجديد من أبي. أوّل عملٍ لي كان كتابة رسالةٍ إليك.

لم أرغب قطّ بترك مدرستي في إسطنبول، منتصفَ العام الدراسيّ. لقد اعتدت أيضاً الأصدقاء الذين درسنا معهم لأكثر من أربع سنواتٍ في صفٍّ واحد. ولكنّ عمل أبي الجديد أصبح في أنقرة. عندما كنّا في إسطنبول قلت لك: وجد أصدقاء أبي المقرّبون له عملاً أفضل هنا. يعمل أبي في شركةٍ مع ثلاثةٍ من زملائه في الصف، إضافةً إلى ذلك، فإنّنا نعيش معاً في بناءٍ واحد. زملاء أبي وجدوا له هنا عملاً في أنقرة، وبيتاً شاغراً في

العمارة التي يسكنون فيها أيضاً. لزملاء أبي الثلاثة أطفال أيضاً. مجموعنا -في العمارة نفسها- تسعة أطفال، ومن ضمنهم الكبار والصغار. خمسة منّا نذهب إلى مدرسةٍ واحدةٍ، واثنان منّا في صفٍّ واحد. لم يعتد أخي متين أصدقاءه الجُدد، ومدرسته الجديدة بعد؛ أمّا بالنسبة إليّ، فلم أجد المكان هنا غريباً.

تعاهدنا على كتابة الأحداث المهمّة التي تحدث لنا. إنّ أحداثاً كالانتقال إلى منزلٍ جديدٍ، والذهاب إلى مدرسةٍ جديدةٍ، والتعرّف إلى أصدقاء جُدد، مهمّةٌ للغاية. لا يوجد شيءٌ مهمٌّ وذو قيمةٍ للكتابة عنه غير هذا.

اشتقت إلى زملاء مدرستي في إسطنبول من الآن. من يدري أين ومتى سوف نلتقي مجدّداً. أرجو منك أيضاً أن تكون عند كلمتك، وتكتب رسالة. سلامي إلى جميع الأصدقاء، أرجو لكم التوفيق.

زميلتك في الصف

زينب يالكر

المعماريّ الذي بنى أمريكا

إسطنبول، 15 تشرين الثاني / نوفمبر 1963

أختي العزيزة زينب:

فرحتُ كثيراً عند استلامي رسالتكِ. سَلِمتِ. في الحقيقة، كنت أعتقد أنّكِ سوف تنسيننا عندما تذهبين إلى مدرستكِ في أنقرة. قرأت رسالتكِ لجميع زملاء الصفّ. فرحوا كلّهم، وطلبوا إليّ أن أسلّم عليكِ.

وأنا أيضاً عند وعدي؛ سوف أكتب إليكِ الأحداث المهمّة التي تحصل هنا.

بعد يومٍ، أو يومين من مغادرتك، حدث شيءٌ لا يمكنني نسيانه. فلْأحكِ لكِ:

في صباح أحد الأيّام، قالت لنا المعلّمة: إنّ مفتّشاً سوف يأتي إلى المدرسة. كانت منفعلةً جدّاً، ولكنّنا كنّا منفعلين أكثر.

في ذلك اليوم، سمعنا أنّ المفتش ذهب إلى المدارس الأُخرى القريبة من هنا. سألنا أصدقاءنا في المدارس الأُخرى عمّا عمله المفتّش. بحسب ما أخبرونا، فإنّ المفتّش يقول لمعلّم كلّ صفٍّ يدخله: «فلْتكتبوا مسألةً،

وليحلّها تلاميذكم». ثمّ يقول للمعلّم بأنْ يُكتّب التلاميذ شِعراً، ثمّ يُلقي نظرةً على ما كتبوا. بعد ذلك يسأل عدّة تلاميذ الأسئلة نفسها؛ تلك الأسئلة كانت: «في أيّ عام اكتُشِفتْ أمريكا؟»، «من هو أكثر إنسان تحبّه؟»، «من فتح إسطنبول؟»، «مَن بنى جامع السّليمانيّة؟».

جعلتنا معلّمتنا نشتري دفاتر جديدة. كتبت على السبّورة مسألةً صعبةً جدّاً، وحلّها، وقالت:

- انقلوها إلى دفاتركم كما هي!

نقلنا جميعنا المسألة مع حَلِّها على دفاترنا، ثمّ كتبت معلّمتنا شِعراً على اللّوح، وقالت:

- انقلوا هذا أيضاً إلى دفاتركم بدقّة!

كتبنا الشِّعر أيضاً على دفاترنا. بعد ذلك نظرت المعلّمة إلى دفاترنا، وتأكّدت من أنّ ما كتبناه كان صحيحاً، وصحّحت لمن أخطأ، ثمّ قالت:

- يا أولاد، إذا أتى المفتّش إلى درسنا سأكتّبكم هذه المسألة، وهذا الشِّعر.

بعد الانتهاء من كلّ هذا قالت:

- الآن، ستتعلّمون أجوبة بعض الأسئلة. إذا استوقفَ السيّد المفتّش أحدَكم وسأله، ستجيبون بسرعةٍ كالآلة.

ثمّ حفّظتنا الأسئلة وأجوبتها.

- في أيّ عام اكتُشفتْ أمريكا؟

صحنا جميعنا بصوتٍ واحدٍ:

- 1492.

- من أكثر شخصٍ تحبّه في الدنيا؟

ولأنّ كلّ شخصٍ أجاب عن هذا السؤال إجابةً مختلفةً، ارتفع الضجيج. بعضنا صرخ: «أتاتورك»، وبعضنا صرخ: «أمّي»، أو «أبي».

ثمّ سألت معلّمتنا السؤال الثّالث:

- من فتح إسطنبول؟

ألصقنا الإجابة على الفور:

- السلطان محمد الفاتح!

- من بنى جامع السليمانيّة؟

وقبل أن تنهي معلّمتنا السؤال، صرخنا بالجواب الذي نحفظه:

- المعمار سنان!

حفظنا هذه الأسئلة مع أجوبتها خلال يومين. كانت معلّمتنا تقول باستمرار: «إيّاكم أن تنسوا ها!».

أصبحت أصفّفُ الإجابات واحدةً تلو الأُخرى في داخلي:

«1492. أبي. السلطان محمد الفاتح. المعمار سنان. 1492. أبي. السلطان محمد الفاتح. المعمار سنان. 1492. أبي...».

اعتدتُها إلى درجة أنّني أينما ذهبتُ أغمغم بهذه الإجابات بالترتيب بدون قصد.

صباح أحد الأيّام، سألتني أمّي:

- هل أنت مريض؟

قلت لها:

- لا...

قالت:

- طيلة اللّيل وأنت تهذي: «1492، أبي، السلطان محمد الفاتح، المعمار سنان...». ظننت أنّ حرارتك قد ارتفعت.

في ذلك اليوم أتى المفتّش إلى الدرس الأوّل.

تعرفين أنّني لا أنفعل كثيراً هكذا، ولكنّني في ذلك اليوم كنت منفعلاً جدّاً. كنت أرتجف من الانفعال. ربّما تسرّب انفعال المعلّمة إليّ؛ لأنّني رأيت يديها ترتجفان.

قال المفتش:

- كتّبوا تلاميذكم شِعراً.

عندها قالت لنا معلّمتنا:

- اكتبوا!

بدأت معلّمتنا بقراءة الشِّعر الذي نقّلتنا إيّاه على دفاترنا من قبل. معظم الأصدقاء لم يكتبوا الشِّعر، بل تظاهروا بالكتابة.

أنهت معلّمتنا قراءة الشِّعر. نظر المفتّش إلى دفاترنا واحداً واحداً. لم يجد أيّ خطأ إملائيّ عند أيّ أحدٍ منّا. قال لمعلّمتنا:

- أشكركنّ، لقد قمتنّ بتنشئة طلّابكنّ على نحوٍ جيّد.

لم ينظر إلى دفتر (جنكيز) الذي يجلس في المقعد على يساري. قال:

- أعطني لأرى دفترك...

مدّ جنكيز دفتره.

قال المفتّش:

- ما هذا؟

- شِعرٌ يا أستاذي.

عندما صرخ المفتّش:

- ما هذا الشِّعر؟

مددت رأسي، ونظرت بطرف عيني.

بسبب انفعاله، فتح جنكيز، عن طريق الخطأ، على الصفحة التي كُتبت عليها مسألة الرياضيّات؛ لأنّ الشِّعر كان مكتوباً أصلاً.

- أين الشِّعر الذي كتبته؟

أوشك جنكيز على فتح الصفحة التي كُتب عليها الشِّعر. بدأت معلّمتنا، التي وقفت وراء المفتّش، بفعل حركاتٍ بيدها وعينها. فهم جنكيز الوضع، وقال:

- لم أكتب الشِّعر يا أستاذي.

بينما كانت معلّمتنا ما تزال تفعل حركاتٍ بيدها، استدار المفتّش فجأةً! وقال:

- كتّبيهم مسألة رياضيّات، وليحلّوها.

احمرّ وجه معلّمتنا.

ظننّا أنّ المفتّش سوف يُكتّبنا المسألة أوّلاً، وبعدها الشِّعر؛ هذا ما قالوه لنا. عندما غيّر المفتّش ترتيب الأسئلة ارتبك جنكيز.

كان دفتر جنكيز في يد المفتّش؛ ولهذا السبب كتّبتنا المعلّمة مسألةً غير السابقة. أنا أحصل دائماً على علامة «جيّد جدّاً» في الرياضيّات، تعرفين هذا. ارتبكنا إلى درجة أنّني لم أستطع أنا نفسي حلّ المسألة. تقطّب وجه المفتّش الذي نظر إلى دفاترنا. خجلت معلّمتنا كثيراً. كنت أقول في

داخلي: «آهٍ لو يستوقفني المفتّش ويسألني، سأعطي أجوبةً مثل الآلة».
كنت أرغب بتبيض وجه معلّمتنا. بدأت أهمهم بيني وبين نفسي: «1492.
أبي. السلطان محمد الفاتح. المعمار سنان. 1492...».

قال لي المفتّش، كأنّه يقرأ ما يدور في عقلي:

- أنت، انهض!

قفزت فرحاً. وبحسب ما قال لي الأصدقاء لاحقاً، سألني المفتّش:

- كم عمرك؟

ولأنّني لم أفهم السؤال بسبب انفعالي، ظننت أنّه يسأل عن اكتشاف أمريكا، وصرخت:

- 1492 يا أستاذ!

سألني المفتّش الذي اتّسعت عيناه من الدهشة مرّةً أُخرى:

- ماذاااا؟ كم عمرك؟

وأنا بدوري صرخت بصوتٍ أعلى معتقداً أنّ إجابتي صحيحة:

- 1492 يا أستاذ.

سأل المفتّش:

- من فتح إسطنبول؟

قلت بحسب تسلسل الأجوبة التي حفظتها:

- أبي.
لم أفكّر قطّ بأنّ المفتّش سوف يغيّر ترتيب الأسئلة.

ضرب المفتّش قدمه بالأرض وصرخ:

- أنا أسأل من فتح إسطنبول!

- أبي، يا أستاذ.

- من أبوك؟

- المعمار سنان.

- هل تسمع أذناك ما يخرج من فمك يا بني؟ أسألك عن أبيك، وتقول: المعمار سنان!

في ذلك الوقت انتبهت إلى الخطأ الذي اقترفته، لكنّني بسبب الانفعال فوجئت بصراخ المفتّش، ولم أستطع استجماع نفسي بأيّ شكل.

- حسناً، ماذا عمل المعمار سنان؟

لقد ارتبكت تماماً، وصرخت:

- فتح إسطنبول يا أستاذ.

- من؟

قلت مصحّحاً خطأي:

- المعمار سليمان...

- إذن من بنى جامع السليمانيّة؟

- السلطان سنان الفاتح...

شعرت أنّني خلطت الكلمات، ولكنّني لم أعد أستطيع تمالك نفسي.

غضب المفتّش إلى درجة أنّه ارتبك أيضاً، وقال:

- يا بنيّ، الذي عمّر أمريكا هو المعمار السلطان محمد، والذي اكتشف جامع السليمانيّة هو سنان الفاتح.

عندما لم يستطع الأولاد إمساك أنفسهم، وبدأوا بالقهقهة ضاحكين، أدرك المفتّش خطأه، وأراد أن يصحّحه، فقال:

- يعني أردت القول: إنّ المعمار سليمان هو من عمّر جامع السنانيّة، وإنّ المعمار السلطان محمد هو من فتح الفاتح.

ومجدّداً أدرك أنّه أخطأ، وقال:

- حيّرتني أنا أيضاً يا ولد!

وضرب الباب بسرعة، وخرج من الصفّ، وهو يهزّ رأسه غاضباً.

لم يبق هناك حتّى همس في الصف. بعد مدّةٍ قصيرةٍ قالت معلّمتنا:

- يا عيب الشوم!

لم أعرف ما إذا وجّهت المعلّمة هذا الكلام إليّ، أم إلى المفتّش، أو إلى نفسها.

لا أستطيع شرح مدى حزني بسبب هذه الحادثة. أخجل كلّما أتذكّرها. لم أشأ إلّا أن أعطي أجوبةً سريعةً، وأبيّض وجه معلّمتنا.

كما وعدتني، اكتبي إليّ الأحداث التي تجري هناك أيضاً. تمام؟ أنتظر رسائلك. أرجو لكِ التوفيق أيضاً، يا أختي.

زميلك في الصف

أحمد طاراباي

كل الآباء أوائل

أنقرة، 19 تشرين الثاني / نوفمبر 1963

أخي العزيز أحمد:

أشكرك جدّاً على ردّك. اكتب إليّ رسائل طويلةً كهذه دائماً، وأنا بدوري سأروي لك الأحداث التي تجري هنا بالتفصيل. تخيّلتك أمام عيني، وأنا أقرأ رسالتك. وتصوّرتك أمام المفتّش. كم وكم ضحكت...!

فلْأحكِ لك قليلاً عمّا يجري هنا: نعيش في عمارةٍ مؤلّفةٍ من أربعة طوابق، في كلّ طابق شقّتان، شقّتنا تقع في الطابق الثاني. في رسالتي السابقة كتبت إليكَ أنّ ثلاثةً من زملاء أبي في الصفّ يعيشون في هذه العمارة أيضاً.

توجد حديقةٌ كبيرةٌ جدّاً خلف العمارة، ولكنّها مهملةٌ وفارغة. نلعب فيها مع أطفال العمارة عند المساء. قبل عدّة أيّام، وفي أحد المساءات، كنّا نلعب فيها كالعادة، وكان الأطفال يتفاخرون بتميّز آبائهم دراسيّاً. كلّ طفلٍ يزعم أنّ أباه كان متفوّقاً في دروسه على الآخرين، حتّى إنّ الأطفال الصغار تشاجروا فيما بينهم. وكان أخي متين الذي يدرس في الصفّ

الثّالث يحاول الاستعلاء عليهم جميعاً. ينفخ خدّيه، ولا يكفّ عن قول: «ألا تعرفون من هو أبي؟...».

وفي الحقيقة، إنّ أبي كان تلميذاً مجتهداً. يحكي لنا عن نفسه هكذا دائماً.

احتدّت المناقشة للغاية.

قال متين:

– إنّ أبي كان مجتهداً أكثر من آبائكم كلّكم أيّام المدرسة، كان ترتيبه الأوّل على الصفّ دائماً.

قال ابن أحد أصدقاء أبي ساخراً من متين:

– لا يا روحي!

قال طفلٌ آخر:

– ومن قال هذا؟

نفخ متين صدره، وقال: «أبي قال هذا». وتوقّف قليلاً، ثمّ تابع:

– إنْ لم تصدّقوا اسألوا آباءكم، فكلّهم كانوا في صفٍّ واحد. فلْيخبركم آباؤكم بالحقيقة.

وفي الوقت الذي لم نتدخّل فيه –نحن الأطفال الأكبر سنّاً– بهذه المناقشة، قالت واحدةٌ من زميلاتي في الصفّ لأخي:

– كذّاب! أبي مَن كان الأوّل.

اندفع طفلٌ آخر مثل الديك:

– شخصٌ مثلكِ من يُنعت بالكذّاب! إنّ أبي لم يكن حتّى الثاني على صفّه؛ كان الأوّل دائماً. هل فهمتِ؟

- إنّها كذبةٌ واضحةٌ كوضوح الشمس. أبوك اختلق أيّ كلامٍ! الحقيقة أنّ أبي هو الذي كان الأوّل على صفّه في كلّ سنة.

- أبي لا يختلق الكلام نهائيّاً...

انزعجتُ من تدخّل الأولاد الكبار. كان الجدل يحتدم أكثر فأكثر. شهّدني أخي قائلاً:

- أليس كذلك يا أختي الكبيرة؟ ألم يكن أبي الأوّل دائماً؟ فلتخبري هؤلاء.

- إنّه كذلك طبعاً...

كلمتي هذه وتّرت الجوّ تماماً. ولأهدّئ من روع متين قلت:

- لا تهتمّ لهم. دعهم يواسوا أنفسهم بهذا الشكل. ماذا يضيرنا؟

قال طالب المدرسة الإعداديّة، الذي يُعدّ أكبرنا جميعاً، بلهجةٍ متعجرفةٍ:

- يا أولاد، أنتم مخطئون. لا أبوك أنت، ولا أنت، ولا أنت كان ترتيبه الأوّل... أبي هو من كان الأوّل على صفّه دائماً.

قال له متين: «هششش!».

- وتقول هشش؟ اذهب واسأل أباك لنرى.

- أبوك أيضاً كان يبالغ.

- أنت تهذي!

عندما احتدم الخلاف مجدّداً، سحبتُ يدَ متين الذي قفز منقضّاً على ذلك الصبيّ الضخم من المدرسة الإعداديّة، وأخرجته من هناك بصعوبة. صعد الدرج وهو يبكي قائلاً:

- كذّابون! ماذا يعني؟ أبي هو الأوّل!

عندما دخل البيت ركض إلى أمّي على الفور، وقال:

- لم يكن أبي الأوّلَ على صفّه. أبي كان يبالغ...

غضبت أمّي، ووبّخت متين قائلة:

- اسكت لأرى. ما هذا الكلام؟ سأملأ فمك بالفلفل.

انطوى أخي على نفسه وسكت. ولكي أواسيه قلت له:

- ولماذا تغضب؟ قد نكون مخطئين. ربّما لم يكن أبي زميلهم في الصفّ.

- ولكنّهم هم أنفسهم قالوا: إنّهم زملاؤه في الصفّ.

- الأفضل أن نسأل أبي عندما يأتي في المساء، ونعلم الحقيقة.

بدأ الشكّ ينتابني أنا أيضاً. كنت قلقة. في أثناء تناولنا طعام العشاء سألت أبي إن كان هو وأصدقاؤه الذين يعيشون معنا في العمارة نفسها قد درسوا في صفٍّ واحدٍ، فقال:

- نعم يا ابنتي، نحن الأربعة كنّا زملاء في الصفّ.

لقد ظلّ مع أحدهم مدّة ثلاث سنوات، ومع الاثنين الآخَرين مدّة خمس سنوات في الصفّ نفسه.

ولأنّ أمّي وبّخت أخي في النهار من خلال تنبيهها بأنّها ستملأ فمه بالفلفل، فإنّني تجنّبت سؤالها عن أيّ شيءٍ آخر.

في اليوم التالي، وفي المدرسة، سألت زميلتي التي تجلس بجانبي في المقعد عن ترتيب أبيها في صفّه.

- كان أبي الأوّل على صفّه دائماً.

قال أحد الأطفال الجالسين في المقعد الخلفيّ:

- وأبي أيضاً كذلك، كان الأوّل عندما كان في المدرسة.

وبينما كنّا نتبادل الحديث، انضمّ الأطفال الآخرون إلينا. تبيّن أنّ ثلاثةً من زملاء صفّنا لا يعرفون وضع آبائهم في المدرسة، بينما آباء جميع الأطفال الآخرين كانوا الأوائل في صفوفهم.

عندما تستلم رسالتي يا أحمد اسأل أباك أيضاً إن كان الأوّل على صفّه. إنّني ومن الآن على يقينٍ بأنّه كان الأوّل في صفوفه؛ لأنّ كلّ الآباء تقريباً هم الأوائل دائماً.

بعد هذه الحادثة بيومين أرسل معلّمُ أخي إلى أمّي رسالةً يستدعيها فيها إلى المدرسة. اشتكى المعلّم؛ لأنّ متين لا يحفظ دروسه. في المساء، وعندما علم أبي بهذا غضب من متين، وصرخ به، ثمّ أجلسه وبدأ ينصحه:

- يا بنيّ، لماذا لا تشبهني؟ أنا كنت أكثر التلاميذ تفوّقاً في حياتي المدرسيّة. لم يصادف أن حصلت على الدرجة الثانية ولا مرّة. لقد كان ترتيبي الأوّل على الصفّ كلّ مرّة. أليس عيباً ما تفعله؟ لماذا لا تحضّر دروسك؟ يجب على الطفل أن يقتدي بأبيه.

هدأ غضب أبي. قلت له طامعةً بلطفه:

- يا أبي، عندما يصبح متين أباً في يومٍ ما، سيقول لأولاده: إنّه كان الأوّل على صفّه.

فهمتْ أمّي ما أردتُ قوله.

- أيّتها البنت الكبيرة، أنت لم تعودي طفلةً لأملأ فمك بالفلفل. عندما يتكلّم الكبار، فلْيصمت الصغار.

وأنا بدوري سكتُّ؛ أمّا أبي، فلم يصدر صوتاً قطّ.

وهكذا، ومنذ مجيئنا إلى أنقرة لم أجد حدثاً وقع لي يستحقّ الكتابة أكثر من هذا.

سلامي إلى كلّ الأصدقاء. وأرجو لك التوفيق.

صديقتك

زينب يالكر

انسوا ما تعلّمتموه سابقاً

إسطنبول، 23 تشرين الثاني / نوفمبر 1963

أختي زينب:

لا أستطيع شرح مدى سعادتي لاستلامي رسالتكِ التي أرسلتِها بتاريخ 19 تشرين الثاني / نوفمبر.

سأخبركِ بأمرٍ محزنٍ: لقد غادرت معلّمتنا المدرسة. نُقِلت مع معلّمٍ آخر. لقد ألفناها كثيراً. حزنّا لمغادرتها، حتّى إنّ هناك من بكى؛ أمّا أنا، فقد أمسكت نفسي كثيراً حتّى لا أبكي، ولكنّها عندما داعبت شعري في أثناء خروجها من الصفّ، لم أستطع تمالك نفسي، وأفرغت ما بداخلي. لقد كتبت إليكِ عن قدوم المفتّش إلى مدرستنا. بعد هذه الحادثة لم تتحدّث إليّ كثيراً. كان يومها الأخير، تحدّثت إلينا ببضع كلمات، وتمنّت لنا النجاح. قالت:

- إلى اللّقاء يوماً ما يا أطفال.

في أثناء مرورها بجانبي داعبت شعري، وخرجت من الصفّ.

مدرّسنا الجديد معلّم. في درسه الأوّل، أراد أن يأخذ فكرةً عمّا

تعلّمناه في السابق. استوقفنا واحداً واحداً، وسألنا أسئلةً، ولم تعجبه أجوبتنا. قال:

- يا عيب الشوم عليكم! لم تتعلّموا جيّداً على الإطلاق.

هل تذكرين دمير؛ أكثر طفلٍ مجتهدٍ في الصفّ؟ حتّى أجوبة دمير لم تُعجب المعلّم. ويا لإجاباتي أنا! صار المعلّم يضرب ركبتيه بيدَيه، ويقول: «واخ، واخ!».

يهزّ رأسه أسفاً، ويقول باستمرار:

- ألم يعلّموكم شيئاً؟ هل مرّت دروسكم هباءً؟ ماذا تعلّمتم كلّ هذا الوقت؟

ولولا ذلك لكنت على يقين بأنّ إجاباتي صحيحة.

قالت ميني بصوتٍ باكٍ:

- هل أخطأت يا أستاذي؟

قال العلم:

- صحيح، صحيح، ولكن...

توقّف قليلاً، ثمّ أضاف:

- سطحيّة... أجوبتكم كلّها سطحيّة...

لم نكن نصدر أيّ صوت، وكنّا منزعجين جدّاً، ولكنّ السعادة بسبب هذه الكلمات التي قالها المعلّم الجديد كانت باديةً على وجه طفلٍ، أو طفلين من أولئك الذين يحصلون على درجاتٍ مكسورة.

لم يستطع دمير أن يتماسك، وقال:

- كانت آنستنا القديمة تجعلنا ندرس كثيراً يا أستاذي.

معلّمنا الجديد ساخرٌ بعض الشيء. قال:

- هم هم. هذا واضح من إجاباتكم!

بعد أن مشى ذهاباً وإياباً أمام المنصّة قال بصوتٍ أرقّ:

- يا أطفال، فلْتنسوا ما تعلّمتموه في الماضي. هل فهمتم؟ ستتعلّمون كلّ شيءٍ من جديد.

رفع دمير إصبعه راغباً بالكلام:

- لكنْ يا أستاذي، كنّا نتعلّم دائماً ما هو مكتوبٌ في كتبنا.

قال المعلّم:

- والآن أقول بأنّكم ستنسون ما تعلّمتموه في الماضي.

مرّ الدرس الأوّل هكذا. وفي الاستراحة، انقسم الزملاء إلى قسمين: بعضهم انحاز إلى طرف المعلّمة القديمة، وبعضهم إلى طرف المعلّم الجديد. إن أردتِ الحقيقة، فقد بقيت أنا في المنتصف.

في الاستراحات كنّا نتحدّث دائماً حول هذا الموضوع مع زملائنا في الصفّ 5-B. أساتذتهم أيضاً أتوا إلى مدرستنا حديثاً في بداية السنة الدراسيّة. وهُم الآخرون قالوا تماماً مثلما قال معلّمنا في الدرس الأوّل: انسوا ما تعلّمتموه سابقاً.

ساعد تصرّف معلّمنا الجديد هذا بعض أصدقائنا؛ فعندما يخطئون في الإجابة عن سؤالٍ ما يبدؤون بالقول:

- هذا ما علّمتنا إيّاه آنستُنا القديمة، يا أستاذي.

عندها يصرخ المعلّم قائلاً:

- ألم أقل لكم بأنْ تنسوا ما تعلّمتموه في الماضي؟

ليس سهلاً على الإنسان نسيان ما تعلّمه في الماضي أبداً. دمير هو الوحيد الذي استطاع ذلك. في أحد الأيّام دخل مديرنا إلى الصفّ. كان درسنا هو درس التاريخ. ولاختبار ما تعلّمناه استوقف المدير دمير، وسأله:

- ماذا تعني حضارة العصر الحديث؟

لم يجب دمير نهائيّاً. سأل المدير سؤالاً آخر:

- من اخترع الطابعة؟

سكت دمير مجدّداً. سأله المدير الذي يعرف بأنّ دمير تلميذٌ مجتهدٌ:

- لماذا لا تجيب يا دمير؟

قال دمير:

- لأنّني نسيت يا أستاذي.

- اشرح لنا عن اكتشاف أمريكا.

- نسيت يا أستاذي.

- ما المقصود بعصر النهضة؟

- نسيت يا أستاذي.

قال المدير الذي بدأ يغضب قليلاً:

- هل نسيت كلّ هذا يا بنيّ؟ اشرح أيّ شيء تعرفه...

قال دمير:

- نسيتها كلّها، نسيت كلّ ما تعلّمته في الماضي.

- لماذا؟

- هذا ما قاله لنا أستاذنا. قال: انسوا كلّ ما تعلّمتموه من آنستكم القديمة.

أوقفني المدير هذه المرّة:

- من هو مكتشف طريق البحر الهنديّ؟

يا لهذه المصيبة! اسم الرجُل على لساني، ولكنّني لا أستطيع تذكّره بشتّى الوسائل. كان دمير يقول: «نسيت» متعمّداً؛ أمّا أنا، فإنّني قد نسيت حقّاً. قلت:

- نسيت يا أستاذي.

نظر المدير إلى معلّمنا من فوق عدستَيّ النظّارات، وخرج بدون أن يقول شيئاً. بدأ معلّمنا بالشرح من حيث توقّف كأنّ شيئاً لم يحدث:

- فلْنأتِ إلى السلطان ياووز سليم...

وفي الاستراحة، أثنى الأصدقاء علينا أنا ودمير لما فعلناه؛ أمّا أنا، فإنّني بالفعل قد نسيت اسم مكتشف طريق المحيط الهنديّ.

انظري ماذا حلّ على رأسي من وراء هذا النسيان. كنّا سنقدّم عرضاً صغيراً في الاجتماع الأوّل لأولياء الأمور، وأنا كنت سأقرأ شعراً كتبته بنفسي لذلك العرض.

في أحد الدروس شرحت لنا معلّمتنا القديمة الفوائد الكثيرة للغنم: «يُستفاد من حليبه، وتُستخرج منه الإلية، يُؤكل لحمه، يُغزل الصوف من فروه، لجلده فوائد، لعظمه استعمالات، حتّى فضلاته تصبح سماداً».

وأنا بدوري وبعد هذا الدرس كتبت هذه القصيدة:

الغنم
منه تُستخرج الإلية
وحليبه من الأثداء
يُصنع من فروه الناعم قماش للّباس والكساء

تُصنع المقابض من قرنيه
والغذاء من لحمه
تُصنع القربة من جلده
والسماد من بعره
في كلّ أيّار يضع حَمَلاً
والفوائد في عظمه

أعطيتُ هذا الشِّعر معلّمتي القديمة، وقد أعجبها. قالت لي:

- فلْتقرأ هذا الشِّعر يوم اجتماع أولياء الأمور.

وأنا أيضاً أحببته. أمضيت أيّاماً أحفظ قصيدتي التي تحمل عنوان: «الغنم». لم أرغب بحدوث أيّة عثراتٍ عندما أقرأها في اجتماع الأولياء، ولكنْ في تلك المدّة نُقلت معلّمتنا إلى مكانٍ آخر. عندما علم معلّمنا الجديد بأنّني سأقرأ شِعراً في الاجتماع، طلب إليّ قراءته، وبعدها قال:

- هذا ليس شعراً. كم مرّةً قلت لكم بأنْ تنسوا ما تعلّمتموه في الماضي؟ ستحفظ الشعر الذي سأقوله لك، وتقرأه في الاجتماع.

أشار إلى قصيدة عنوانها: «بلادي» في كتاب القراءة، وقال:

- هذا هو الشعر الذي ستحفظه وتقرأه.

ولكنْ، لم يكن قد تبقّى الكثير من الوقت لحفظ القصيدة؛ كان العرض في اليوم التالي. أنتِ تعرفين تلك القصيدة. إذا كنتم أنتم أيضاً تدرسون في كتاب القراءة خاصّتنا ذاته، فافتحيه وانظري. إنّها هذه:

يا بلاد الصدريّات ترابيّة اللّون، والفساتين الذهبيّة
يا بلاد السنابل، والحشائش، والكروم، والبساتين
الموزّعة، لكلّ شخصٍ منها أربعون

يا بلاد الأساطير المهيبة

تحية!

يا بلاد الأم التي ربّت هذا الشخص العظيم

يا بلاد المعاناة، والفرح، والثقة، والإيمان

يا بلاد «سنان» الواضحة في المآذن الشامخة

تحية!

إنّها قصيدة تبدأ بـ«يا»، وتنتهي بـ«تحيّة». اجتهدتُ كثيراً، ولكنّني بسبب ضيق الوقت، لم أستطع حفظها جيّداً.

في الصباح التالي، عندما أتيت إلى المدرسة، قال لي المعلم:

- فلْنقُم بِـ«بروفا» قبل الصعود إلى المنصّة. اقرأ القصيدة!

قرأتها، فقال: «لا يمكن. الشِّعر لا يُقرأ هكذا!».

قرأتها مجدّداً. لم يعجبه أيضاً. قال:

- يا بنيّ، الشِّعر لا يُقرأ مثل سؤال عابر سبيلٍ عن عنوانٍ ما. صوتك يجب أن يهزّ الأرض، ستخفض صوتك أحياناً، وترفعه أحياناً أُخرى. ستصرخ في المقاطع الحماسيّة. ستقرأ بعض المقاطع بصوتٍ هامسٍ لطيفٍ، وبعض المقاطع الأُخرى زائراً كالأسُود، ثمّ تضع يدك اليمنى على خصرك، وتلوّح بيدك اليسرى في الهواء. وعند قراءة كلمة «تحيّة» هذه الموجودة في نهاية كلّ شطر، عليك أن تضرب الأرض برجلك بسرعة. سأقرأها مرّةً واحدةً أمامك لتفهم كيف يُقرأ الشِّعر، وعلى هذا الأساس اقرأ.

قرأ المعلّم الشِّعر كما شرحه لي تماماً: عند قوله «تحيّة» رفع قدمه اليمنى عالياً كأنّه سيقفز، ثمّ ضرب الأرضَ بكعبه بسرعة.

- هكذا، ستضرب الأرضَ بقدمك مثلما فعلت، كأنّك تدهس رأس العدوّ وتهرسه...

وأنا بدوري قرأت القصيدة مثلما قرأها، ولكنّها تداخلتْ عندما وضعت إحدى يديّ على خصري، ولوّحت بقبضتي الأُخرى في الهواء، وضربت الأرض بقدمي، وأنا أقول: «تحيّة تحيّة». لو أنّني قرأتها كما أعرف بأسلوبي لما تعثّرت نهائياً. أُعجِب بقراءتي للشِّعر، ولكنّه لم يُعجب بضرب الأرض بقدمي. وكلّما صحت «تحيّة!» ضارباً الأرضَ بقدمي اليمنى، يقول:

- أسرع، أسرع... اضرب الأرض بكعبك!

كنت أضرب بقدمي بأقصى ما لديّ من سرعة، ومع ذلك لم أنلْ إعجابه.

وفي النهاية قال:

- انظر، هكذا..

رفع قدمه وصرخ: «تحيّة!»، وضرب الأرض إلى درجة اهتزّت بها نوافذ الصفّ. ثمّ قال:

- أرأيت؟ هكذا. ستهتزّ الأرض عندما يضربها الفتى التركيّ بقدمه!

قلت له:

- ولكنْ يا أستاذي، وزنكم أنتم مئة كيلو على الأقلّ؛ أمّا أنا، فلا أتجاوز الاثنين وأربعين كيلو.

لم أنل إعجابه على الرغم من كلّ ما فعلته، وغضب كثيراً، ثمّ بدأ يقول: «يا بلاد الأساطير المهيبة»، وهو يضرب قدمه بالأرض، وبعد كلمة «تحيّة» تلك، بدأ يصرخ: «آخ، آآخ، آآآخ!».

كما تعلمين، فإنّ أرضيّة صفّنا مهترئة. لقد انزلقت قدم المعلم بين

بلاطاتها. ساعدته، واستطاع بصعوبةٍ إخراج قدمه من هناك. في تلك الأثناء، سمع معلما الصفين: الثالث، والرابع تلك الضجّة، وأتيا مذعورين، وسألا:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

قال لي المعلّم، وهو يعرج خارج الصفّ:

- هل رأيت كيف ستضرب قدمك؟ عندما تضربها بالأرض ستنشطر وتهتزّ كما لو أنّ هناك زلزالاً...

عندما ذهب المعلّم، لحظتُ أنّني لا أستطيع المشي على نحوٍ مريحٍ، وقد تأذّى كعبي بسبب ضربي الأرض بقدمي، وأنا أقول: «تحيّة، تحيّة!».

كان قد تبقّى على العرض ساعتان.

استغرق معي حفظ شعر «الغنم» الذي كتبته بنفسي شهراً كاملاً. وعلى الرغم من أنّني حاولت نسيانه، لكنّني لم أستطع ذلك بأيّ شكل. لقد علق في ذهني إلى الأبد. النسيان ليس بيدي. بينما أنا أقرأ قصيدة «بلادي» تعلق كلمات قصيدة «الغنم» على لساني. حفظت بعض المقاطع من قصيدة «بلادي»، ولكنّني بسبب ضربي الأرضَ بقدمي طار كلّ ما حفظته من عقلي. رجّ عقلي بسبب ضربي الأرضَ بكعبي. دفعني الأصدقاء من ظهري، وهُم يقولون:

- جاء دورك، جاء دورك. هيّا إلى المنصّة.

امتلأت القاعة بأولياء الأمور. كان معلّمنا ينتظر في الكواليس، يلقّن قارئي الشِّعر عند تعثّرهم همساً.

عندما صعدت إلى المنصّة، سلّمت على الموجودين في الصالة برأسي، لكنّني بمجرّد أنْ أحنيت رأسي من أجل السلام، نسيت -على

الفور- القصيدة التي سأقرأها. تأمّلي هذا الوضع يا زينب! ألا تخطر في بالي قصيدة «الغنم» على الفور؟ عوضاً عن أنْ أنسى ما تعلّمته سابقاً، نسيت ما تعلّمته حديثاً...

تخيّلي وضعي الصعب هذا: أقف على خشبة المسرح أنظر إلى من في الصالة، وهُم ينظرون إليّ؛ نتبادل النظرات.

من الجيّد أنّ معلّمنا همس من الكواليس: «بلادي»، فصرخت أنا بأعلى صوتي «بلاادي!». صرخت، لكنّني لم أستطع المتابعة بأيّ شكل. طار الشِّعر كاملاً من عقلي. لا يمكن الوقوف صامتاً هكذا. ولتوفير الوقت، على الأقلّ ريثما يخطر الشِّعر على بالي، صرخت: «بلاادي!» من جديد. صرخت وسكتت.

ألا يصفّق الموجودون في الصالة بحماس؟ ذُهلت تماماً. لم أستطع أن أفهم سبب تصفيقهم عندما صرخت: «بلادي!». سمعت همس معلّمنا، ثمّ بدأت قراءة القصيدة على الفور بقولي: «يا». ولكنّ صراخي بصوتٍ عالٍ: «بلادي» على التّالي أفقدني صوتي، فخرجت «يا» من فمي ناعمةً مثل صرير الباب. احتدم تصفيقٌ آخر. بعد هذا التصفيق ارتبكت تماماً. قيل: إنّني قرأت القصيدة مبدّلاً مواضع كلماتها، وحسب ما قاله الأصدقاء لاحقاً، انظري كيف قرأت ذاك الشِّعر الجميل:

يا بلاد تراب الصدريّات، والفساتين الذهبيّة
يا بلاد السنابل، والحشائش، والأحصنة، والأساطير
الموزّعة كلّ واحدةٍ منها على أربعين
يا بلاد البساتين المهيبة
تحية!

وبينما كنت أقرأه، ضربت الأرضَ بقدمي، فقفزت في الهواء فجأةً! هل تعلمين لماذا؟ بسبب ضربي الأرضَ بكعبي في أثناء التدريب أمام المعلّم، تراخى مسمار من مسامير حذائي، وخرج رأسه. عندما قلت: «تحيّة» وأنا أضرب الأرضَ بقدمي بكلّ قوّتي، ولج رأس ذلك المسمار المدبّب في كعبي، كأنّ سيفاً دخل من قدمي ولامس كبدي.

وبسبب هذا الألم نسيت ما حفظته من الشِّعر. انفجر المستمعون من الضحك؛ أمّا أنا، فكنت على وشك البكاء. ومن ناحيةٍ أُخرى: صرت أنظر إلى الكواليس لعلّي أسمع همس المعلّم. عندما أدرك المعلّم أنّني لن أسمع همسه، صرخ:

- يا بلاد الأم...

التقطتُ الكلمة على الفور، وبدأت بالقراءة:

- يا بلاد الأم... بلاد الأم، الأم....

ومجدّداً لم أستطع تذكّر البقيّة. قرأت بداية ذلك الشطر عدّة مرّات لعلّي أتذكّر، ولكنّني عندما أصل إلى كلمة «الأم» أتعثّر مثل أسطوانة علقت إبرتها. وبينما كنت أردّد بصوتٍ مرتجفٍ وباكٍ: «الأم... الأم...»، ألا تخطر ببالي قصيدة «الغنم» وأبدأ بقراءتها بصوتٍ عالٍ؟

الأم... الأم... الأم...
منها تُستخرج الإلية
وحليبها من الأثداء
لها فرو ناعم...

ومن الكواليس يرفس المعلّم بأقدامه، ويقول: «يا سبلاً... وقوافلَ..». وأنا بدوري أقول ما أسمعه منه، ثمّ أتابع إلقاء قصيدة «الغنم»:

قوافل...
تحيّة
تصنع المقابض من قرنيها
والغذاء من لحمها
تصنع القربة من جلدها
وسماد من روثها
تحيية..

قفزت عن المنصّة، كأنّ المدرسة ستنهار من التصفيق. قال المعلّم بحزنٍ شديد:

- ماذا فعلت يا أحمد؟

- وماذا بوسعي أن أفعل يا أستاذ؟... لا يمكن للإنسان مهما فعل أن ينسى على الفور ما تعلّمه في السابق.

لو نطقت بكلمةٍ واحدةٍ أُخرى سأبكي. بدأنا بالمشي أنا ومعلّمي معاً في الممرّ. كنّا كلانا نعرج. كنت أمشي قفزاً لئلّا ينغرز المسمار في قدمي.

وفي المساء، قال لي أبي:

- يا لبراعتك يا بنيّ! تجاوزت الجميع؛ انهار الضيوف على الأرض من الضحك.

قالت أمّي:

- انسال الدمع من عيني لشدّة الضحك، كدت أن أفقد الوعي.

لم يدرك الجمهور ارتباكي، بل ظنّوا أنّني فعلت ذلك متعمّداً.

وهكذا يا زينب، لقد مرّت أيّامي الأخيرة صاخبة. سألتني في رسالتك عمّا إذا كان أبي الأوّل على صفّه عندما كان طالباً. مع الأسف، لم يكن أبي

الأوّل على صفّه؛ لأنّه لم يذهب إلى المدرسة نهائيّاً. لو ذهب إلى المدرسة لقال لي حتماً مثل كلّ الآباء: إنّه كان الأوّل على صفّه دائماً.

أنتظر رسائلكِ المبهجة، وأرجو لكِ السلامة.

زميلك القديم في الصف

أحمد طاراباي

من يَعمل يَكسب

أنقرة، 26 تشرين الثاني / نوفمبر 1963

أخي العزيز أحمد:

اكتب لي مطوّلاً كما فعلت في رسالتك السابقة، ممكن؟ لا تقلق من الإطالة، فقد قرأت رسالتك بنفَسٍ واحدٍ، كما قرأتها أيضاً على زميلين لنا في صفّنا؛ ضحكا كثيراً...

لم نعد نستطيع اللّعب في حديقة العمارة؛ لأنّ الطقس أصبح بارداً هنا. عندما أعود من المدرسة أراجع دروسي، وأساعد أمّي أيضاً. أختي الكبيرة لا تحبّ أعمال البيت، حتّى إنّها لا تحبّ رؤية العمل نهائيّاً. إنّها تحبّ دخول المطبخ فقط، وتعشق صنع الفطائر والكعك؛ أمّا أمّي، فهي لا تحبّ دخولها المطبخ أبداً، وتقول دائماً: إنّ أختي الكبيرة إذا دخلت المطبخ فلن تستطيع بعدها العثور على أيّ شيءٍ لمدّة أسبوع.

كانت أختي الكبيرة على وشك الخطوبة، ولكنّها تراجعت فيما بعد. في الأيّام الأخيرة أصبح هذا الموضوع أهمّ موضوعٍ في البيت، لكنّ الخطوبة فُسخت؛ بسبب كلمةٍ قالها أخي متين.

يزورنا جيراننا، زملاءُ أبي في المدرسة، في اللّيل، أو نذهب نحن لزيارتهم مرّتين في الأسبوع على الأقلّ. عندما يجتمع الزملاء الأربعة يغلب على حديثهم ذِكْرُ «زينل بيك». يذمّون زينل بيك بدون توقّف. زينل بيك هذا هو صاحب المكان الذي يعمل فيه أبي مع زملائه.

تقول أمّي باستمرار:

- لقد سئمت من زينل بيك هذا. يا أخي، ألا يوجد لديكم حديثٌ آخر غيره؟

وبسبب تحذيرها هذا يغيّرون الموضوع، ولكنْ بعد مدّةٍ وجيزةٍ يلفّون ويدورون ويعودون إلى الموضوع ذاته مجدّداً.

يملك زينل بيك عدّة أماكن للعمل؛ إنّه غنيٌّ جدّاً. يزداد غناه في كلّ يومٍ يمرّ. ولكنّ مخ زينل بيك هذا «سميك» لدرجة أنّه أنهى مدرسته الابتدائيّة بصعوبة.

أحد زملاء أبي من بلد زينل بيك نفسه، يقول:

- يكبرنا بعشر سنوات. عندما كان في الصفّ الثالث كنت قد دخلت المدرسة حديثاً. تخيّلوا كم سنة مرّ على دخوله المدرسة! أنهيت أنا المدرسة الابتدائيّة، وهو ما يزال في الصفّ الرابع. اعتاد والد زينل وأصدقاؤه السخرية منه بقولهم: «من المحتمل أنّ ابنك سيكون مديراً...»؛ لأنّ شاربيه قد خطّا، وهو في المدرسة الابتدائيّة.

في أحد الأيّام، أتى مفتّشٌ إلى المدرسة، وحسب أنّ «زينل» هو المعلّم، والمعلّم هو الطالب، فقال له: «اجلس في مقعدك يا بنيّ».

وهكذا كان: بلا مخّ، ورأسه كالحجر.

وعلى ضوء ذلك يقول أبي دائماً:

- كأنّه تغيّر اليوم! إنّه أسوأ من ذي قبل...

هل تخمّن ماذا يقولون عن زينل بيك هذا أيضاً؟ يقولون: «إنّه أحد الحمقى النادرين الذين يظهرون في بلادنا كلّ قرنٍ مرّة». ويقولون: «إنّه بطل الغباء الذي لا مثيل له على الكرة الأرضيّة». وأشياء أُخرى كهذه...

قال والده له: «أنت لن تصبح رجُلاً بدراستك، وإن كان ولا بدّ، فعلى الأقلّ اعمل معي في مجال التجارة».

ثمّ دخل زينل في التجارة، وما عادوا يستطيعون إنقاذ التجارة منه؛ أصبح غنيّاً جدّاً.

على حدّ قولهم: إنّه رجُلٌ كسولٌ خاملٌ، ولكنّه يملك موهبةً عظيمةً: وهي معرفة كيفيّة توظيف الرجال. يوظّف في أماكن عمله وشركاته العديد من المعماريّين، والمهندسين، والمحامين، والأطبّاء، وما إلى ذلك.

استمرّ أبي بالشكوى:

- كأنّنا درسنا واستفدنا، ولم نجد عملاً إلّا مع زينل بيك.

كانوا يحكون كثيراً عن جهل زينل بيك: ففي أحد الأيّام ذهب زينل بيك مع أحد مديريه وسكرتيره إلى هولندا، ومكثوا هناك مدّةً طويلة. قال للمدير الذي معه: «مملكة الأراضي المنخفضة(*) هذه جميلة، أعجبتني. لقد أثنوا عليها كثيراً أمامي، فلْنذهب أيضاً ونرَ هولندا تلك...».

في إحدى الرحلات، تعجّب عندما علم أنّه ذهب إلى المملكة البولنديّة(**)، وقال: «ياهو، أنا أتيت إلى هنا على أساس أنّها بولندا، هذا يعني أنّنا أخطأنا... فلْنذهب ونرَ بولندا تلك...».

(*) الترجمة الحرفية لاسم دولة هولندا. (المترجم).

(**) الاسم الرسمي لبولندا. (م).

في إحدى اللّيالي، كانوا يستهزئون بجهل زينل بيك في بيتنا، وفجأةً! تدخّل متين قائلاً:

- كيف يمكن لشخصٍ جاهلٍ، وغبيٍّ، وكسولٍ أن يصير غنيّاً هكذا؟

أسكتت أمّي متين قائلةً له:

- عندما يتحدّث الكبار لا يتدخّل الصغار.

ولأنّ أبي شعر بالحاجة إلى التوضيح قال:

- لن يستوعب عقلك هذا الأمر.

خُطبت أختي الكبيرة لابن زينل بيك هذا. بتعبيرٍ أدق: لم تقم الخطوبة، إنّما وعد بها فقط.

هل رأيتَ أختي الكبيرة من قبل؟ إنّها لا تشبهني.. يعني: أنا لا أشبهها؛ إنّها جميلةٌ جدّاً.

لم يفتحوا سيرة الخطوبة أمامنا في البيت نهائيّاً. وأختي الكبيرة لم تخبرنا بشيء. ولكنّنا فهمنا ذلك من سياق الحديث. كان متين أوّل من شعر بذلك الجوّ غير المعتاد داخل البيت. فبينما كانت أمّي تهتمّ بأعمال المنزل، وهي تُنشد الأغاني، حاولت أختي الكبيرة إخفاء فرحتها التي بدت واضحةً من تصرّفاتها.

في أحد الأيّام قال لي متين:

- هل تعرفين؟ أختي الكبيرة ستُخطب.

قلت له: شيء جيّد يا...

- ولكنْ هل تعرفين لمن؟

تظاهرت بأنّني لا أعرف، وسألت:

- لمن؟

- لابن زينل بيك.

لم أنبس بأيّ كلام، فانفعل وقال:

- ألا تفهمين يا... أقول لكِ سيخطبها ابن زينل بيك.

- وما المشكلة في الأمر؟ لماذا تنفعل هكذا؟

- همممم... هذا يعني أنّكِ في صفّهم أيضاً.

- لا يهمّني هذا الأمر.

أكثر من يتّفق معه متين في البيت هو أنا.

استشاط غضباً وصرخ:

- كيف لا يهمّك؟ أنا لا أريد، لا يمكن لشيءٍ كهذا أن يحدث!

وعندما لم أصدر أيّ صوتٍ حتّى لا أستفزّه، أضاف:

- ألا يقولون عن زينل بيك: «واحد حمار»، «واحد حيوان» باستمرار؟ والآن كيف سيخطّبون أختي الكبيرة لابن شخصٍ يقولون عنه: إنّه حمار؟

- وما علاقة الابن بالأب؟

- هاااا... كأنّ الابن أفضل! لم يستطع الحصول حتّى على الشهادة الثانويّة، أحضر له أبوه مدرّسين خاصّين، وجعله ينهي المرحلة الثانويّة بالمال، ثمّ قال له: «يكفي يا بنيّ، لن تدرس بعد الآن، سيتشوّش عقلك هكذا، ولن تصير رجُل أعمال». هل أكذب؟ أليس هذا ما يقوله أبي وزملاؤه؟

قلت له:

- إيّاك أن تسمع أمّي هذا الكلام يا متين. الكبار يفكّرون على نحوٍ أفضل منّا.

قال متين بصوتٍ غاضبٍ ومستاء:

- أعرف، أنت تقفين إلى جانبهم أصلاً. إنّني غاضبٌ من أبي أيضاً...

- لماذا؟

- لماذا يعني! لا يتركون شيئاً لا يقولونه عن زينل بيك، ومن ثمّ يذهبون للعمل معه. أيُعقل هذا؟

استدار وذهب. كان واضحاً أنّه ذهب لكيلا أراه يبكي؛ لأنّ صوته كان يرتجف عندما لفظ الكلمات الأخيرة.

ومنذ ذلك اليوم أصبح متين طفلاً مشاكساً وشرساً أكثر من ذي قبل. بدأت تأتي الشكاوى من المدرسة. أصبح يسيء التصرّف، كما بدأت تنهمر علينا رسائل المعلّمين التي تقول: إنّه لا يدرس. انزعج أبي للغاية. نصحه كثيراً. حتّى إنّه في إحدى المرّات ضربه... ولكنّ ذلك لم يُجْدِ نهائيّاً. وصار يهرب من المدرسة مرّةً أُخرى. تصحبه أمّي إلى المدرسة كلّ صباح، ولكنّه يهرب بعد ذهابها. عندما يتحدّث إليه أبي في البيت بلطفٍ يعبس، ويحني رأسه إلى الأسفل، ولا يفتح فمه نهائيّاً.

في أحد الأيّام، أردتُ أن أتحدّث إليه لعلّي أفهم مشكلته، فانفعل وقال بأسلوب رجُلٍ كبير:

- عقلكِ لا يستوعب أموراً كهذه!

بسبب شراسة متين هذه لم يعد لبيتنا أيّة نكهة. أمّي تبكي باستمرار، ووجه أبي عابس دائماً.

في إحدى المساءات، وعندما حلّ الظلام، لم يعد متين إلى البيت. نزلنا إلى الشوارع، وبدأنا نبحث عنه. بحثنا في كلّ الأماكن التي من الممكن أن يذهب إليها. لم نجده. عدنا إلى البيت. أتى زملاء أبي إلينا أيضاً. بكت

أمّي. وكانوا يتباحثون حول المكان الذي من الممكن العثور فيه على متين، ثمّ قُرِع الباب. ركضنا كلّنا. لقد كان القادم هو متين.

توتّر الجوّ في المنزل للغاية، ولكنّ متين لم يكن خائفاً من أبي نهائيّاً. ولأنّ أصدقاء أبي قالوا له: «إيّاك أن توبّخه!». لم يصدر صوتاً قطّ. تصرّف الجميع كأنّ شيئاً لم يحدث.

بعد قليل، أجلس أبي متين مقابله، وبدأ ينصحه بصوتٍ لطيف:

- يا بنيّ، ليس رجُلاً من لا يذهب إلى المدرسة، ولا يحضر دروسه. كلّما عمل الإنسان أكثر كسب أكثر، وارتاح في المستقبل. عليك أن تعمل بجدٍّ وأنت صغير حتّى ترتاح عندما تكبر.

تلك هي نصائح أبي المعتادة. وأصدقاؤه أيضاً قالوا كلمات تشبهها:

- في هذه الحياة، الشخص الذي يعمل هو من يكسب يا بنيّ...

- طريق النجاح هو العمل، العمل طوال الوقت...

متين، الذي كان حانياً رأسه إلى الأسفل، وعابساً، وصامتاً، رفع رأسه فجأةً! وسأل:

- كم يكسب من يعمل؟

- كلّما عمل أكثر كسب أكثر.

- هل مَن يعمل بجدٍّ يكسب مثلما يكسب زينل بيك؟

حلّ الصمت بسبب سؤال متين هذا، وفهموا غايته. بعد ذلك ليّن أبي صوته وقال:

- نحن أيضاً كنّا أطفالاً في زمانٍ مضى، وقد مررنا بمرحلة الطفولة أيضاً. ولكنّنا عندما كنّا أطفالاً...

قاطع متين كلمة أبي قائلاً: «من لا يعمل يكسب أكثر».

احتدّ أبي ورفع صوته قائلاً:

- هل يعني أنّ أباك كذّاب؟

بدأ متين بالبكاء، واختلطت كلماته ببكائه، وقال:

- أنتم محقّون. ألستم أنتم من تقولون كلّ ليلةٍ بأنّ زينل بيك شخصٌ كسولٌ، ورأسه كالحجر، وجاهلٌ، وغبيّ؟ إنّه يملك مصانعَ، وشركاتٍ، وأماكنَ عملٍ، ومحالّ، وسيّاراتٍ، وأبنية. ابنه لم يدرس، وهو مثله أيضاً...

كان يبكي من جهة، ويصرخ بصوته المشروخ من جهةٍ أُخرى:

- أنا لن أذهب إلى المدرسة بعد الآن. سأصبح أغنى من زينل بيك. سأقوم بتوظيف رجالٍ أكثر من رجاله. سأوظّف الناس المجتهدين، والمتعلّمين، والدارسين.

ولأنّ متين اتّجه إلى غرفته أتت كلماته الأخيرة من الداخل.

نادى عليه أبي الذي أصبحت عيناه ضبابيّتين:

- حسناً يا بنيّ، اعمل ما تشاء. لا تذهب إلى المدرسة إذا شئت.

قال أصدقاؤه بهدوء:

- دعونا لا نضغط عليه.

صحبت أمّي متين من غرفة نومه ليغسل وجهه.

قال أحد أصدقاء أبي:

- إنّه خَطَؤنا؛ نتحدّث عن كلّ شيءٍ أمام الأولاد. لا يمكن الحديث عن كلّ شيءٍ أمامهم...

نظرت زوجة هذا الرجُل إلى زوجها وغمزت بعينها مشيرةً إليّ.

قال صديقٌ آخر لأبي:

- من المحتمل أنّ الولد على حق. بعد كلّ هذه السنوات التي درسنا فيها ماذا حدث؟ بصعوبة وجدنا عملاً عند زينل بيك.

أدرك كلٌّ من أبي وأمّي أنّ انزعاج متين سببه رغبتهما بخطوبة أختي الكبيرة لابن زينل بيك. بعد بضعة أيّام تراجعوا عن الوعد الذي قطعوه من أجل الخطوبة. ثمّ وجدوا عملاً لأختي الكبيرة، وهي تعمل الآن. لقد تعبتْ من النوم في البيت؛ ما يعني أنّها هي أيضاً غير راضيةٍ عن هذه الخطوبة. الآن أُدرك أنّها وجدت نفسها حرّةً أكثر.

في صباح تلك اللّيلة التي أفرغ فيها متين ما بداخله، بدأ يذهب إلى المدرسة من جديد كما في الماضي. أصبح طفلاً خلوقاً أكثر من ذي قبل. أيقن أنّه هو الذي خرّب الخطوبة، وهذا سبب حُسن خلقه. صار يدرس دروسه أكثر من السابق. تصالح مع جميع من في البيت، ولكنْ ولسببٍ ما لم تعد علاقته جيّدة معي. إنّه مستاءٌ منّي؛ أعتقد أنّ سبب ذلك هو عدم موافقتي إيّاه في الرأي. إلّا أنّني كنت في صفّه أيضاً، ولكنّني لا أستطيع فعل ما فعله. لا أعتقد أنّ غضبه سيستمرّ طويلاً.

لقد كتبت هذه الرسالة بعد طعام العشاء. أشعر بالنعاس، وسأخلد للنوم الآن. غداً هو يوم الأحد. ستصحبني أمّي أنا ومتين إلى مسرح الطفل.

لم أنس أيّاً من زملاء صفّي هناك، اشتقت إليكم جميعاً. أتأمّل أحياناً الصور التي التقطناها معاً وأتذكّركم. تحياتي الحارّة لكم جميعاً... أرجو لك التميّز أيضاً.

صديقتك

زينب يالكر

الأطفال المضحّون

إسطنبول، 30 تشرين الثاني / نوفمبر 1963

الأخت زينب:

مرّ على استلامي رسالتَكِ يومان. وددت أن أردّ عليكِ على الفور، لكنّ معلّمنا أعطانا واجباتٍ منزليّة، وقد كانت كثيرةً؛ ولهذا السبب لم أستطع كتابة ردٍّ حتّى الآن.

يزيد حبّي لمعلّمنا الجديد مع مرور الأيّام. لقد كتبت إليكِ سابقاً حول ما فعله دمير في ذلك اليوم الذي جاء فيه المدير إلى الصف. فبعد تلك الحادثة اعتقدنا جميعاً أنّ المعلّم سيستاء منه، والحقيقة أنّ ذلك لم يحدث قطّ، حتّى إنّه لم يستأ منّي أيضاً. كنت خائفاً جدّاً بعد تلك الحادثة.

ركّز معلّمنا مؤخّراً على موضوع التضحية، وروى لنا حكاياتٍ كثيرةً عنها. بعد كلّ حكايةٍ يرويها كان يسألنا:

– ماذا فهمتم من هذه الحكاية؟ ما النتيجة التي توصّلتم إليها؟ ما العبرةُ المستفادةُ منها؟

هل تعلمين لماذا بدأ المعلّم يحبّني؟ لأنّني أستخلص العِبر من

الحكايات التوضيحيّة التي يرويها كما يريد بالضبط؛ فأنا أعرف ما يريده مسبقاً، وأتكلّم على نحوٍ يعجبه، ويقول لي كلّ مرّة:

- أحسنت يا أحمد!

ثمّ يقول للطلّاب:

- هكذا يجب أن تكونوا؛ مضحّين مثل الطفل الذي حكيت لكم عنه في الحكاية.

لكنّنا في إحدى المرّات دخلنا في مناقشةٍ حادّة. فقد سئمت من استخلاص العِبر كما يريدها المعلّم. في ذلك اليوم، علّقت على القصّة وفقاً لفهمي أنا.

ملخّص الحكاية التي حكاها لنا معلّمنا هو الآتي: طالبٌ قرويٌّ في المدرسة الابتدائيّة، في مثل سنّنا، يتسلّق شجرة الحور، لمراقبة العدوّ في أثناء الحرب. وعندما يرى هذا الطفل -الذي كُلِّفَ بمهمّة الرصد- الأعداءَ من بعيد، عليه أن يبلّغ قائد الجنود في القرية. يرى هذا الطفل العدوّ قادماً من بعيد، وبينما كان يركض إلى القرية لإبلاغهم، أصيب برصاصةٍ من العدوّ، لكنّه يتمكّن من إبلاغ القائد، ثمّ يموت بين ذراعيه. بعد سرد الحكاية سأل معلّمنا:

- يا أحمد، اشرح لنا، ما العِبرة من هذه الحكاية؟

قلت:

- يا أستاذي، هل حدثت هذه الحادثة حقّاً؟ أم اختلقها الكبار ليأخذ الأطفال منها درساً عن التضحية؟

تعجّب المعلّم؛ لأنّه لم يتوقّع منّي سؤالاً كهذا. بعد أن فكّر قليلاً قال:

- وماذا تقصد؟ ما الفرق إن كانت حقيقيّةً أم مختلقة؟

- إن حدثت في الواقع، فمن الصعب تصديق شيءٍ كهذا.

- لماذا؟

- ألم يعثروا على شخصٍ آخر غير هذا الطفل ذي الأحد عشر عاماً ليراقب العدوّ؟ يعني: هل بحثوا وبحثوا ولم تقع هذه المهمّة إلّا على عاتق طفلٍ عمره أحد عشر عاماً؟ أسئلة كهذه تخطر على بالي. تشتعل الحروب من أجل أن يعيش الأطفال، ثمّ يُعيّن طفلٌ بصفة راصد...

قال معلّمنا مقاطعاً كلامي:

- إنّها حكاية طبعاً.

ثمّ سأل تلاميذ الصف كلّهم:

- هل أنتم أيضاً تفكّرون مثل أحمد؟

ارتفعت أصواتهم قائلين: «لا، لا، لا...».

فجأةً! قفز جنكيز على قدميه، وقال:

- يا أستاذي، يجب أن نكون مضحّين، هذا ما تقوله الحكاية.

ثمّ التفت إليّ متباهياً كأنّه قال شيئاً مهمّاً.

ولكنّ دمير قال:

- أنا أفكّر مثل أحمد يا أستاذي.

فجأةً! سأل معلّمنا الجميع:

- حسناً، لماذا يفكّر أحمد ودمير بطريقةٍ مغايرةٍ لكم؟

قفز جنكيز مرّةً أُخرى وصرخ:

- يا أستاذي، هما هكذا دائماً؛ يريدان أن يتميّزا عنّا فقط...

رنّ جرس الاستراحة. قال معلّمنا:

- سنتحدّث عن هذا الموضوع مجدّداً بعد استراحة الظهر.

هل أخبرك شيئاً يا زينب؟ لقد سُعدت كثيراً لرنين الجرس؛ لأنّني لم أكن أعرف ما سأقوله للمعلّم، كنت سأبدو سخيفاً. عندما مرّ جنكيز بجانبي قال:

- وماذا سيحدث يا متحذلق؟

قالت سلمى الموجودة بجانبه أيضاً:

- لا يمكنه إلّا أن يتحذلق...

أعتقد أنّني كنت أتحذلق، ولكنّ الحكاية حقيقةً لم تعجبني على الإطلاق.

في الواقع، بدت حكاية التضحية التي حكاها لنا معلّمنا مثيرةً للغاية. تأثّرنا جميعاً بها إلى درجة أنّ الأطفال في استراحة الظهر، وبعد تناول الطعام، تسلّقوا قمم الأشجار الموجودة في حديقة المدرسة، وبدأوا بمهمّات الرصد، وبينما هُم على قمم الأشجار بدأوا بإصدار أصواتٍ مقلّدين البنادق الآليّة قائلين: «تررررت، تررررت...» متخيّلين أنفسهم يطلقون النار على العدوّ. ولعدم وجود عددٍ كافٍ من الأشجار التي تتّسع لنا جميعاً، تسلّقت أنا شبّاك نافذة الطابق الأوّل، ثمّ الحائط، ومنه إلى أنبوب المياه، ثمّ جثمت على إحدى العوارض، وعلى شجرة الأكاسيا المقابلة لي، تشاجر حسين وجنكيز حول من سيكون الراصد.

قال حسين صارخاً:

- لقد كُلّفت أنا بهذه المهمّة، هذا المكان مكاني!

ثمّ فجأةً! سمعنا صوت حسين آتياً من الأرض. وجدناه يبكي أسفل الشجرة. ركضنا كلّنا. أتى المعلّمون.

سأله معلّم الصف الثاني:

- ماذا كنت تفعل في أعلى الشجرة؟

- كنت أرصد تحرّكات العدوّ يا أستاذي.

فتعجّب المعلّم من جوابه:

- أيّ عدوّ؟ ماذا تقول؟

لم تكن جروح حسين خطرة. ضمّدوا رأسه. ارتجف جنكيز، الذي دفعه وأوقعه من أعلى الشجرة، من الخوف. على الرغم من أنّنا جميعاً كنّا نعرف أنّ جنكيز هو من دفعه، ولكنّ حسين لم يشِ به.

سأله الأساتذة:

- من دفعك؟

قال حسين:

- لم يدفعني أحد. انزلقتْ قدمي ووقعتُ.

ولم يقل شيئاً آخر.

جعلني سلوك حسين هذا أفكّر كثيراً. وبتأثير هذا التفكير، وبعد استراحة الظهر، سألت معلّمنا:

- إذا تصرّفَ أحدنا تصرّفاً ينطوي على تضحية، وكان قد فعلَ ذلك لكي يدري الجميع بتصرّفه، ألا يحيد تصرّفُه عن كونه تضحية؟

بينما كنت أقول ذلك، كنت أفكّر بتصرّف حسين.

في اليوم التالي حكى لنا المعلّم حكايةً أُخرى عن التضحية. وملخّصها أنّه ألقي القبض على طفلٍ فقيرٍ يسرق لتأمين دواءٍ لأمّه المريضة، وتقدّم طفلٌ آخر وتحمّل هذه الجريمة.

لكيلا يقولوا: إنّني أتحذلق، لم أقل وجهة نظري. والحقيقة أنّ الحماقة في هذه الحكاية عُدّتْ تضحية.

اتّفق معلّمنا مع معلّم الصف 5-B على أن ينظّما مسابقةً، لكتابة قصّةٍ عن التضحية. نالت هذه المنافسة اهتماماً واسعاً. عقد معلّمنا آمالاً كبيرةً على فوزي في المسابقة. كنت أرغب بكتابة حكايةٍ تعبّر عن رأيي في التضحية. قضيت ثلاثة أيّامٍ أكتب هذه الحكاية. قرأتها على أمّي وأبي. لم تعجب أبي الذي كان يُعجَب بما أكتب عادة. قرأتها على عمّي، ولم تعجبه هو الآخر.

ملخّص حكاية التضحية التي كتبتها هو الآتي: يمرض الأخ الصغير لطفل مرضاً شديداً. يحزن الطفل كثيراً إلى درجة أنّه يدعو كلّ ليلةٍ في فراشه قائلاً: «يا ربّ، لا تُمِتْ أخي. أمِتني أنا عوضاً عنه». في إحدى اللّيالي يرى مارداً في حلمه يقول له: «لقد قُبلتْ تضحيتك، أتيت لآخذك عوضاً عن أخيك». فيبدأ الطفل بالبكاء ويرجوه قائلاً: «لقد قلت ذلك من باب التظاهر بالتضحية فقط، لا تأخذني!». كان يصرخ عالياً في حلمه إلى درجة أنّ أمّه استيقظت وقالت له محاولةً إسكاته: «يا بنيّ، هل خفت في الحلم؟ لقد أزحتَ عن نفسك الغطاء، لهذا رأيت كابوساً. هيا استيقظ يا بنيّ...».

هل استطعت شرح ما فهمته من التضحية من خلال هذه القصّة يا ترى؟ أردت أن أسخر من الأعمال التي تمارَسُ باسم التضحية.

اجتمع الصفّان: الرابع، والخامس في الصالة من أجل العرض. وكان المعلّمون موجودين أيضاً. شارك في المسابقة ستّة طلّابٍ من صفّنا، وخمسة طلّابٍ من صفّ 5-B. سُحبت القرعة لترتيب الدور. كنت الثامن

في القرعة. عندما قرأت حكايتي عرفت من وجه المدير والأساتذة أنّها لم تعجبهم، ولكنّ الأطفال صفّقوا لحكايتي أكثر من الباقي. عند الانتهاء من قراءة الحكايات انسحب الأساتذة إلى غرفتهم لتقييمها. بدأ الضجيج في الصالة. كان الأصدقاء يقذفون الأوراق على نقرات بعضهم بالنقّيفات المطّاطيّة. في هذه الأيّام، كلّ طفلٍ في مدرستنا لديه نقّيفة. وكيف لهذه الخراطيش المصنوعة من الورق أن تؤذي نقرة الإنسان؟ أنا لست رامياً ماهراً أبداً، حتّى إنّني لا أنجح برمي حجر، والأصدقاء يهزأون منّي بقولهم: إنّني أرمي الحجر مثل البنات.

وفجأةً! آلمني ظهري، كأنّ إبرةً قويّةً دخلت فيّ... من شدّة اضطرابي أخذت النقيفة من يد الزميل الجالس بجانبي. وضعت الخرطوشة الورقيّة. قمت بشدّ النقيفة الصغيرة إلى الخلف، ثمّ أطلقت الخرطوشة. آهٍ يا زينب لهذا الحظّ!... في تلك الأثناء تماماً دخل المدير في المقدّمة إلى الصالة والأساتذة من خلفه. طارت خرطوشة الورق بعكس الاتّجاه الذي أردت التصويب إليه، وسقطت على نقرة المدير. ضرب المدير بيديه على نقرته، ثمّ نظر إلينا، والشرر يقدح من عينيه.

قال معلّم الصف 5-B:

- ليُظهر نفسه من رماها!

عندما رفعت رأسي شارعاً بالوقوف، قال معلّمنا:

- إن لم يخرج من رماها ستعاقبون جميعاً، وتبقون هنا!

نُسيت المسابقة والفائزون.

وقفت على قدميّ، وقلت:

- أنا رميتها يا أستاذي.

نظر المدير إلى وجهي بتمعّن، ثمّ قال:

– لست أنت مَن رماها!

– أنا رميتها.

– أنا أفهم وجه الإنسان من نظرة. لست أنت من رماها. عندما علمتَ أنّ جميع أصدقائك سيعاقبون، ولم يظهر الفاعل، تحمّلتَ الجريمة أنت لتحمي أصدقاءك.

ولكنّ نيّتي لم تكن كذلك قطّ.

قلت: لم يحدث هذا بإرادتي يا أستاذي. حدث بدون قصدي... كنت سأرميها إلى مكانٍ آخر، ولكنّ يدي انحرفت...

صعد المدير إلى المنصّة وقال:

– هذه هي التضحية. إنّ زميلكم هذا يريكم مثالاً عن التضحية. على الرغم من أنّه لم يرمها، ولكنّه يخاطر بنفسه حتّى ينقذكم جميعاً. ولكي يكون درساً لكم، سأسامحكم جميعاً بسبب سلوكه الجميل هذا. الحكاية التي كتبها لم تكن جميلة، ولكنّني أعلنه الأوّل في المسابقة بسبب تصرّفه المثاليّ هذا.

وماذا أفعل يا زينب؟ حدث عكس ما أردت إيصالَه تماماً. علاوةً على ذلك، ومع أنّني مذنبٌ، فقد أصبحت مثالاً للتضحية. ألا تعتقدين أنّ ما بين التضحية والتظاهر بالتضحية اختلافاً كبيراً؟

آهٍ لو أنهي المدرسة الابتدائيّة!... ولكنّ أبي يصرّ على تعليمي؛ لأنّه لم يكمل تعليمه. بعد الانتهاء من الثانويّة يريد أن يرسلني إلى مكانٍ ما خارج البلد؛ لكي أدرس في الجامعة. إنّهم من الآن يتجادلون مع أمّي حول هذا الموضوع. تقول أمّي: إنّها لا تتحمّل الحنين إلى ابنها.

الأيّام لا تمرّ أبداً، هل تشعرين بذلك أنت أيضاً؟ لقد صنعت تقويماً خاصّاً يحدّد الأيّام المتبقية حتّى الامتحانات النهائيّة. إذا لم نحسب أيّام الأحد، وأيّام العطل، فإنّه لم يبق الكثير، ولكنْ مع ذلك فإنّ الأيّام لا تمرّ.

أرجو لكِ يوماً سعيداً، بالتوفيق.

أحمد طاراباي

لم أتوقّع هذا منك قطّ

أنقرة، 7 كانون الأول / ديسمبر 1963

أحمد:

سَلِمتَ لأنّك لا تتركني بلا رسائل. عندما قرأت رسالتك الفائتة تساءلت قائلةً: هل يا ترى تحدث لك كلّ هذه الأمور الفكاهيّة؟ أم تجعلها مضحكةً؛ لأنّك أنت الذي ترويها؟ تعجبني رسائلك كثيراً، حتّى إنّني أحاول الكتابة مثلك.

في أحد الأيّام الفائتة، وقعت حادثةٌ أضحكتنا جميعاً في الصفّ. لكنّنا لم نضحك في الصفّ، بل خلال الاستراحة؛ لأنّ معلّمنا استاء منّا كثيراً بسبب هذه الحادثة المضحكة.

إيّاك أن تعتقد بأنّني أختلقها فقط لتبدو جميلةً، أو لأنّني أحرص على الكتابة مثلك. سأحاول أن أشرحها لكَ كما هي.

دعني في البداية أعرّفك قليلاً إلى بطل الحادثة: لنا صديقٌ اسمه عثمان. عثمان هذا واحدٌ من المجتهدين في صفّنا، لا سيّما في الرياضيّات؛ إنّه متميّزٌ ومنتظم. في علبة أقلامه ثمّة أقلامٌ ملوّنةٌ، رؤوسها كلّها مدبّبة،

وأتعجّب دائماً من عدم كسره إيّاها؛ لأنّ أقلامي تقع باستمرارٍ، وتنكسر رؤوسها. كلّما وجب عليّ أن أكتب شيئاً ما، لا أجد قلماً في حقيبتي إلّا ورأسه مكسور. ولكنّ وضعي أفضل بالمقارنة مع أختي الكبيرة؛ بحسب ما تقوله أمّي: فإنّ أختي الكبيرة كلّما ذهبت إلى المدرسة لم يُعثر في حقيبتها على أيّ قلم؛ أمّا أنا، فعلى الأقل، يوجد في حقيبتي قلم حتّى لو كان رأسه مكسوراً.

وظائف عثمان الكتابيّة مزيّنةٌ بخطوطٍ ملوّنةٍ، كأنّها لوحات. يصفّف سطوره مثل اللآلئ. أظهر لنا معلّمنا واجباته المنزليّة كمثالٍ عدّة مرّات. كلّما حاولت كتابة واجباتي مثل عثمان تختلط الألوان ببعضها، ولا أفلح في ذلك أبداً.

معلّمنا يتفقّد الحاضرين كلّ درسٍ تقريباً. هل يفعل معلّمكم ذلك أيضاً؟ ولا يكفي هذا، بل إنّه يعطينا واجباتٍ منزليّةً كلّ يومين تقريباً.

في أحد الأيّام قال عثمان:

- يا أولاد، لا أعتقد أبداً أنّ الأستاذ يقرأ وظائفنا.

كنت أوّل من يعترض، فقلت:

- إن كان لا يقرأ، لماذا يعطينا وظائفَ إذن؟

عاند عثمان قائلاً:

- أنا لا أصدّق أنّه يقرؤها.

سأله أحد زملائنا:

- وكيف عرفت أنّه لا يقرؤها إذن؟

قال عثمان:

- المسألة واضحة... ألا يأخذ أستاذنا الحضور كلّ يوم؟

قلنا:

- بلى، يأخذ...

- ألا يعطينا وظائف منزليّة كلّ يومين تقريباً؟

قلنا:

- بلى، يعطينا...

قال عثمان:

- لنحسبها الآن، نحن اثنان وخمسون طالباً في هذا الصفّ، أليس كذلك؟

- بلى.

- هذا يعني أنّ أستاذنا يقرأ كلّ يومٍ اثنين وخمسين ورقة حضور. إن قلنا: إنّ متوسّط الوظائف المنزليّة كلّ يومٍ هو خمسة وعشرون، هذا يعني أنّ كلّ يوم هناك سبع وسبعون وظيفة.. عندما يذهب أستاذنا إلى بيته في أيّة ساعة يبدأ بقراءة هذه الوظائف؟

- وما شأنك في هذا؟

- لنحسبها يا... كم دقيقة تستغرق معه قراءة الوظيفة الواحدة؟

ونتيجة العمليّة الحسابيّة التي أجراها عثمان تبيّن أنّ على معلّمنا أن يعطي من وقته لقراءة وظائفنا نحن فقط إحدى عشرة ساعةً يوميّاً. ويستحيل له أن يقرأها حتّى لو لم ينم ليلاً.

في نهاية هذه الحسابات سكت الأولاد، ولكنّني قلت مجدّداً:

- يقرؤها.

قال عثمان:

- نعم، إنّه يقرؤها، ولكنْ لو سألتموني، أرى أنّه يقرأ وظيفةً، أو اثنتين عشوائيّاً.

بعد محادثتنا هذه بيومٍ، أو يومين قالت لي صديقتي في الدرس الأوّل:

- من المحتمل أنّ عثمان محقّ.

ثمّ بدأتْ بالشرح. بيتها كان قريباً من بيت معلّمنا. هذا الصباح، وبينما سارت في طريقها إلى المدرسة، تطايرت أمامها أوراق بسبب الرياح. أخذت ورقةً وقعت على قدمها. نظرت وإذْ بوظيفتها التي أعطانا إيّاها المعلّم قبل يوم. راقبت المكان الذي تتطاير منه الأوراق. كانت تتطاير من برميل المهملات الموجود أمام باب بيت معلّمنا.

أظهرت صديقتي ورقة وظيفتها المجعلكة وقالت:

- ها هي!

قلت لها:

- من المؤكّد أنّه لن يحتفظ بوظائفنا للذكرى بعد قراءتها...

يجلس عثمان في المقعد على يميني. كنّا في درس التاريخ. قال:

- سأرى إن كان معلّمنا يقرأ وظائفنا أم لا.

- وكيف ستعرف؟

- سأقول لكم لاحقاً.

كان أحد الأسئلة التي سألها معلّمُنا هو: «اشرحوا الكلمات التالية: الدفتردار، النيشانجي، أمير الأمراء، الجندي الغلام العجمي. اشرحوا عصر السلطان إبراهيم».

وحسب ما حكى لنا عثمان في الاستراحة، أنّه كتب عدّة أسطر مجيباً

إجاباتٍ صحيحة عن الأسئلة، وبعد ذلك كتب رسالةً إلى السلطان إبراهيم. وابتدأت رسالته بـ: «السيّد العمّ إبراهيم المجنون!». بعد رسالته الطويلة تلك أجاب عن الأسئلة الأُخرى بهذا الشكل:

أمير الأمراء: هو ميناء على البوسفور.

الدفتردار: هو من يكون دفتره ضيّقاً(*).

النيشانجي: هو لقب تشَتين الذي في صفّنا. نسخر منه قائلين له: القنّاص الأعمى؛ لأنّنا عندما نلعب الكرة، يكسر نوافذ المدرسة كلّها في محاولةٍ منه لإحراز هدف(**).

الجنديّ الغلام العجميّ: هو رضا الذي في صفّنا؛ لأنّه يتعرّض للضرب في كلّ مرّةٍ نلعب بها لعدم تعلّمه طريقة اللّعب تماماً(***).

بينما كان عثمان يحكي لنا ذلك في حديقة المدرسة، كنّا نضحك جميعاً. ولكنّني في الحقيقة لم أصدّق أنّه فعل ذلك. كان يمزح. في اليوم التالي أحاط الخوف بعثمان؛ فماذا لو قرأ المعلّم ما كتبه؟ استمرّ خوفه هذا ليومين، أو ثلاثة. عندما لم يُبْد المعلّم أيّ ردّ فعلٍ ارتاح. وبحسب ما قاله،

(*) الدفتردار: هو أكبر منصب للشؤون المالية في الدولة العثمانية. يقابله في يومنا هذا وزير المالية. في اللغة التركية الحديثة فإن كلمة (dar) التي تلفظ (دار) تعني ضيّق. في حال كتابة دفتر دار منفصلة يصبح معناها «دفتر ضيق». (م)

(**) النيشانجي: كان في العصر العثماني يعدُّ أحد أركان الديوان الهميوني الملكي في القصر العثماني. كانت مسؤوليته تنحصر بين كتابة المراسيم ومتابعتها، وتمثيل العلاقات العثمانية مع الدول الأجنبية والتواصل معها. يقابله في يومنا هذا وزير الخارجية. في اللغة التركية الحديثة حملت معنى آخر وهو «القناص». (م)

(***) الجندي الغلام العجمي أو «acemioğlan»: هم الفتية المبتدئون، وفي الغالب من الرعايا المسيحيّين، الذين كانوا يُجنّدون في الدولة العثمانية. وكانوا يدربون تدريباً قاسياً تحت الضرب، ثم يُنقلون لاحقاً إلى القوات الانكشارية. (م)

فبعد ذلك اليوم صار يجيب عن أسئلة الواجبات بسخافة، ولكنّه يكتب في الأسطر الأولى إجاباتٍ صحيحةً حتّى لا ينتبه المعلّم إلى ما يكتبه من هراءٍ عندما يقع نظره على الورقة.

في الحقيقة، لم أكن أصدّق كلام عثمان، ولكنْ عندما انكشف البارحة، اقتنعنا بأنّه لم يكن يكذب.

البارحة كنّا في الحصّة الأولى. بعد أن تأخّر المعلّم قليلاً دخل الصفّ بوجهٍ مقطّب، وهو عادةً ما يأتي ضاحكَ الوجه إلى الحصّة الأولى. بعد أن قال بصوتٍ غاضب: «صباح الخير يا أولاد!». كأنّه يوبّخنا، قال:

- عثمان، انهض!

نهض عثمان.

- تعال إلى هنا!

ذهب إلى المنصّة. قال المعلّم:

- يا أولاد، قبل يومين أعطيتكم واجباً من درس العلوم الطبيعيّة. سوف يقرأ لكم عثمان الآن وظيفته التي سلّمني إيّاها.

احمرّ وجه عثمان.

أعطى المعلّم الورقة لعثمان، وقال له:

- اقرأ، اقرأها كلّها، اقرأ الأسئلة أيضاً!

بدأ عثمان بقراءة الأسئلة:

- السؤال الأوّل: ما هي الرياح، وكيف تنشأ؟ الجواب: يزداد حجم الهواء بارتفاع درجة حرارته، فيصبح أخفّ وزناً؛ ولذلك يرتفع.

توقّف عثمان، فقال له المعلّم:

- أكمل، أكمل!

أكملَ عثمان:

- عندما يخفّ وزنها ترتفع... الرياح... الرياح... الرياح...

عندما ردّد كلمة الرياح لأكثر من مرّة، وهو يتلعثم، صرخ المعلّم:

- إإإي؟ ماذا حدث للرياح؟

- الرياح كانت ضدّ فريق غلاطة سَراي، وعلى الرغم من لعبهم ضدّ الرياح في الشوط الأوّل، إلّا أنّهم تمكّنوا من لعب مباراةٍ جيّدةٍ؛ أمّا فريق أنقرة غوجو، الذي لم يكن دفاعه متماسكاً في هذه المباراة السريعة والممتعة للغاية، خرج من الملعب بعد أن خسر بنتيجة 2-1. في الشوط الثاني، نزل خطّ هجوم غلاطة سَراي إلى نصف الملعب الخاصّ بالخصم مثل الريح.

السؤال الثاني: ما هي العاصفة؟ الجواب: يُطلق على الرياح التي تهبّ بسرعة عشرين متراً في الثانية اسم العاصفة. اقتحم مشجّعو غلاطة سراي ملعب مدحت باشا اليوم. يا لسوء حظّ الحكم! فهو لم يُدِر المباراة على نحوٍ جيّدٍ، وإنّ احتساب ضربة جزاءٍ بسبب إطاحة متين بشكرو تسبّب باحتجاجات الجمهور.

بينما كان يقرأ عثمان، أمسكنا أنفسنا بصعوبةٍ لكيلا نضحك، ومع ذلك ثمّة بيننا من لم يستطع إمساك نفسه وقهقه. بدأ صوت عثمان بالارتجاف. بدا على وشك البكاء لشدّة خجله.

قال معلّمنا:

- لماذا فعلت هذا يا عثمان؟

عندما أدار عثمان، الذي دمعت عيناه، رأسه إلى الحائط، قال معلّمنا:

- أنت أحد طلّابي الجيّدين، لم أتوقّع منك شيئاً كهذا قطّ... اجلس مكانك!

لا أكذب عليك إن قلت: إنّني سُعدت لرؤية عثمان، وهو محطّم. قلت له في الاستراحة:

- كيف الحال؟ كيف «لا يقرأ معلّمنا الوظائف!».

في مساء ذلك اليوم، زارتنا في منزلنا إحدى صديقات أمّي. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها هذه الزائرة. سألتني أيّ مدرسة أرتاد، وفي أيّ صفّ أنا، فأجبتها.

قالت:

- إنّ أستاذكم صديقٌ مقرّبٌ لي.

ثمّ بدأت تحكي مع أمّي:

- مساء البارحة كنت في بيته، وحدث شيءٌ غريب. نظرت وإذْ بكومة أوراقٍ على الطاولة. قال: إنّها واجبات الطلّاب المنزليّة. قلت له: «وكيف تجدون وقتاً لقراءتها كلّها؟». قال لي: «عندي طلّاب جيّدون جدّاً. هل تريدين قراءة ورقة أحدهم؟». اختار واحدةً من الأوراق وأعطاني إيّاها. كانت وظيفةً جميلةً حقّاً، مرتّبةً، واضحةً، العناوين ملوّنة، كما وُضعت خطوطٌ ملوّنةٌ تحت الأماكن المهمّة منها. كان موضوع الوظيفة الرياح، ولكنّني تفاجأت عندما قرأتها. كان الولد يحكي عن مباراة غلاطة سراي وأنقرة غوجو عوضاً عن الرياح. عندما بدأت أضحك بصوتٍ عالٍ في أثناء قراءة الواجب سألني صديقي: «ماذا هناك؟ لماذا تضحكين؟». وأنا بدوري أعطيته الورقة ليقرأها. قرأ، وغضب كثيراً. قال: «إنّه أحد أفضل طلّابي، لم أكن أتوقّع منه هذا قطّ!».

هذا يعني أنّ عثمان أيضاً كان على حقّ. والحقيقة أنّني أنا أيضاً لم أتوقّع هذا من معلّمنا قطّ؛ حزنت كثيراً.

وبهذا قد شرحت لكَ الحادثة كما هي.

وداعاً يا أخي العزيز أحمد. لا تتركني بلا رسالة، ممكن؟ أنتظر منك كتابة الأخبار عن الأصدقاء.

زينب يالكر



تأنيب الضمير

إسطنبول، 7 كانون الأول / ديسمبر 1963

زينب:

عندما تكتبين إليّ أنّ رسائلي جميلةٌ، فإنّك تشجّعينني على الكتابة على نحوٍ أجمل. أشكركِ. كتبتِ في رسالتكِ أنّني أروي دائماً أحداثاً مضحكة، ولكنْ هذه المرّة سأحكي لكِ شيئاً مؤلماً. معلّمنا هو من قصّ علينا هذا الحدث الأليم. لقد تأثّرت به كثيراً.

في الدرس السابق لهذا الحدث كان حسين يقرأ علينا نصّاً من كتاب القراءة. مرّت في النص جملة «تأنيب الضمير»، فشرح لنا المعلّم مطوّلاً عن تأنيب الضمير. ثمّ سألنا:

- هل فهمتم ماذا يعني تأنيب الضمير؟

صحنا جميعاً:

- فهمنا يا أستاذي!

قال معلّمنا:

- إن كان كذلك فلْنُعطِ عدّة أمثلة عن تأنيب الضمير.

تذكرين يشار، ما زال يجلس في المقعد الأخير مثل الأيّام السابقة. إنّه مهملٌ كالعادة. إمّا أن ينشغل بالطوابع التي يجمعها، وإمّا أن يحاول رسم رسومٍ متحرّكة.

سأل الأستاذ يشار:

- هل حدث معك أمر جعلك تشعر بتأنيب الضمير؟

عادةً، لا يسمع يشار ما يشرحه المعلّم، ولكنّكِ تعرفينه؛ إنّه ولدٌ محتال. إذا قال: «حدث»، فسيقول له المعلّم: «اشرح إذن»؛ ولذلك قال:

- لا يا أستاذي.

قال الأستاذ:

- وكيف ذلك؟ هل يُعقل أنّ هنالك إنساناً لم يشعر بتأنيب الضمير نهائيّاً؟

قال يشار مؤكّداً:

- أنا لم أشعر بذلك يا أستاذ.

وعلى عادتها نِشه، تحاول دائماً أن تلفت الانتباه. تنظر في عيني المعلّم لكي يسألها هي. رفعت يدها غير قادرةٍ على الهدوء، وقالت:

- أنا أقول يا أستاذي، أنا أقول...

قال معلّمنا:

- قولي يا نشه، هل شعرتِ بتأنيب الضمير من قبل؟

ومن باب المصلحة قالت:

- نعم، كثيراً يا أستاذي.

- اشرحي إذن.

قالت نشه:

- وأيّ حادثةٍ أشرح يا أستاذي؟!

وعندها ضحكنا جميعاً.

لكي تكسب نشه المسكينة بعض الوقت، وتفكّر بما ستختلقه، سألت هذا السؤال السخيف.

ابتسم معلّمنا وقال:

- وهل حدث لكِ كلّ هذا القدر من الحوادث التي جعلتكِ تشعرين بتأنيب الضمير؟ احكي أيّة واحدةٍ منها!

وكالعادة، بدأت نشه ببلع ريقها. تحدّثت، وهي تبلع ريقها باستمرار. تتذكّرينها، يحدث هذا لها دائماً عند مشاركتها في الدرس. لا يمكنها أن تنطق الكلمة، بلْ لا يمكنها حتّى أن تتهجّاها قبل أن تبلع ريقها مرّةً واحدةً على الأقل. في ذلك اليوم تلعثمت تماماً.

بدأت كلامها هكذا:

- علينا أن نحترم الكبار ونعطف على الصغار.

وبينما كانت نشه تبلع ريقها باستمرار، سألها معلّمنا الذي انتابه الفضول لمعرفة نهاية هذه النصيحة:

- نعم؟ إإإي؟ بعدها؟

حكت نشه، وهي تبلع ريقها باستمرار:

- يوجد أمٌّ كانت تنصح ابنها هذه النصيحة، وفي هذه الأثناء تماماً قُرع الباب. نظرت الأمّ من النافذة. كان حموها هو الطارق. قالت لابنها: «افتح الباب، جاء جدّك. قل له: إنّني لستُ في المنزل». فتح الولد الباب وقال:

«أمّي في الخارج يا جدّي». فقال الرجُل المسنّ لحفيده: «أخبر أمّك ألّا تنسى رأسها في النافذة مرّةً أُخرى عندما تخرج». وذهب.

سكتت نشه بعد أن بلعت ريقها عدّة مرّاتٍ متتالية.

سألها الأستاذ:

- وهل حدث هذا لكِ؟

قالت نشه:

- لا، قرأتها في إحدى المجلّات.

- لماذا شعرتِ بتأنيب الضمير إذن؟

- لم أشعر أنا، بل أمّ ذلك الطفل يا أستاذي.

سأل معلّمنا هذه المرّة زميلاً آخر لنا. لم يستطع أحد أن يحكي عن تأنيب الضمير الذي شعر به هو بنفسه. وحكوا أحداثاً توجّب فيها على الآخرين الشعور بتأنيب الضمير.

قال معلّمنا:

- لقد فهمنا، هذا يعني أنّكم لم تفهموا معنى تأنيب الضمير نهائيّاً. يجب أن تحدث مع الإنسان حادثةٌ مؤلمةٌ حتّى يشعر بعذاب الضمير. عليه أن يشعر بالندم بسبب هذه الحادثة. يجب أن يعاني شخصٌ آخر غيره بالألم بسببه هو.

بعد أن فكّر قليلاً قال:

- سأحكي لكم مثالاً عن تأنيب الضمير.

انشدّ انتباهنا.

- كنّا طلّاباً في الثانويّة. كان مديرنا رجُلاً قاسياً جدّاً.

كنّا نصغي بعناية.

- كانت السنة الدراسيّة قد بدأت حالاً. وقد مرّ يومٌ، أو يومان على بداية الدروس. أتى إلى صفّنا طالبٌ جديدٌ من مدرسةٍ أُخرى، ولم نعرف اسمه. اعتاد هذا الفتى وضع يده اليسرى في جيبه دائماً، وعدمَ إخراجها أبداً. لم تكن قد نشأت صداقةٌ جيّدةٌ بيننا بعد؛ ولهذا لم نستطع سؤاله عن سبب عدم إخراج يده من جيبه نهائيّاً.

في استراحة الظهر كنّا نلعب في حديقة المدرسة، وفجأةً! رأينا السيّد المدير بيننا. نادى على هذا الفتى الذي يضع يده في جيبه، فأتى إلى السيّد المدير راكضاً بدون إخراج يده من جيبه.

تركنا كلّنا اللّعب، ونظرنا إليهما بفضولٍ لنرى ما سيحدث. ألم أقل لكم: إنّ السيّد المدير شخصٌ قاسٍ؟ صرخ على الفتى: «لماذا يدك في جيبك؟». لم يجب الفتى. وحنى رأسه إلى الأمام. تجمّع كلّ الأطفال حولهما.

صرخ السيّد المدير بصوتٍ أعلى: «أخرج يدك من جيبك!».

لم يتحرّك الفتى قطّ. قال السيّد المدير كأنّه يهمس له: «أنا أتكلّم معك، هل تسمع؟». فقال له الفتى: «نعم، أسمع يا أستاذي». فقال السيّد المدير: «إذا كنت تسمع، لماذا يدك في جيبك؟ أخرجها على الفور!».

رفع الفتى رأسه بهدوء، ونظر إلى الأولاد الذين تجمّعوا حوله، ثمّ نظر إلى المدير، ولكنّه مع ذلك لم يُخرج يده من جيبه. صرخ السيّد المدير الذي غضب جدّاً: «هذا ليس مكاناً للسرسريّين! أقول لك أخرج يدك!».

عندما رأى السيّد المدير أنّ الفتى وقف بدون حراكٍ صفعه على وجهه. نزل الكفّ على نحوٍ سريعٍ على وجهه. وقع الفتى الذي اختلّ توازنه على الأرض. عندما سقط على الأرض، طارت يده اليسرى من جيب بنطاله.

عندما رأينا هذا المشهد صُعقنا! وعمّ صمتٌ مخيفٌ، ثمّ سُمعت بعض الهمسات. كأنّ السيّد المدير تجمّد؛ لأنّ الفتى الذي سقط على الأرض، خرجت من جيب بنطاله ذراعٌ بلا يد؛ كانت يد المسكين مقطوعة. وقفت ذراعه اليسرى على الأرض مثل العصا. لقد فهمنا أنّه يضع يده اليسرى في جيبه دائماً؛ لأنّه يخجل من أصدقائه عند رؤيته على هذه الحال. دمعت عينا المدير. انحنى، وأنهض الفتى عن الأرض، وقال بصوتٍ لطيف: «لماذا لم تخبرنا بهذا من قبل يا بنيّ؟». ثمّ أمسك بذراع الفتى، وأخذه إلى غرفته.

لم نرَ الفتى في المدرسة بعد هذه الحادثة قطّ. خجل إلى درجة أنّه لم يذهب حتّى إلى مدرسةٍ أُخرى. وحسب ما سمعنا، فإنّ السيّد المدير اعتذر إلى الفتى وإلى أمّه وأبيه، وقال بأنّه سيعتني به من الآن فصاعداً، ولكنّ الفتى لم يأتِ إلى المدرسة مجدّداً.

وهكذا، عندما أنهى معلّمنا سرد هذه الحادثة المؤلمة سكت، وعمّ الصفَّ هدوءٌ تام، وتأثّرنا بهذه الحادثة كثيراً.

رنّ جرس الاستراحة. وقبل أن يخرج معلّمنا من الصفّ قال:

- في الغالب، إنّ مدير ثانويّتنا سيعاني من تأنيب الضمير طوال حياته بسبب هذه الحادثة؛ هذا ما يقال عنه تأنيب الضمير.

ثمّ قالت نشه التي بدت كأنّها تخلّصت من تأثير هذه الحادثة التي حكاها معلّمنا:

- الأستاذ لم يحكِ لنا حكاية صارت معه...

حقّاً إنّ المعلّم، مثل زميلتنا؛ حكى لنا حكايةً توجّب على شخصٍ آخر فيها أن يشعر بتأنيب الضمير، وليس هو نفسه.

والحقيقة أنّ أفضل من شرح هذا الموضوع هو يشار الذي قال:

– فهمت هذا الشيء الذي يُسمّى تأنيب الضمير: لا أحد يعرف ما يتوجّب عليه، بل يعرفون فقط تأنيب الضمير الذي يجب أن يشعر به الآخرون.

في اليوم التالي عندما أتينا إلى المدرسة، قال دمير:

– سألت أبي. وقال أبي: «إنّ الأطفال لا يشعرون بتأنيب الضمير؛ لأنّهم ما زالوا صغاراً على المرور بحوادث تجعلهم يشعرون بتأنيب الضمير، ولكي تفعل أموراً تجعلك تشعر بتأنيب الضمير يجب أن تصبح رجُلاً كبيراً».

أقنعني ذلك أنا أيضاً. لا أعرف، ما رأيك أنتِ؟

عندما أعود من المدرسة كلّ مساء، أسأل أمّي إن كانت هناك رسالة. ستُفرحينني كثيراً إن كتبتِ إليّ ردّاً سريعاً.

أرجو لك أيّاماً سعيدة.

أحمد طارا باي

أب لثماني بنات

أنقرة، 10 كانون الأول / ديسمبر 1963

أحمد:

استلمت رسالتَك التي أرسلتَها بتاريخ 7 كانون الأوّل / ديسمبر البارحة. كانت الحادثة التي رواها لكم معلّمكم مؤلمةً حقاً. تخيّلت سقوط الفتى الذي لا يد له على الأرض بصفعة المدير. حزنت كثيراً!

لي صديقة اسمها حكمت، أخبرتني بسرّ. فكّرت كثيراً قبل أن أكتبه إليك، فلم أجد مشكلةً في كتابته. حكمت لا تريد أن يسمع طلّاب صفّنا الحادثة التي أخبرتني بها، وأنا بدوري أغلقت فمي جيّداً، ولم أخبر أحداً بشيء، ولكنّك على أيّة حال لا تعرف حكمت. ومن خلال كتابتي إليك بما أخبرتني به لا أُعدُّ أنّني أفشي سرّها، أليس كذلك؟

أنا لا أكتب إليك سرّ صديقتي من أجل الثرثرة، ولكنّني أريد أن أعرف رأيك بهذا الموضوع الذي جعلني أفكّر كثيراً.

في الأيّام الأولى لبدء المدرسة هنا، لم تلفت حكمت انتباهي، وهي التي كانت بين طلّاب صفّي. كانت طفلةً هادئةً. في البدء، حسبت أنّها

صبيّ؛ فهي ترتدي مثل الصبيان، وتقصّ شعرها قصيراً مثل الصبيان، وهي نحيلةٌ جدّاً أيضاً... وفوق هذا لا ترافق صبياناً ولا بنات. إنّها طفلةٌ منغلقةٌ على نفسها، واسمها حكمت أيضاً، وهو اسمٌ يصلح للصِّبْية والبنات معاً...

في أحد الأيّام، عندما فصل أستاذ الرياضة البنات إلى طرف، والصبيان إلى طرفٍ آخر، انضمّت حكمت إلى فريق البنات. اندهشت كثيراً. عرفت أنّ حكمت فتاةٌ في ذلك اليوم؛ ولهذا السبب ازداد اهتمامي بها.

قبل عدّة أيّام، وفي الصباح، أتت حكمت إلى المدرسة، وهي حزينةٌ جدّاً. سألتها عن سبب حزنها. في بادئ الأمر، لم ترغب بأن تخبرني. أصررت عليها، وعندها قالت:

- بصراحة، أرغب بالكلام، وبالانفتاح قليلاً، ولكنّني أخجل من قول ذلك.

عندما وعدتها بأنّني لن أخبر زملاءنا حكت لي.

إنّهم ثماني شقيقات، كلّهن بنات...

كنّا نظنّ أنّ حكمت تأتي إلى المدرسة مع أخيها الأكبر.

عندما أخبرتها بذلك، قالت:

- هذا ليس أخي الكبير، إنّها أختي الكبيرة، ولكنّ الجميع يعتقدون أنّها رجُلٌ؛ لأنّها ترتدي لباساً ذكوريّاً.

أخواتها جميعهنّ يرتدين كالرجال.

سألتها:

- لماذا؟

قالت:

- لأنّ أبي يريد هذا.

- حسناً، ولكنْ ما المحزن في هذا؟

أراد أبوها كثيراً أن يكون لديه صبيّ. استاء جدّاً عندما أتت الطفلة الأولى أنثى، وتمنّى كثيراً أن يكون وليده الثاني صبيّاً، وفوق هذا، وضع له اسماً ذكوريّاً حتّى قبل أن يولد، كأنّه بإعطاء اسمٍ ذكوريٍّ للولد سيأتي ذكراً ليتوافق مع اسمه... وبسبب سوء حظّه، أو لسببٍ آخر، فقد أتى الطفل الثاني أنثى، فلم يعد يتحدّث إلى أحدٍ لأيّام؛ من فرط حزنه. عندما يقول له أصدقاؤه محاولين مواساته: «ما زلت شابّاً، سيصير عندك الكثير من الأولاد». يردّ عليهم يائساً: «سيصير، ولكنْ ماذا لو كانوا كلّهم إناثاً؟». حملت زوجته للمرّة الثالثة. فكّر بأنّه من غير الممكن أن تأتي ثلاث إناثٍ على التتالي، ووضع اسماً ذكوريّاً للولد الذي سيولد، كأنّ ذلك لم يكن كافياً، فعندما ذهبت زوجته إلى دار التوليد، جهّز وليمةً كبيرةً لأصدقائه على شرف الولد الذي سيولد. وفي منتصف الوليمة اتّصل بدار التوليد، وجُنّ عندما علم بولادة أنثى أُخرى. خجل من أنّ الطفل الثالث كان فتاةً، إلى درجة أنّه كذب على ضيوفه، وقال لهم بأنّه أصبح لديه صبيّ. في تلك اللّيلة سُعد الجميع من وراء هذه الكذبة. منع زوجته ومن في البيت من أن يقولوا: إنّ الطفلة التي ولدت فتاة.

وبعد ولادة الفتاة الثالثة، فهم أنّ زوجته ليست قادرةً على ولادة صبيّ؛ ولهذا قطع أمله من زوجته وطلّقها، ثمّ تزوج بامرأةٍ أُخرى. ألا تلد هذه المرأة طفلة أنثى؟ وتوءمين أيضاً... وفوق هذا وصل إليه خبر أنّ زوجته التي طلّقها تزوّجت برجُلٍ آخر، وأنجبت صبيّاً. فقال الرجُل: «يا لي من أهبل! في الوقت الذي أتى فيه الدور لتلد زوجتي القديمة صبيّاً طلّقتها».

شعر بالعار لأنّه صار أباً لخمس بنات على التتالي؛ ولذلك أخذ نفسه،

وابتعد قائلاً: «لن أستطيع النظر في وجه أحدٍ أبداً!». عاد بعد عدّة أشهر، وطلّق زوجته الثانية.

كانت حكمت تحكي لي ذلك بناءً على ما سمعته من الآخرين.

هذه المرّة، وللتأكّد تماماً من أنّ الرجُلَ، أبا البنات الخمس؛ سيصير أباً لصبيّ، تزوّج بامرأةٍ أرملةٍ قد أنجبت ثلاثة أطفالٍ ذكور في السابق. يبدو أنّه اعتقد أنّ هذه المرأة التي أنجبت ثلاثة صبيان على التتالي معتادةٌ إنجابَ الصبيان.

تزوّجا، ومجدّداً يضع الرجُل اسماً ذكوريّاً للولد الذي سيولد. وفي اليوم الذي أرسل زوجته إلى دار التوليد دعا أصدقاءه مجدّداً إلى وليمةٍ ضخمة. استمرّ في الاتّصال بدار التوليد مرّتين في الثانية. انتصف اللّيل، فعاد الرجُل بعد المكالمة الهاتفيّة مقطّب الوجه، وقد تلوّن بألف لون...

سأل الضيوفُ بفضول:

- صبيٌّ أم بنت؟

قال الرجُل، وهو يفتل شاربيه متفاخراً:

- الرجُل يأتيه رجُلٌ طبعاً!

ولكنّ شاربيه ظلّا يرتجفان من الغضب.

وهكذا وُلدت صديقتي حكمت.

عندما أتت الطفلة السادسة، وضع الرجُل آماله كلّها على الطفل السابع. ولكنّها كانت فتاةً أيضاً، ثمّ مرّت مدّةٌ طويلةٌ على عدم إنجاب زوجته؛ ولهذا السبب، وبينما كان على وشك الطلاق من زوجته، حملت أمّ حكمت من جديد.

قال لها زوجها، وهي ذاهبةٌ إلى دار التوليد:

- إن وضعتِ فتاةً هذه المرّة لا تعودي إلى البيت نهائيّاً؛ سأطلّقك!

استمرّت المرأة المسكينة بالدعاء في أثناء الولادة: «إن شاء الله ألد صبياً!». ولكنّ دعاءها ذهب هباءً...؛ فقد ولدت بنتاً مرّةً أُخرى. وقد اختاروا اسم (سعاد) لها من قبل، ومن جديد، فإنّ اسم سعاد هو اسمٌ يصلح للصِّبْية والبنات...(*)

حكت المرأة المسكينة مشكلتها لرئيسة الممرّضات، وهي تحترق وتبكي. وعندما سألها زوجها على الهاتف، رَجَتْها لكي تقول له بأنّها ولدت صبيّاً.

وعندما اتّصل الرجُل برئيسة الممرّضات التي حزنت على المرأة، قالت:

- لأبشّركم، صار لديكم ولدٌ مثل العجل!..

جاء والد حكمت إلى دار التوليد راكضاً، وأصرّ قائلاً:

- يا الله، فلْأرَ ابني!

أروه الطفل، ولكنّه كان في اللفّة. قالت حكمت التي تحكي لي القصّة:

- مرّت ثلاثة أشهر، ونحن سعداء في منزلنا. اعتاد أبي أن يقول دائماً: «وليّ العهد»، أو «الملك» قاصداً سعاد. ويعامل أمّي كالملكة؛ يحضر لها الهدايا. ولم يعد يغضب منّا كثيراً كما في السابق لكوننا بنات. كنّا جميعنا في البيت نعمل ما في وسعنا حتّى لا يرى والدنا سعاد، وهي عارية. عندما لا يوجد أبي في المنزل تغيّر أمّي لسعاد، وتزيل الخرق، ولا تحمّمها في أثناء وجوده. لكنّ أبي سيعلم بالحقيقة في يومٍ ما؛ أمّا نحن، فكنّا نؤخّر ذلك اليوم، ونأمل أن يلين أبي حتّى يحين.

(*) سعاد: يستعمل هذا الاسم عند الأتراك للإناث والذكور. (م)

في الأيّام التي يكون فرحاً فيها يقول لنا: «أنتنّ كلكنّ فداءٌ لابني!». ويقول باستمرار: «أنا سأحمّم ابني!». وعندها تأخذ أمّي الطفلة منه، وتماطله متعذّرةً: «يا إلهي، مستحيل، لديه زكام!». آآآه، في النهاية، وقبل ليلتين، حدث ما حدث: كنّا جميعاً غارقين في النوم. قفزت من نومي على ضجيجٍ هائل. كان أبي هو من يصرخ. ومن دون أن أعرف كيف حدث، رأى أبي أنّ سعاد ليست ذكراً. أمسك الطفلة بيدٍ واحدةٍ من قدميها، وقال صارخاً: «لقد خدعتموني... وختنموني! وكيف يكون هذا صبيّاً؟ أين...؟». والطفلة تشهق باكية.

قال أبي الذي رمى الطفلة إلى حضن أمي:

- انقلعْن!.. خدعتنّني بأنّه صبيّ، وجعلتنّني أصرف كلّ هذه النقود على لا شيء. انقلعْن من البيت كلّكنّ.

وطردنا جميعاً، وفي تلك اللّيلة نمنا في بيت أحد جيراننا.

بكت حكمت، وهي تحكي. أبوها سوف يطلّق أمّها. عندما تخيّلت هذا الرجُل الذي لديه ثماني بنات ضحكت في البداية، ولكنّني بعد ذلك بكيت مع حكمت.

في ذلك اليوم، وعندما عدت إلى البيت سألت أمّي:

- هل سُعد أبي عندما وُلدت أختي؟

- وهل يمكن ألّا يسْعد، سُعد طبعاً!..

- وعندما وُلدت أنا بعدها؟ هل سُعد أيضاً؟

صرخت أمي:

- لا تكوني سخيفة!

- وهل سُعد عندما عرف أنّني فتاة؟

- كان يتمنّى صبيّاً.

- ولكنّه سُعد كثيراً بعد ولادة متين من بعدي كونه صبيّاً، أليس كذلك؟

- نعم، لقد سُعد كثيراً حتّى إنّه أقامَ وليمةً كبيرةً لأصدقائه.

- ماذا لو كان ولدكم الرابع فتاة؟

- وماذا سنفعل، ليحدث ما يحدث...

- وهل يا ترى كان يريد إنجاب طفلٍ آخر ليكون صبيّاً؟

- ربّما أراد... ولكنْ لماذا تسألين كلّ هذا؟

- لا شيء، إنّني أسأل فقط.

شعرت بغصّة، فتركت أمّي. تأثّرت بما حكته حكمت، ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكّر: هل الفتاة عيبٌ منذ الولادة؟ إنّك محظوظٌ منذ ولادتك لكونك صبيّاً.

أريد أن أعرف رأيك أنت أيضاً في الموضوع.

أمّي تصرخ من الغرفة الثانية: «أطفئي المصباح ونامي!». صار الوقت متأخّراً. سأنام. سأضع هذه الرسالة في البريد في أثناء عودتي من المدرسة.

وداعاً أخي أحمد.

زينب يالكر

ما زلتَ طفلاً

إسطنبول، 14 كانون الأول / ديسمبر 1963

زينب:

عندما قرأت رسالتكِ حزنت وفرحت في الوقت نفسه: حزنت على صديقتكِ حكمت، وعندي فضولٌ لأعرف ما سيحدث لهذه الفتاة المسكينة. أرجو أن تكتبي إليّ أيّ خبرٍ يصل إليكِ عن علاقة والد حكمت بأمّها.

لم أفكّر ما إذا كانت ولادة ذكرٍ، أو أنثى، سعداً أم شؤماً. سألت هذا السؤال لأبي، فألقى عليَّ محاضرةً طويلةً، ولكنّ ملخّص ما قاله هو كالآتي: يكتمل الإنسان فقط بوجود المرأة والرجُل.

سألته:

– حسناً، وهل تمنّيت لو كنتَ امرأة؟

رفع صوته فجأةً، وقال:

– وما علاقة ذلك؟

غضب من سؤالي كما لو أنّ ثمّة احتمالاً كهذا.

سألت أمّي السؤال نفسه أيضاً، فسحبتْ نفَساً وقالت:

- لو كنتُ رجُلاً!

صحِبَنا معلّمنا البارحة إلى المتحف، وفي طريق العودة سألته هذا السؤال، فابتسم وقال:

- كيف خطر لك أمرٌ كهذا؟

حكيت له عمّا كتبته في رسائلكِ باختصار. قال:

- هذه الأحاديث لا تناسب أعماركم.

وهذا أكثر جوابٍ أزعجني؛ يعتقدون أنّنا لا نفهم شيئاً.

في أحد الأيّام، سألتْ أختي أبي سؤالاً، فقال لها:

- أنتِ ما تزالين طفلةً، اكبري أوّلاً...

فقالت له أختي:

- حاول أن تشرح لي، وأنا أفهم.

وما زال أبي يحكي عن جواب أختي هذا، وهو يضحك.

ولماذا لا يحاولون أن يشرحوا لنا، ويجزمون بقولهم: إنّنا لا نفهم؟

لأحكي لكِ ما حدث مؤخّراً: اصطحبت أمّي أختي وذهبتا إلى الجيران. هناك اجتمعت النسوة من الجيران. واحدة منهنّ كانت حاملاً، ولكنّها لا تريد أن تلد. كنّ يتحدّثن عن هذا الموضوع، ويشرحن للمرأة ماذا يجب عليها أن تفعل. في تلك الأثناء استمرّت أختي في اللّعب وحْدها في إحدى زوايا الغرفة غير مدركةٍ أبداً ما يتحدّثن به. عندما قالت إحدى النساء: «دعونا لا نتحدّث عن أشياء كهذه أمام البنت». سمعت أختي هذا الكلام، فبدأت تركّز اهتمامها على ما يتحدّثن به. وعندما قالت امرأةٌ أُخرى: «ما

زالت صغيرةً لا تفهم يا!». لامست هذه الكلمة حساسيّة أختي، فتحوّلت إلى آذانٍ مُصغيةٍ، وحاولت أن تفهم ما يحكيْنَه جيّداً. وحتّى تتكلّم النساء على نحوٍ مريحٍ وبدون خجلٍ منها، تظاهرت بأنّها مشغولةٌ باللّعب، ولا تسمعهنّ أبداً. وكانت النسوة يقُلْن بين الفينة والأُخرى: «ستسمع البنت»، أو: «عقلها لا يستوعب، ما زالت صغيرة». بحثت أختي عن فرصةٍ لتثبت أنّها تفهم ما يقُلْنه.

في إحدى اللّيالي، أتى الجيران إلينا. ألا تسأل أختي المرأة المنتفخ بطنها:

- أنت حامل، أليس كذلك يا خالة؟

في البداية سكتن، وبعد ذلك ابتسمن.

قالت المرأة:

- صحيح يا ابنتي.

سألت أختي هذه المرّة:

- هل ستلدين؟

نظر أبي وأمّي إلى بعضهما. قالت أختي، التي قلّلت النسوة من شأنها لعدم فهمها، محاولةً إثبات أنّها فهمت كلامهنّ:

- يوجد خالة، وهي حامل، ولكنّها لا تريد أن تلد...

وفوق ذلك سألت أمّي أيضاً:

- أليس كذلك يا أمّي؟

احمرّت أمّي مثل الشمندر. بدأ الرجال يتحدّثون حول مواضيع أُخرى؛ لكي يغيّروا الموضوع، ولكنْ عندما بدأت أختي بشرح ما فهمته من حديث النساء بوعيٍ، قالت لها أمّي، وهي توبّخها:

- اخرسي، أغلقي فمكِ!

ولكنّها استمرّت في الكلام، وحاول الضيوف الابتسام. أمسكتها أمّي من ذراعها وأخرجتها.

قالت أختي، وهي تبكي:

- كيف كنت؟ ألم تقلن: إنّني لا أفهم؟ لقد فهمت كلّ شيء. ألم أفهم؟

عندما انقطع صوت أختي من الداخل، عادت أمّي.

قال زوج المرأة الحامل:

- عقل أطفال هذه الأيّام يستوعب كلّ شيء.

وقبل أن يقولوا ذلك نهضت بهدوءٍ وخرجت من الغرفة. في الحقيقة سُعدت لطيش أختي.

قال معلّمنا، كأنّه يفهم ما يوجد في عقلي:

- بعد قيام الجمهوريّة، أصبح الرجال والنساء متساوين؛ لم يعد هناك أيّ فرق بين النساء والرجال.

قال يشار الذي لم يُشبع رجولته عدم وجود أيّ فرق:

- ألا يوجد أيّ فرق يا أستاذي؟

- لا.

- ولا أيّ فرقٍ صغير؟

قال المعلّم بعصبيّة:

- لا!

قال يشار:

- أجل يا أستاذي، ولكنّهم أسّسوا جمعيّةً لحماية حقوق المرأة،

ولم يؤسّسوا جمعيّةً مثلها للرجُل، وأمّي عضوٌ في جمعيّة حماية حقوق المرأة...

قطعت نشه كلام يشار، وقالت شيئاً ليس له علاقة بالموضوع:

- يوجد جمعيّة لحماية حقوق الحيوان أيضاً...

تحدّثنا طوال الطريق عن هذا الموضوع.

مساءً في المنزل، وبعد العشاء، كنّا جالسين، وأبي يقرأ جريدته. رأيت في الجريدة التي في يده إعلان كازينو. في الإعلان ثمّة صورٌ لنساءٍ يرقصْنَ، وهُنّ نصف عاريات. سألت أبي:

- ولماذا لا يرقص الرجال عراةً أيضاً يا أبي؟

أنزل الجريدة، وقال بعد أن حدّق فيّ:

- يبدو أنّك جننت، وهل يرقص الرجال عراةً؟

- اليوم، قال أستاذنا: إنّه لا يوجد أيّ فرقٍ بين الرجال والنساء. إن كان لا يوجد فرق، فلماذا لا يرقص الرجال عراةً؟

قال أبي:

- الرجُل رجُل، والمرأة امرأة... هناك فرق في كلّ الأحوال.

رفعت أمّي رأسها عن الخياطة، وقالت:

- بل هناك فرق كبير: يستطيع الرجال مثلاً أن يتسكّعوا خارجاً طول اللّيل؛ أمّا النساء، فعيبٌ عليهنّ أن يخرجن بعد منتصف اللّيل وحْدهنّ... لماذا؟

بدأ أبي وأمّي يتشاجران.

السؤال الذي سألتني إيّاه في رسالتك أربك الجميع، وليس أنا وحْدي.

بالنسبة إليّ، فإنّ للاثنين حظّين مختلفين: فالمرأة امرأةٌ، والرجُل رجُل. في التاريخ، ثمّة نساء مهمّاتٌ وعظيمات. يا ترى لو سألوهنّ: «هل تتمنّين لو كنتنّ رجالاً؟». هل سيتمنّين لو كُنّ ذكوراً؟ لا أعتقد ذلك أبداً. سواء كنّا رجالاً أم نساء، سنكون محظوظين إن كنّا راضين عن أنفسنا.

أرجو لكِ التوفيق من قلبي.

أحمد طاراباي

عظم الترقوة

إسطنبول، 22 كانون الأول / ديسمبر 1963

أختي زينب:

أراقب طريق ساعي البريد كلّ يوم؛ لأنّني اعتدت أن أستلم منكِ رسالةً كلّ يومين، أو ثلاثة. أسأل أمّي كلّ مساء عندما أعود من المدرسة: «هل يوجد رسالة؟». أتضايق كثيراً عندما لا تأتي أيّة رسالةٍ منكِ. تأتي رسالتكِ دائماً بعد أن أسلّم رسالتي إلى البريد بأربعة أيّامٍ، أو خمسة، ولكنْ هذه المرّة، مرّت تسعة أيّام، ولم يأتِ أيّ خبرٍ منكِ. بدأت أقلق. أكتب إليكِ رسالةً بدون انتظار ردّك.

في اليوم التالي لإرسالي رسالتي الفائتة لكِ، وبينما كنّا في درس العلوم الطبيعيّة، دخل المدير ومعه شخص آخر إلى الصفّ؛ إنّه مفتّش. بعد أن تحدّثنا مطوّلاً إلى معلّمنا، استوقف المفتّشُ زميلَنا أوغوز. أنتِ لا تعرفين أوغوز. أتى إلى مدرستنا هذه السنة بعد بداية العام الدراسيّ؛ أي: بعد ذهابكِ من هنا. كان يدرس في إحدى مدارس الريف، ثمّ انتقلوا بعد ذلك إلى إسطنبول. حيّرنا جميعاً منذ يومه الأوّل في المدرسة. هل تعلمين

لماذا؟ إنّه طفلٌ رشيقٌ كالقطّة... والمسكينُ يُتأتِئ كثيراً. في البداية، حاول بعض الزملاء الاستهزاء به، ولكنّه لم يغضب نهائيّاً، كأنّه معتادٌ دائماً تلقّيَ الاستهزاء. يبتسم للمستهزئين ويمضي. وعندما لم يستطع الأطفال جعله يغضب كفّوا عن الاستهزاء به. يبدو أنّ أوغوز لديه ثقة بالنفس؛ ولهذا السبب يبتسم لمن يستهزئون به.

وفي الاستراحة، كنّا في الحديقة. تحدّانا جميعنا قائلاً: «مَن يتسابق معي في تسلّق الشجرة؟». لم يستطع أوغوز المسكين قول هذه الكلمة بسهولة. استطاع أن يشرح لنا ما يريده بعد تأتأةٍ طويلة. دفعني الأطفال إلى الأمام، ولكنّني لم أرد أن أتسابق مع الولد المتأتئ هذا؛ لأنّني لم أعطه أهميّة، وأدركت لاحقاً أنّني فعلت صواباً. عندما لم أتسلّق الشجرة نطّ جنكيز، وفوق هذا استهزأ قائلاً:

– لن تستطيع تسلّق الشجرة بأقلّ من ساعةٍ، وأنت تُتأتئ...

ضحك الأطفال لهذه البلادة. أليس هناك شجرة كستناء أمام صنابير المياه؟ رسمنا أمام هذه الشجرة خطّاً بوساطة المسمار. وقف أوغوز وجنكيز على الخطّ. عندما قلت: «واحد، اثنان، ثلاثة!» انطلقا. بينما حاول جنكيز لفّ يديه حول جذع الشجرة، اختفى أوغوز عن العيون فجأةً! سمعنا صوتاً من أعلى الشجرة. نظرنا، وإذا بأوغوز فوق الشجرة! وهو رافعٌ قدمه أيضاً، يتأتئ إلى درجة أنّه يصعب علينا فهم ما يقوله. قال لجنكيز الذي يلفّ جذع الشجرة مستهزئاً:

– يا لهذا الاحتضان!.. هل تحبّها كثيراً؟

حاول جنكيز بصعوبةٍ تسلّق الشجرة، ولكنّه عندما وصل إلى نصف ارتفاعها لم تعد لديه الجرأة ليتسلّق أكثر من ذلك. وبرشاقة قطّةٍ انزلق أوغوز عن الشجرة وجاء إلى جانب جنكيز، ثمّ انزلق إلى الأسفل.

قال، وهو يتحدّانا مجدّداً:

- هيّا؟ هل تتحدّون؟ ليخرج من يثق بنفسه!

فجأةً! كبر أوغوز في عيوننا بعد هذه الحادثة. وفي أثناء عودتنا من المدرسة، تسلّق أعلى شجرةٍ من أشجار السرو التي في المقبرة.

يجلس أوغوز مع ميني في مقعدٍ واحد. تبدو ميني متفاخرةً بزمالة طفلٍ بهلوانٍ مثل هذا في المقعد نفسه.

لم يأتِ أوغوز إلى المدرسة على مدى يومين؛ لقد مرض. في اليوم الذي لم يأتِ فيه أوغوز إلى المدرسة قالت ميني:

- هل تعلمون يا أولاد لماذا صار أوغوز يُتأتئ؟

سألناها بفضول:

- لماذا؟

قالت ميني، وهي تتفاخر بمعرفة سرّ أوغوز:

- هو حكى لي. أبوه يضربه كثيراً... صار يُتأتئ بسبب خوفه من الضرب وهو صغير. هو مَن قال ذلك.

قالت متفاخرةً أكثر بمعرفتها:

- وهل تعرفون أيضاً كيف يتسلّق الأشجار هكذا مثل القطّة؟

- كيف؟

- لأنّه يهرب من الضرب عندما يغضب أبوه، فيطرده أبوه، وعندما يقترب من الإمساك به يضطرّ إلى تسلّق الأشجار. يتسلّق أعلى قمّةٍ في الشجرة لأنّ أباه لا يستطيع تسلّقها؛ وهكذا أصبح معلّماً في تسلّق الأشجار.

هذا هو أوغوز الذي استوقفه المفتّشُ في درس العلوم الطبيعيّة. عُلّق

على الحائط إيضاحٌ فيه هيكل الإنسان العظميّ، وإيضاحٌ فيه عضلاته، وإيضاحٌ فيه أعضاء الجهاز الهضميّ.

أشار المفتّش إلى واحدةٍ من العظام في إيضاح الهيكل العظميّ، وسأل:

- ما هذه؟

لم يصدر عن أوغوز أيّ صوت.

- ما هذه العظمة؟

ومجدّداً لا صوت.

تجلس ميني في المقعد خلف أوغوز الواقف على قدميه.

انحنت ميني، وهمست له:

- عظم الترقوة.

بعد أن عانى، وهو يقول: «عظ.. عظ.. عظ...». صرخ:

- عظم الترقوة!

أشار المفتّش إلى عظمٍ آخر، وسأل:

- وما هذا؟

عندما سأل المفتّش: «وما هذا!؟». ظنّ أوغوز أنّ جوابه السابق خطأ، وأنّ عظم الترقوة هو ما يشير إليه المفتّش الآن، فقال:

- عظم الترقوة.

أشار المفتّش إلى مفصل الكاحل، وسأل:

- حسناً، وما هذا؟

قال أوغوز الذي ارتبك تماماً:

- عظ.. عظ.. عظم الترقوة.

صرخ المفتّش:

- إذنْ، ما هذا؟!

هذه المرّة، أشار المفتّش إلى عضلات الرقبة في الإيضاح المجاور:

- عظم الترقوة يا أستاذي.

اعتقد أوغوز أنّ آخر مكانٍ يُشار إليه هو عظم الترقوة، وصار يقول في كلّ مرّةٍ على أيّ مكانٍ يُشار إليه: «عظم الترقوة». تصبّب عرقاً من التأتأة، وغضب المفتّش إلى درجة أنّه صار يُتأتئ أيضاً مثل أوغوز، وصرخ:

- حس.. حس.. حسناً، وما هذا؟

- عظ.. عظم الترقوة...

قال المفتّش:

- لتكن حقّانيّاً يا...! ألا يوجد شيءٌ في الإنسان هذا غير عظم الترقوة؟ اجلس مكانك!

في الأيّام الأخيرة، لم أجد سوى هذه الحادثة الوحيدة التي تستحقّ السرد. إنّني قلقٌ لعدم استلام أيّة رسالةٍ منكِ منذ أن أرسلتُ رسالتي الفائتة إلى اليوم. هل أنتِ مريضة؟ أنتظر أخبارك.

أحمد طاراباي

عيد الميلاد

أنقرة، 25 كانون الأول / ديسمبر 1963

أحمد:

استلمتُ رسالتيكَ اللّتين أرسلتهما بتاريخ 14 و22 كانون الأول / ديسمبر. أشكرك جدّاً. كنت مريضة؛ ولذلك لم أستطع الردّ على رسائلك بسرعة. لم يكن مرضي سيّئاً كثيراً، إنّه الزكام. كنت أستطيع أن أكتب إليك رسالةً، وأنا مريضة، ولكنّني لم أرغب بأن توصلها أمّي، أو أختي الكبيرة إلى البريد. لو لم يكن متين أيضاً قد مرض معي، لكنت أرسلت الرسالة معه، ولكنّ متين قد مرِض أيضاً. البارحة شُفيت تماماً، واليوم ذهبت إلى المدرسة. بينما كنت أستعدّ لكتابة رسالةٍ إليك نادتني أمّي:

- زينب، هناك رسالةٌ لكِ.

بعد أن قرأت عنوانكَ على المغلّف أضافت:

- إنّه من أحمد. يا له من صديقٍ وفيٍّ! لا يتركك بدون رسالةٍ أبداً.

بعد أن قرأت الرسالة ذهبت إلى متين. كان مريضاً أيضاً. وضعت مقياس الحرارة، وكانت الدرجة: 38.2.

كان بديهيّاً أن نمرض: كان عيد ميلاد أحد زملائنا في الصفّ، واسمه أَطَمَان. ذهبنا إلى بيتهم، ومرضنا هناك، ومرض ثلاثةٌ آخرون من زملائنا الذين ذهبوا إلى هناك.

تعرّفت أمّي إلى أمّ أطَمان في اجتماع أولياء الأمور في مدرستنا، وأصرّت على دعوتنا إلى حفل عيد ميلاد ابنها، وأخذت عنوان بيتنا، وقالت: «سنأتي في السيّارة ونصحبكم». وافقت أمّي على إرسالنا وحْدنا، ولكنْ عندما أصرّت المرأة قائلة: «أنتظركم والسيّد زوجكم أيضاً». اضطرّت أمّي إلى أن توافق.

عندما سمع أبي ذلك قال: «وما شأنُنا بعيد ميلاد الطفل؟». قالت أمّي: إنّها أعطتهم وعداً مقابل إصرار المرأة. أخبرته أمّي بأنّ أمّ أطَمان قالت: «سأستاء إن لم تأتوا أنتم أيضاً».

أخذتُ كتاباً هديّة عيد ميلاد؛ أمّا متين، فأخذ قلم حبرٍ لأطَمان.

وبعد الظهر، أتوا إلى بيتنا في السيّارة. تعرّف أبو أطَمان إلى أبي في السيّارة. إنّها سيّارتهم الخاصّة.

ربّما لن يعجبك ما أكتبه؛ لأنّها نميمة، ولكنّني سأكتب ما رأيتُه. يتّضح غنى عائلة أطَمان من خلال النظرة الأولى لبيتهم. سمعتُ أمّي تقول لأبي: «يا لهذا الذوق!... انظر إلى عدم تناسب الأشياء مع بعضها!».

يبدأ والد أطَمان كلّ كلمةٍ يقولها بـ«محسوبكم»، أو «معاليكم».

كان البيت كبيراً، ولكنّه مزدحم. والضيوف يتوافدون. كنّا قرابة خمسة عشر طفلاً؛ أمّا الكبار، فتجاوز عددهم الثلاثين. أتى الأطفال الآخرون كلّهم مع أمّهاتهم وآبائهم مثلنا.

سأل متين أمّي:

- هل هذا عيد ميلاد والد أطَمان؟

عندما ينطق متين بكلمةٍ غير ملائمةٍ وسط الناس، تقرصه أمّي ببطءٍ، بدون أن يراها أحد. عندما تلقّى متين القَرْصة أدرك أنّه نطق بكلمةٍ غير مناسبةٍ، فسكت.

قالت أمّ أطَمان لأمّي:

- هذا غير مناسب في المنزل يا سيّدتي؛ فالمنزل ضيّق، والأصدقاء كثر، لا يقصّرون، ولا يمكننا ألّا ندعوهم، تبقى ذكرى. قلت لرَجُلِنا (سأحتفل بعيد ميلاد الصبيّ السنة القادمة في صالة فندقٍ كبير) وأرضيته. سلّمه الله، رجُلنا لا يخرج عن إرادتي أبداً.

تنادي زوجها دائماً بـ«رجُلنا»، وأطَمان بـ«الصبي». سألتْ أمّي:

- رَجُلُنا يعمل كلّ ما أقول له. كيف هو رَجُلُكم؟

علمت أنّ أمّي استاءت؛ بسبب تغيير لون وجهها، فقالت:

- من هو رجُلنا؟

ابتسمت أمّ أطَمان قائلة:

- رَجُلكم يا روحي، رَجُلكم... يعني: هل رَجُلكم متساهل؟

ولتغيير الموضوع الذي لم يعجبها، قالت أمّي:

- الجو حارّ، أليس كذلك؟

- شغّلنا التدفئة المركزيّة؛ بسبب عيد ميلاد الصبيّ... رجُلنا طيّبٌ، ولطيفٌ، ويده مثقوبة. قال: «لتشغّلوا التدفئة على شرف الصبي». يُشغّل فتاتين، أو ثلاثاً في مكتبه كسكرتيرات، مع أنّه لا حاجة لذلك نهائياً. أليس الذكور إخوة؟ كلّهم متشابهون؛ لا يصلحون لشيء...

قالت أمّي لي ولمتين، وهي مقطّبة حاجبيها:

- هيّا، اذهبا وابقيا مع أبيكما قليلاً!

انفصل الرجال، وتجمّعوا في الصالون الكبير. الطاولة مملوءةٌ بالمأكولات، والمشروبات، والفاكهة... لم يكن أبي، الواقف على قدميه مع أبي أطَمان؛ سعيداً بمجيئنا. قال:

- لماذا تركتما أمّكما؟

قال متين:

- هي أرسلتنا...

أشار إلينا أبو أطَمان، وسأل أبي:

- هل هؤلاء من معاليكم؟

- نعم.

- حماهما الله! هاا، ماذا كنت أقول؟ محسوبكم لا يحبّ البخل أبداً. تعال لأقول لك: هؤلاء النساء بخيلات جدّاً ياهووو... لنأخذ زوجتي مثلاً: تشتري برتقالاً رديئاً بسعرٍ رخيصٍ للخدم. لا يمكن يا روحي! سيأكل الخدم ما تأكلينه أنتِ. محسوبكم لم يستطع أن يفهّم المرأة. أقول لها: هذا مخالفٌ للإنسانيّة، ولا أستطيع إفهامها. لأنّك عندما تقولين: إنّك تريدين أن تربحي عشرة قروش من البرتقال، فإنّ الخادم سينزعج، ويُزلق الطبق الذي سعره مئتا ليرةٍ من يده متعمّداً. امرأتنا لا تفهم.

أبعدنا أبي قائلاً:

- هيّا، اذهبا إلى أمّكما!

شعر الأطفال الآخرون بالملل مثلنا. قالت إحدى النساء لأخرى شاكيةً من ضجيج الأطفال:

- يستحيل المجيء مع الأولاد إلى أيّ مكان...!

قال أبي لأمّي:

- سيكون جيّداً إن ذهبنا.

قالت أمّي:

- عيب، امسك نفسك قليلاً!

أتى أبو أطَمان إلى جانب أبي، وفي يده جرائد، وقال:

- محسوبكم قدّم الكثير من المساعدات للأطفال الفقراء. أوزّع أشياء للأطفال الفقراء كلّ عيد. انظروا، الجرائد تكتب عن كلّ هذا!

جمّعوا الأولاد في غرفة، وجمّعوا الهدايا التي أحضروها إلى أطَمان على طاولة. كان الجوّ حارّاً؛ ففتحوا النوافذ. وقفنا أنا ومتين أمام نافذةٍ مفتوحة. كنّا متعرّقيَن كثيراً، فمرضنا.

استأذن أبي للذهاب.

قال أبو أطَمان:

- لم نتناول طعام العشاء بعد، ولم نشرب قدحين أيضاً...

أخبره أبي بأنّ لديه عملاً.

عندما خرجنا إلى الشارع، قالت أمّي لأبي الذي بدا منزعجاً:

- المعذرة، لم أكن أعرف أنّ هذا سيحدث. أصرّت المرأة إلى درجة أنّني لم أستطع أن أرفض.

في اليوم التالي ارتفعت حرارتي وبلغت تسعة وثلاثين درجة.

في رسالتك الفائتة أخبرتني أن أكتب إليك معلوماتٍ عن حكمت. حكمت لم تأتِ إلى المدرسة منذ أسبوع. لا أعرف ماذا حدث للمسكينة.

لا أحد من الزملاء أيضاً يعرف موقع بيتها. تركت هذا الخبر في الختام؛ لأنّه أحزنني كثيراً.

أرجو ألّا تتأخّر في ردّك مثلما فعلتُ أنا.

زينب يالكر

تنشئة عبقريّ

إسطنبول، 29 كانون الأول / ديسمبر 1963

أختي زينب:

عليكِ العافية، أنتِ وأخيكِ. سُعدت لأنّ أمّكِ تذكّرتني.

لقد وصفتِ حفل عيد ميلاد أطَمان على نحوٍ جميلٍ للغاية.

أتدرين؟ نحن لم نحتفل بعيد ميلادي حتّى اليوم؛ ليس عند عائلتنا عادة كهذه. وأنا بدوري لا أذهب إلى حفلات أصدقائي، ولكنْ في إحدى أيّام عطلة الصيف الطويلة استضافنا أحد أقربائنا لثلاثة أيّام. كان عيد ميلاد إحدى صديقات بنت أقربائي، ودعوني أنا أيضاً.

علِق في ذهني من ذلك اليوم شخصان، لا أستطيع نسيانهما أبداً: أحدهما طفلٌ مشاغبٌ، يقلب البيت رأساً على عقب. لا يوجد شيء لم يفعله. في أحد الأوقات، بدأ باب المرحاض يُقرع بقوّةٍ من الداخل، فتجمّع كلّ الضيوف أمام باب المرحاض. سُمع صوت امرأةٍ من الداخل، وهي تضرب الباب، وتصرخ:

– أحدٌ ما أقفل الباب من الخارج. افتحوا الباب!

بدأ أصحاب البيت بالبحث عن المفتاح. كان ثمّة رجُلٌ سمينٌ قصير القامة يضحك بصوتٍ عالٍ، ويقول:

- لا بدّ من أنّ ابني هو من فعل ذلك. أين هو ابني؟

لم يستطيعوا أن يجدوا ابن الرجُل السمين. وكان هذا الرجُل يحكي عن ابنه:

- ذكيٌّ جدّاً، ما شاء الله!... لا يثبت في مكانه أبداً، من المؤكّد أنّه هو من أقفل باب المرحاض على تلك السيّدة، سترون.

يترك الرجُل السمين هذه المرأة المسكينة تضرب باب المرحاض من الداخل، وفوق هذا يلقي محاضرةً عن ابنه الذكيّ جدّاً للناس هناك:

- ما شاء الله! ذكيٌّ جدّاً. لا يدرس دروسه أبداً يا سادتي، ولكنّه في يوم الامتحان يجيل نظره هكذا على الكتاب، ويتعلّم بلمح البصر. كنت كذلك أيضاً في طفولتي، لم أكن أدرس قطّ. هذا «القوّاد» يشبهني. أصدقاؤه يدرسون باستمرار؛ أمّا ابني، فما شاء الله! ينجح في صفّه بدون أن يدرس. ذكيٌّ جدّاً هذا القوّاد. لا أحبّ الذين يدرسون باستمرار...

بحث الجميع عن هذا الولد الذكيّ في الغرف. كان الرجُل السمين يصرخ بدون أن يُفسد مزاجه:

- ابحثوا تحت السرير، في بيتنا اعتاد أن يختبئ هناك.

بينما انحنى صاحب البيت لينظر تحت السرير، وقع شيءٌ ما على رأسه من الأعلى؛ كان المفتاح، ثمّ قفز ولدٌ من فوق الخزانة إلى السرير، فقال الرجُل السمين:

- ألم أقل لكم: إنّه ابني؟ شغبه هذا ناجمٌ عن ذكائه...

هذا الصبيّ -الذي تفاخر أبوه بعدم دراسته دروسَه- وتّر الجميع في ذلك اليوم.

والشخص الآخر الذي لم أستطع نسيانه في ذلك اليوم أيضاً طفلٌ عبقريّ.

عرّفتني بنت أقربائي التي صحبتني إلى ذلك البيت إلى طفلٍ نحيلٍ، أحْولَ، يضع نظّارتين. سألت عن اسمه، لم يُصدر صوتاً؛ فظننته أطرش. سألته مرّةً أُخرى بصوتٍ أعلى، فأخبرني باسمه بعد أن فكّر مدّةً، كأنّه يحلّ معضلةً صعبةً جدّاً. سألته في أيّ صفٍّ يدرس، ومجدّداً أجابني بعد أن فكّر طويلاً. لا يحكي أيّ شيءٍ بعفويّة، بل عندما تسألينه يفكّر كثيراً، ثمّ يجيب. أضجرني الصبيّ؛ فابتعدت عنه. قلت لبنت قريبتي التي أحضرتني إلى هنا:

- هل هذا الولد غبيّ؟

ضحكت البنت وقالت:

- وهل يمكن أن يكون غبيّاً؟ أبوه يربّيه على أساس أنّه عبقريّ.

دخلت بيننا بنتٌ، وشاركت في حديثنا قائلةً:

- يسمّونه في مدرستنا «المرشّح العبقريّ».

- وهل يمكن لمن يفكّر لدقيقتين عندما يُسأل عن اسمه أن يكون عبقريّاً؟

- يفعل ذلك من فرط عبقريّته؛ هذا ما علّمه إيّاه أبوه، فقد قال له: (حتى إذا سألوك عن اسمك لا تقله قبل أن تفكّر)؛ لأنّ العباقرة يفكّرون دائماً.

بدأت كلٌّ من الفتاتين بإتمام كلام الأُخرى، وهُما تحكيان عن هذا الطفل المرشّح العبقريّ. أبو هذا الطفل عاقلٌ جدّاً: بحث حول كيفيّة

تربية العباقرة، وأراد أن يكون أبا طفلٍ عبقريّ. وحسب نتائج الأبحاث التي عملها، فإنّ آباء كلّ العباقرة مسنّون؛ ولهذا السبب فإنّ هذا الرجُل لم يتزوّج إلّا بعد أن كبر في السنّ كثيراً. سألت:

- وكيف تعرفان كلّ هذا؟ هل حكى لكما الولد هذا؟

كلّ المنطقة تعرف هذه الحادثة، ويحكون عنها في كلّ البيوت، وقد سمعتا ذلك من الكبار.

تزوّج الرجُل، ولكنّه لا يستطيع الإنجاب. وبينما كان يفكّر بأن يكبر في السنّ، ويكون والد طفلٍ عبقريٍّ، وإذا به قد كبر أكثر من اللازم، ولم يعد يمكنه أن يكون أباً، ولكنّ حزنه ذهب هباءً؛ لأنّ زوجته حملت. بات يدعو الله أن يكون ابنه هزيلاً؛ لأنّ أغلب الأطفال العباقرة ينشؤون مرضى وهزيلين. وُلد الولد. كان هزيلاً إلى درجة أنّ من يراه يقول: إنّ هذا الولد لن يعيش، ولكنّه عاش. ثمّة شاعرٌ كبيرٌ عبقريٌّ، وحسب ما قرأ الرجُل في كتابٍ عن هذا الشاعر، فإنّه صار عبقريّاً لأنّهم قطعوا الرضاعة عنه مبكّراً. ولكي يصير الطفل عبقريّاً قطعوا عنه الرضاعة وعمره شهر. سُعد والده كثيراً عندما وقع ابنه عن الأرجوحة، وصار أحول، وهو في عمر السنة؛ لأنّ هناك كاتباً عبقريّاً أحول. والآن، ركّز هذا الرجُل كلّ جهده على أن يبقى الطفل قصيراً؛ لأنّ أغلب العباقرة قصار القامة.

بعد سماع كلّ هذا، لم أفهم لماذا يفكّر هذا الولد قبل أن يقول اسمه. باعتقادي أنّ الطفل لم يكن يفكّر، بل يحاول فقط تذكّر اسمه...

حزنت لعدم مجيء صديقتكِ حكمت إلى المدرسة. ماذا حدث للمسكينة يا ترى؟

لم أذهب إلى المدرسة اليوم؛ لأنّني أخذت لقاحاً البارحة. سآخذ هذه

الرسالة إلى البريد الآن، ثمّ سأعود إلى البيت، وأحلّ وظيفة الرياضيّات. لا أستطيع تحريك ذراعي اليسرى التي حُقنت باللّقاح؛ إنّها تؤلمني.

وداعاً يا زينب. أرجو لكِ التوفيق والنجاح يا أختي.

أحمد طاراباي

قطرة وراء قطرة يتشكّل السيل

أنقرة، 2 كانون الثاني / يناير 1964

أخي أحمد:

لقد تلقّيت رسالتكَ قبل يومين، كما تلقّيت بطاقة معايدتك برأس السنة قبل استلام رسالتك بيوم. أشكرك جدّاً عليهما. وأنا أرسلتُ إليك أيضاً بطاقة معايدةٍ برأس السنة في آخر يومٍ من السنة الفائتة. أعتقد أنّك استلمتها. ولكنّ بطاقة معايدتك برأس السنة كانت جميلةً جدّاً. لم يخطر في بالي قطّ أن أرسم لوحةً وأرسلها كما فعلتَ أنت؛ فرسمي ليس جميلاً مثل رسمك... عرضت رسمتكَ -التي رسمتها على كرت المعايدة- على أصدقائي هنا؛ أعجبتهم كثيراً.

كان اليوم الأوّل من السنة مُسلّياً أكثر من ليلة رأس السنة بكثير بالنسبة إليّ. والأصحّ أنّه يستحقّ الذكر.

أمّي وأبي مقتصدان للغاية. لا تُسِئ فهمي، لا أقصد أنّهما بخيلان. يظنّان أنّهما (يمدّان أرجلهما على قدر بساطهما). إذا سهوتُ فتركت غطاء قلمي مفتوحاً على الطاولة، فإنّ أبي ينصحني مطوّلاً عن هذا قائلاً:

- إذا لم تُغطِّي قلم الحبر بغطائه، فإنّ الحبر الموجود في رأسه يجفّ، ولن تستطيعي الكتابة، أو يقع على الأرض، وينكسر رأسه؛ هذا كلّه هدر. على الإنسان أن يكون مقتصداً.

إذا كتب أخي على وجهٍ واحدٍ فقط من أوراق الدفتر، أو تجاوز ورقةً، أو ورقتين تنهال عليه النصائح:

- لا تكن مهملاً يا بنيّ! فقطرة وراء قطرة تتشكّل بحيرة. إنْ هدرت ورقةً هكذا كلّ يوم، سيصير لديك دفتر ضخم خلال سنة، أليس هذا مؤسفاً؟

متين يضيّع أقلاماً كثيرة، فتصرخ أمّي:

- مللت من شراء الأقلام لك!

التدبير شيءٌ جيّدٌ حتماً، ولكنّ هذا التدبير الزائد في بيتنا بدأ يزعجني. تشتكي جدتي من عدم تدبيري، وتقول:

- يا ابنتي، الألف لا تصير بدون الواحد. قطرة وراء قطرة تصير بحيرة.

اشترى جدّي لي ولأخي حصّالة، وقال، وهو يعطينا إيّاها:

- لا تنسوا، لتكن حلقة في أذنكم، قطرة وراء قطرة تصير بحيرة. قولوا لأرى، ماذا تصير؟

جدّي هكذا دائماً، عندما يقول شيئاً يلحقه بسؤال:

- قطرة وراء قطرة ماذا تصير؟

- تصير بحيرة يا جدّي.

ثمّ يعطيها: «أحـــــــــــســــــــــنــــــــــتـــــــــم!» طويلة.

مللتُ وسئمتُ من هذا المثل «قطرة وراء قطرة تصير بحيرة». لا يمرّ يومٌ إلّا ويُردّد هذا المثل في البيت أكثر من مرّة.

في ليلة رأس السنة قرّر أبي وأمّي الذهاب مع الجيران إلى أحد الملاهي الليليّة. على الرغم من أنّنا كنّا نقضي ليالي رأس السنة الفائتة معاً في بيتنا. حجز جيراننا زملاء أبي مكاناً في الملهى مسبقاً، وذهبوا في وقت طعام العشاء. لم يُفسد أبي عادتنا في رأس السنة؛ فتناولنا طعام العشاء معاً وتسلّينا، وفي وقتٍ متأخّرٍ صحبا أختي وذهبا. أتى إلينا جدّي وجدّتي. نظّمنا ألعاباً مسلّيةً جميلة: لعبنا البينغو، وفي أثناء سحبنا لأرقام البينغو شعرت جدّتي بالنعاس؛ ولذلك لم تربح قطّ.

نمنا بعد انتصاف اللّيل بقليل.

عندما استيقظت لم يكن هناك أيّ صوتٍ في البيت. ظننت أنّ الأهل لم يعودوا بعد. بقيت مستيقظةً في السرير مدّةً، ثمّ أتى متين إلى غرفتي، وقال لي:

- ماذا حدث لهم؟

- وماذا حدث؟

- تعالي وانظري. استلقت أختي الكبيرة على الأريكة بثوبها ونامت، وأبي نائمٌ على السجّادة؛ أمّا أمّي، فلم أستطع رؤيتها.

نهضت ونظرت. كان جدّي وجدّتي قد ذهبا إلى منزلهما، وأختي قد نامت على الأريكة بفستان سهرتها الجديد، وشعرها مملوء بالرشرشات الملوّنة، ورقبتها ملفوفةٌ بشرائط ملوّنة، وهناك قناعٌ على وجه أبي النائم على السجّادة. إحدى قدميه قد دخلت في قبّعةٍ ورقيّة. أمّي وحْدها كانت النائمة في سريرها، ولكنْ إحدى فردتي حذائها في الممرّ، والأُخرى في غرفتها على الأرض...

غطّيت أمّي. أيقظنا أختي الكبيرة، وأخذناها إلى فراشها بصعوبة، ولكنّنا لم نستطع أن نوقظ أبي بأيّ شكل.

وبعد الظهر، استيقظوا واحداً تلو الآخر، وعادوا إلى رشدهم. أوّل من استيقظ كانت أمّي، ثمّ أيقظتُ أبي؛ أمّا أختي الكبيرة، فآخر من عاد إلى رشده. بعدها بقليل لحظتُ أنّ الطوق لم يكن في رقبتها؛ لا بدّ من أنّها أوقعته في مكانٍ ما ليلاً.

فهمت من حديث أمّي وأبي أنّهما تمنّيا حظّاً جيّداً في السنة الجديدة، وخسرا الكثير من النقود.

وفي لحظةٍ ما قالت أمّي لأبي:

- وكيف سنقضي هذا الشهر؟

قال أبي:

- سآخذ سلفة من الشركة.

مع أنّ أحاديثَ كهذه لا تُسمع في بيتنا. وبعد الظهر أتى جدّي وجدّتي إلينا.

سألت جدّتي:

- هل تسلّيتم جيّداً؟

قالت أمّي:

- يا الله، هذه المرّة الأخيرة! لن أقضي ليلة رأس السنة خارج بيتي أبداً مرّةً أخرى.

سحبتنا أمّي، أنا ومتين، جانباً، وقالت لنا:

- يا أولاد، لديكما نقود بالتأكيد، أعطياني إيّاها، وأنا سأعيدها إليكما غداً.

أعطينا نقودنا لأمّي. بعد قليل قُرع الباب. أحضرت بنت جارنا نورتان رسالةً من أبيها إلى أبي، فقرأتُها في أثناء أخذها لأبي.

صديقي:

أنت على علمٍ بما حدث ليلة البارحة؛ لم يبقَ معي ولو عشر ليرات. ولا أتذكّر كيف أتينا إلى البيت. لا بدّ من أنّكم أنتم من أحضرنا. هل تستطيعون أن ترسلوا إليّ مئة ليرة؟ أشكركم...

أعطيت الورقة لأبي. قرأها. تهامس مع أمّي. وحسب ما شعرت من كلامهما فإنّ أبي لا يستطيع أن يخبر صديقه بأنّه لا يملك نقوداً. وفي النهاية لم تبقَ سوى حصّالة أختي الكبيرة. قالا لها محاولَين عدم إظهار ذلك لنا. فتحا حصّالتها، وأرسلا النقود التي كانت فيها مع متين إلى والد نورتان.

بحث متين عن قلمه، ولم يجده؛ لقد أضاع قلمه الرصاص كما في كلّ مرّة.

غضبت أمّي وصرخت:

- هذا الصبيّ ليس مدبّراً أبداً. سئمت من شراء أقلام الرصاص لك!

بدأ جدي بنصائحه المعتادة:

- بدون الواحد لا تصير الألْف! لا تصير ماذا؟

قال متين:

- لا تصير الألف.

- أحسنت! قطرة وراء قطرة تصير بحيرة. ماذا تصير؟

تصرّفت قبل متين وقلت:

- لا تصير بحيرة!

قال جدّي:

- كيف، ألا تصير بحيرة؟

- لا تصير يا جدّي.

قطّب حاجبَيه وقال:

- وماذا يصير؟

- إذا كان المكان الذي تنقّط عليه القطرات هو حفرة، فتصير بحيرة؛ أمّا إذا لم يكن... تنقط، وتنقط، وتنقط...

- إإي، وبعدها؟

- يصير سيلاً، يتدفّق ويذهب...

نظر أبي إلى وجهي باستياء.

وهكذا دخلنا السنة الجديدة. سيقضي أبي وأمّي ليلة رأس السنة القادمة في البيت معنا.

وأنت كيف قضيت ليلة رأس السنة؟

أرجو أن تجلب لك السنة الجديدة النجاح والسعادة.

زينب يالكر

دخلنا السنة الجديدة على نحوٍ جيّد

إسطنبول، 5 كانون الثاني / يناير 1964

زينب:

مرّ وقتٌ طويلٌ منذ استلامي كرت السنة الجديدة الذي أرسلتِه. أشكركِ.

قضينا ليلة رأس السنة في بيت عمّنا الكبير؛ لأنّ بيته كبير. جاء أعمامنا الآخرون أيضاً.

حاولت المقاومة حتّى أوّل ساعة من السنة الجديدة؛ لأنّني معتادٌ النومَ باكراً. نمت بينما كنت أستمع إلى المذياع.

كان اليوم التالي مثل كلّ الأيّام الأُخرى في بيتنا، ولكنّ ما حدث معكم في اليوم الأوّل من السنة الجديدة هو أمرٌ طبيعيٌّ في بيتنا. عندما يصرف أبي الكثير من النقود في الخارج، يفرغ غضبه في البيت.

في بعض اللّيالي يتناول طعام العشاء مع أصدقائه في الخارج.

في اليوم التالي إن لم أشرب كلّ الماء الذي ملأته في الكأس يغضب، ويقول:

- املأ الكأس ماءً مقدار ما تريد أن تشرب، لا تهدر الماء!

مع أنّه بقي في قعر الكأس مقدار إصبعين من الماء. ثمّ يسكب ما بقي في قعر الكأس في أصيص الورد؛ لكي لا يهدر الماء. في أوقاتٍ كهذه أُدركُ أنّ أبي في اللّيلة الفائتة قد استضاف أصدقاءه على نحوٍ سخيّ. وأيضاً عندما يصرخ أبي: «لا يوضع كلّ هذا المعجون على فرشاة الأسنان، هذا هدر!». يتّضح أنّه قدّم الضيافة لشخصٍ ما.

عندما أحاول قطع خيط مغلّفٍ لا أستطيع فكّه، يبدأ بتقديم النصح:

- لا تقطع الخيط. فكّه بلطف ولفّه. احتفظ به في مكانٍ ما!

وعندها أدرك أنّ أبي استضاف أصدقاءه.

لحظتُ كثيراً أنّ أبي عندما يأكل، أو يشرب الشاي مع أحد، يصرّ كثيراً على أن يدفع هو، ويقول لمن معه مصرّاً: «والله مستحيل! أستاء... أنا سأدفع، وإلّا سأستاء...».

ولكنّه في اليوم التالي لهذا الشجار يقول:

- لا ترموا الجرائد القديمة وتهدروها. احتفظوا بها؛ تغلّفون بها. خبّئوها؛ تبيعونها. إن لم يكن منها أيّة فائدة، تستعملونها في المدفأة لإشعال الحطب!

وكما في بيتكم، يُردّد كثيراً المثل القائل: «قطرة وراء قطرة تصير بحيرة». ففي بيتنا أيضاً يُردّد كثيراً المثل القائل: «خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود». ولكنّ أبي عندما لا يصرف نقوداً بدون سبب، يصبح كريماً جدّاً معنا في البيت. في رأس السنة واليوم الذي يليه كان هكذا: اشترى لي علبةً كبيرةً من الألوان المائيّة هديّة رأس السنة الجديدة. عندما تأتي عطلة الأسبوعين في شباط سأقضيها في الرسم.

دخلنا رأس السنة على نحوٍ جيّدٍ للغاية مع العائلة.

أرجو سنةً جديدةً سعيدةً لجميع أفراد عائلتكِ.

أحمد طارا باي

البنت الفوضويّة

أنقرة، 8 كانون الثاني / يناير 1964

أخي العزيز أحمد:

لأعطيك أخباراً عن حكمت أوّلاً: عاودت حكمت المجيء إلى المدرسة. تصالح أبوها وأمّها؛ وهي سعيدةٌ جدّاً بذلك.

لأخبرك شيئاً آخر: كنت أجمع الرسائل التي ترسلها إليّ، ولكنّها مبعثرة؛ أمّا الآن، فقد رتّبتها حسب تاريخها، ووضعتها في مجلّد. لم يخطر في بالي ذلك قطّ. انظر، لأحكي لكَ كيف حدث: لديّ اسمٌ آخرُ في بيتنا، وهو: «البنت الفوضويّة». يتذمّر أبي، وأمّي، وأختي الكبيرة، والجميع من فوضويّتي وإهمالي. مع أنّني أحاول كثيراً أن أكون منظّمةً، ولكنْ يبدو أنّني لا أنجح.

صباح يوم الأحد، كنت أبحث عن المكان الذي وضعت فيه دفتر الوظائف في البيت.

قالت أمّي: «ماذا سيحدث لحالتك هذه يا ابنتي؟ الشيء الذي تأخذينه في يدكِ يختفي...».

وبينما كنت حزينة، وأقول بيني وبين نفسي: «لمَ أنا هكذا؟». بدأ أبي بلومي. كان جدّي وجدّتي عندنا، وهُما أيضاً اشتكيا من فوضويّتي. وأختي الكبيرة لم تتخلّف عنهم قطّ. متين فقط هو من وقف في صفّي، فأتى إليّ وقال:

- الإنسان في هذا البيت يضيّع حتّى نفسه.

شعرت بالانزعاج من اتّهامهم إيّاي، إلى درجة أنّني بدأت بترتيب طاولتي، وغرفتي، وكتبي، وكلّ ما يوجد في غرفتي بسرعة. خرج من طاولتي، ومن بين كتبي أحمر شفاه، وبطاقتان بريديّتان، وفردة جورب رجاليّة. أخذتها واتّجهت إلى الصالون. كانوا جالسين في الصالون يتجادلون حول فوضويّتي. رفعت فردة الجورب في الهواء وصرخت:

- وجدتها بين كتبي، لمن هي؟

قال أبي لأمّي:

- هااا، إنّها فردة الجورب التي بحثت عنها في ذلك الصباح، ولم أجدها...

سألتُ:

- وأحمر الشفاه هذا لمن؟

قالت أمّي:

- من أين خرج؟ كنت أبحث عنه كثيراً.

- وضعه أحدهم على طاولتي.

قالت أمّي:

- هااا، لقد نسيته هناك ذلك اليوم.

مددت البطاقات البريديّة:

- وهذه لمن؟

احمرّ وجه أختي الكبيرة وقالت:

- من أين أخذتِها؟

قلت لها:

- ثمّة من وضعها بين كتبي. لم أقرأ ما كُتب خلفها.

ثمّ أعطيتها البطاقات.

جلست إلى طاولتي لكي أدرس، ولكنّني لم أجد قلمي. بدأت بالبحث في كلّ مكان. قالت أمّي:

- عمّ تبحثين مرّةً أُخرى؟ ماذا أضعتِ؟

قلت لها:

- هل رأيتم قلمي؟

صرخت أمّي وفتحت فمها قائلةً:

- حتّى قلمك لا تحافظين عليه!

قالت جدّتي:

- متى ستتخلّصين من فوضويّتك هذه يا ابنتي؟

قال أبي:

- كم مرّة أقول لكِ يا ابنتي أن تضعي أشياءك في مكانها؟ ألا تفهمين الحكي؟

ولكي تزيد أختي الكبيرة الطين بلّة لم تُقصّر، فقالت:

- اكتبي بقلمي الآن، ولكنْ إياكِ أن تضيّعيه!

ذهبت إلى غرفتها لتجلب قلمها لي، ولكنّها صرخت من غرفتها فجأةً:

- من أخذ قلمي، هل رآه أحد؟

داعبت جدّتي -التي رأت حزني- شعري، وقالت:

- يا زينبتي، البنات في عمرك يديرون البيوت، وأنتِ لا تستطيعين حتّى أن تحافظي على قلمك ودفترك.. الفوضويّة ليست شيئاً جيّداً على الإطلاق.

ومن ناحيةٍ أُخرى لامتني أمّي قائلة:

- لا أعرف بمن تشبّهت هذه البنت، مع أنّه لا يوجد أحدٌ مهملٌ في عائلتنا.

هذه الكلمات هي ما أسمعها طوال الوقت في بيتنا، وقد اعتدتها. أكثر شخصٍ كنت أستحي منه هو جدّي. كلّ من في البيت يستحي منه. جدّي، العقيد المتقاعد، رجُلٌ شديدٌ جدّاً. ما تزال أمّي تخاف منه حتّى الآن. حتّى أبي يستحي منه.

قال جدّي:

- أكبر شرطٍ للنجاح في الحياة هو أن تكون منظّماً.

لقد كتبت إليك في إحدى رسائلي عن عادة جدّي: إن قال شيئاً ما، يكرّر سائلاً من يكلّمه.

سألني أنا أيضاً:

- قولي لأرى، ما أوّل شرطٍ للنجاح؟

- أن يكون الشخص منظّماً يا جدّي.

- أحســـــــــنت!.. يجب أن يكون لكلّ شيءٍ مكانه. ما الذي يجب؟

- أن يكون لكلّ شيءٍ مكانه.

- أحســـــــنت!.. إذا مددت يدك ستجدين ما تبحثين عنه بلمح البصر. ماذا ستفعلين؟

- إذا مددت يدك ستجد ما تبحث عنه في مكانه.

وحسب ما يقوله أبي: فإنّ سؤال جدّي وتكراره لما يقوله للشخص الذي يحكي معه هي عادةٌ باقيةٌ من خدمته العسكريّة؛ اكتسب عادة الحديث كما لو أنّه يعطي درساً للجنود في أثناء الخدمة العسكريّة.

قال أبي لجدّي:

- صحيحٌ جدّاً يا سيّدي. أنا أعرف مكان أشيائي، وعيناي مغمضتان. أضع أشيائي كلّها في مكانٍ معيّنٍ منذ سنوات. أحفظ في أيّ جيبٍ يوجد منديلي وولّاعتي. نقودي أيضاً تبقى في جيبي نفسه دائماً.

قال جدّي:

- جيّد جدّاً، هكذا يجب أن يكون.

قال أبي الذي أراد أن يلقّننا درساً أنا ومتين، وأن يكون مثالاً لكلينا:

- انظروا، لنجرّب هنا الآن.

نهض على قدميه، وأغمض عينيه، وقال:

- انظروا جيّداً، سأجد أشيائي، وأنا مغمض العينين. ولّاعتي موجودةٌ دائماً في الجيب الأيسر للصدريّة. ها هي، انظروا!

أدخل يده اليسرى في الجيب الذي ذكره، وهو مغمض العينين، وبحث وبحث... ولم يستطع أن يجد ولّاعته بأيّ شكل. قطّب وجهه وغمغم:

- شيءٌ عجيب، شيءٌ عجيب...!

بعد أن بحث في جيبه مدّةً من الوقت لم يجد ولّاعته، وحتّى لا تُكسر كلمته، غيّر الحديث وقال:

- مثلاً: قلمي الحبر موجودٌ في مكانه المعتاد، وأستطيع إيجاده، وأنا مغمض العينين. قلمي الحبر موجودٌ في الجيب الأيسر الداخليّ لسترتي. ها هو، انظروا...!

أدخل أبي يده اليمنى في جيب سترته الأيسر الداخليّ، وأخرج شيئاً منه، ولكنّه لم يكن قلمه الحبر، بل ما أخرجه كان مقياس الحرارة، ثمّ قال:

- أرأيتم يا؟!

وعندما فتح عينيه، رأى أنّه يمسك مقياس الحرارة بيده، فدهش كثيراً.

قال بابتسامةٍ كريهةٍ:

- صحيح يا، عندما مرض متين المرّة الفائتة، قست حرارته قبل أن أذهب إلى العمل، وفي ذلك الوقت بقي مقياس الحرارة في جيبي. لأجد الآن دفتر ملحوظاتي. إنّ دفتر ملحوظاتي موجودٌ في الجيب الأيسر العلويّ لسترتي.

ومرّةً أُخرى أغمض عينيه، ومدّ يده، وقال:

- أين جيبي الأيسر يا روحي؟

ثمّ فتح عينيه.

قالت أمّي:

- ألم تجعل الخيّاط يقلب لك هذه السترة على قفاها؟ وبالطبع لهذا السبب فإنّ الجيب الأيسر صار على اليمين.

ولكي يُخرج أبي نفسه من هذا الموقف الذي وقع فيه أراد أن يجد شيئاً في مكانه، قال:

- صحيح، دفتر ملحوظاتي الصغير موجودٌ في جيب سترتي الخاصّ بالمنديل، يعني هنا. ها هو!

أخرج بكرة خيطانٍ من الجيب الذي صار على اليمين لسترته المقلوبة.

قال جدّي الذي يحبّ السخرية كثيراً:

- قولوا لأرى، أين يمكن أن تجدوا دفتر ملحوظات والدكم؟

وقبل أن نفتح فمنا، قالت أمّي:

- ألم أقم بخياطة فتق بطانة سترتك في ذلك الصباح؟ هذا يعني أنّني نسيت البكرة في جيبها.

قام أبي، الذي انزعج كثيراً، بتغطيس يده في الجيب الداخليّ لسترته ليجد أي شيء، أدخلها، وأدخلها، وبحث كثيراً، حتّى إنّ جدي قال له:

- ما هذا؟ أتنقب عن النفط؟

ضحك جدّي كثيراً وكثيراً، حتّى تحوّلت ضحكاته في النهاية إلى سعال. قال، وهو يسعل:

- أحضروا منديلي من جيب معطفي، إنّه في الجيب الأيمن.

ركضتُ ونظرتُ في الجيب الأيمن لمعطفه المعلّق على مشجب الثياب، ولم أجد المنديل.

- يا جدّي، لا شيء في جيبكم الأيمن.

- حتّى إنّكم لا تفهمون الكلام، أنا لم أقل في الجيب الأيمن، انظري في الجيب الأيسر!..

- لا شيء أيضاً في جيبكم الأيسر.

- مستحيل، أحضري معطفي! مكان المنديل هنا من أربعين سنة.

أحضرتُ معطفه. عندما نظر في جيبيه كليهما، ولم يجد منديله، قال:

- أحدٌ ما أخذ منديلي من جيبي.

في هذه الأثناء ركضت أمّي، وأحضرت منديلاً نظيفاً من الداخل، ثمّ وضعته في الجيب الأيمن لمعطف جدّي.

قال جدّي:

- هاا، إنّه هنا! ألم أقل لكم؟

صرخ جدّي، الذي هدأ سعاله، بعد أن بدا كأنّه يبحث عن شيء:

- أين علبة سجائري؟ من أخذها؟ جدوها بسرعة!

ولكيلا يغضب جدّي كثيراً، انتشرنا في البيت وشرعنا بالبحث عن علبة سجائره، وفي هذه الأثناء رنّ جرس الباب، وكان القادمان من جيراننا، وهُما: زميل أبي وزوجته. عندما رأونا نبحث عن علبة السجائر بجديّةٍ كبيرةٍ انضمّا إلينا في عمليّة البحث أيضاً.

ومن حينٍ إلى آخر، كان جدّي يقول بغضبٍ لا يُرى إلّا فيه:

- جِدوا سجائري بسرعة، وإلّا ما لي دخل ها!

مدّ زميل أبي علبة سجائره، وقال له:

- ألا تدخّنون من هذه الآن؟

ولكنّه ندم على ذلك.

ظلّ جدّي يصرخ بدون أن يفرّق بيننا:

- جدوا سجائري بسرعة!

أتى متين، وبيده فردتا جوربٍ نسائيٍّ، وقال:

- لمن هذه؟

قالت أمي:

- يا إلهي، أبحث عنها منذ مدّة، أين وجدتها؟

قال متين:

- بينما أبحث عن علبة سجائر جدّي، وجدتها في المطبخ فوق الثلّاجة.

شراء علبة سجائر من الخارج أمرٌ سهلٌ، ولكنّ جدّي يملك علبةً معدنيّةً يضع سجائره فيها. وفي أثناء بحثنا عن هذه العلبة وجدنا هنا وهناك أشياء مهمّة ضائعة منذ زمن.

وجدت السيّدة الضيفة إيصال المذياع تحت الأريكة وأخرجته. قال أبي:

- أبحث عن هذا الإيصال منذ شهر.

ظهر قلم أبي الحبر على رفّ الصحون. وُجِد سكّينٌ رمي عن طريق الخطأ في سلّة المهملات.

كلّ من تقع يده على شيء يسأل: «هذا لمن؟ هذا لمن؟».

في هذه الأثناء بدأ جديّ بالصراخ:

- من وضع العلبة المعدنيّة هذه تحتي يا هوه؟ أيّ وقحٍ وضعها تحتي؟

وإذْ بجدّي يجلس فوق العلبة المعدنيّة التي كنّا نبحث عنها في الحال.

لامَنا مدّة، ولم يصدر صوتٌ من أحد...

وبسبب المشكلة التي وقعتُ فيها في ذلك اليوم، رتّبتُ غرفتي من أوّلها إلى آخرها. كانت أشيائي كلّها مبعثرةً حقّاً. أريد أن أتخلّص من اتّهامي بـ«البنت الفوضويّة» نهائيّاً. وبالمناسبة، كانت رسائلكَ مبعثرةً هنا وهناك، فرتّبتها بحسب تسلسل تاريخها، ووضعتها في مجلّد.

أنتَ أكثر صديقٍ أستلم منه رسائل من بين أصدقائي الموجودين هناك.

أرسل دمير ويشار بطاقةً، كلٌّ على حِدة، وكتبتُ ردّاً لكلٍّ منهما.

لا تقطعني من رسائلك، تمام؟

مع تمنّياتي بالنجاح.

زينب يالكر

كلامٌ معيب

إسطنبول، 11 كانون الثاني / يناير 1964

صديقتي العزيزة زينب:

نحن نعرفكِ على أنّكِ واحدةٌ من أكثر الطلّاب تنظيماً وترتيباً في صفّنا خلال سنوات زمالتنا؛ لذا استغربت منهم وصفكِ ومناداتكِ بـ«الفوضويّة». اسمي في البيت أيضاً هو «الفاشل»، ولكنّ فشلي صحيح. ما زلت إلى الآن لا أنهض عن مائدة الإفطار بدون سفح كأس الشاي، مع أنّني أنتبه كثيراً...

كتبتِ أنّ أمّكِ تقول لمتين باستمرار: «سأطلي فمك بالفلفل...». هذه كلمة كلّ الأمّهات... أمّي أيضاً تقول هذا لأختي فتوش كلّ دقيقتين. فتوش لم تدخل المدرسة بعد؛ ما تزال هناك سنتان إلى حين دخولها. كانت أمّي تقول لي أيضاً: «سأطلي فمك بالفلفل». ولكنّها لم تفعل ذلك قطّ. في إحدى المرّات غضبت أمّي من فتوش كثيراً، فصرخت قائلةً: «سأطلي فمكِ بالفلفل الآن!». وكانت فتوش في ذلك الوقت قد استحقّت فعلاً طلي فمها بالفلفل. لأحكي لكِ هذه الحادثة من بدايتها.

اعتاد فمُ أبي نطق: «ولاه!»، «ولاك!»، «يا ويلي!» في بداية كلّ كلمة؛

يعني أنّ كلامه قريبٌ إلى اللّهجة السوقيّة، وفتوش تفعل وتكرّر ما تسمعه من كلّ شخصٍ مثل الببغاء. كلّ من في البيت يعشق تقليدها لأبي متلعثمةً، وهي تقول كلمات مثل: «ولاك!»، «يا ويلي!» ومن يحبّها يقول لها: «كلّما كبرتِ صغرتِ».

في إحدى المرّات زارنا جارنا، رجُلٌ مضحكٌ جدّاً... أيّ شيءٍ يحكيه يُغرقنا في الضحك. فتوش هي أكثر من يضحك. إنّها لا تفهم ما يُحكى، ولكنّها تضحك أكثر منّا كلّنا؛ لأنّها ترى أنّ الجميع كان يضحك. حكى لنا هذا الجار ذو النظّارات حادثةً وقعت له: أتى إلى مكان عملهم رجُلٌ مختصٌّ من ألمانيا. في إحدى المرّات قال المختصّ بالألمانيّة:

- كلّ شخصٍ هنا يقول للآخر: «ولاه». ولفت انتباهي مناداة الناس لبعضهم بـ«ولاه». يبدو أنّ أكثر كلمةٍ مستعملةٍ في لغتكم هي «ولاه». ولكنّني كلّما سألت أحداً عن معناها لا يستطيع الشرح. ماذا تعني «ولاه»؟

خجل جارنا ذو النظّارات من كلام الألمانيّ كثيراً. إنْ قال الحقيقة فسيكون معيباً أمام الأجنبيّ؛ ولذلك شرحها بمعنى آخر، فقال:

- صحيح، نحن لا يمكن أن نحكي من دون كلمة «ولاه». القرويّ، والعامل، والموظّف يستخدمون «ولاه» باستمرار. في لغتنا، كلمة «ولاه» تعني «حضرة». نحن لا ننادي بعضنا بأسمائنا، فنضع كلمة «ولاه» قبل الاسم وننادي.

بعد ذلك بعدّة أيّام، عُقد اجتماعٌ لأعضاء مجلس إدارة مكان العمل ذاك. وهناك شخصٌ اسمه كنان، وهو المدير العام، يرأس الاجتماع. وفي ذلك الاجتماع كان الخبير الألمانيّ سيدلي ببيانٍ أمام أعضاء المجلس.

ولكي يبدو الألمانيّ ودوداً مع الأتراك في الاجتماع، خلط في أثناء

حديثه باللّغة الألمانيّة بعض الكلمات التركيّة التي تعلّمها. الكلمات التي تعلّمها كانت: «مرحبا»، «سيّد»، «جميل جداً»، وآخر ما تعمله أيضاً كلمة «ولاه»...

في أكثر قسمٍ جدّيٍّ من الحديث قال الخبير فجأةً: «ولاه كنان بيك...». فدُهش جميع الحضور.

ظلّ الألمانيّ يقول: «ولاه كنان بيك» باستمرار. كان المدير العام يغضب من قول ولاه له، ولكنّه يحاول عدم إظهار ذلك. شعر أنّ الألمانيّ قد تعلّم شيئاً ما خطأ. مواصلة الألمانيّ قول: «ولاه كنان بيك» جعلتْ باقي الأعضاء يضحكون خلسةً، وبعد ذلك اليوم أصبح اسم المدير العام «ولاه كنان بيك».

كان ضيفنا ذو النظّارات يحكي لنا القصّة بطريقةٍ جعلتنا ننفجر من الضحك. وكانت فتوش هي أكثر من يضحك، ليس لفهمها، بل لأنّ الجميع حولها يضحك، فصارت تضحك أكثر من الكلّ.

في تلك اللّيلة، قال ضيفٌ آخر:

- اعتدنا هذا، أنا مثلاً: لا أستطيع الكلام بدون استعمال «ولاك»، أو «ولووه».

ومن أجل تأكيد هذا الحكم، حكى لنا أبي حادثةً أُخرى تشبهها مرّت عليه: أحضروا مهندساً أمريكيّاً إلى المعمل الذي يعمل فيه أبي ليركّب الآلات الجديدة التي أحضروها. يتبادل كلّ من في المعمل بين بعضهم كلاماً معيباً باستمرار. في تلك اللّيلة ذكر أبي الكلام المعيب كما هو. لم يكن كلاماً معيباً غير معروف؛ يُستعمل في المدرسة كثيراً. أنت تعرفينه بالتأكيد.

سأل الأمريكيّ أبي رئيس العمّال عن معنى هذه الكلمة التي يسمعها من الجميع في كلّ مكان. خجل أبي من قول المعنى الحقيقيّ، ولا يعرف أيضاً معناها بالإنجليزيّة؛ ولهذا رمى كلاماً وقال له:

- هذه الكلمة تعني: «شكراً لك»؛ أي: «*Thank you*».

دُهش الأمريكيّ كثيراً وقال:

- يااا.. يا لكم من أناس مهذّبين! اعتقدنا أنّ أكثر أناسٍ لطفاء على الكرة الأرضية هُم الصينيّون، وأنّ أكثر أناسٍ مهذّبين في أوروبا هُم الإنجليز؛ فهُم يشكرون بعضهم باستمرار على كلّ شيء، ولكنّكم تشكرون بعضكم أكثر منهم. زرت أماكن كثيرة، ولكنّني لم أر في أيّ مكانٍ أناساً يشكرون بعضهم مثلكم. من الآن فصاعداً سأحكي عن لطافة حديثكم هذه في كلّ مكانٍ أذهب إليه.

فرح أبي؛ لأنّ الكذبة التي أطلقها ستكون لها فائدة إيجابيّة.

بعد هذه المحادثة بيوم لم يأتِ المهندس الأمريكيّ إلى المعمل. ليس فقط في اليوم التالي، بل إنّه لم يأت مدّة أربعة أيّام، مع أنّه يوجد لديه الكثير من العمل، كما أنّ الآلات التي يجب تركيبها كانت مبعثرة في جميع الأنحاء. قلق كلّ من في المعمل. بحثوا وتحرّوا، ولم يستطيعوا أن يجدوا المهندس في الفندق الذي يقيم فيه، أو في الأمكنة التي يرتادها. وفجأةً! ظهر المهندس في اليوم الرابع لغيابه. أتى، ولكنّ يده ورأسه كانا مضمّدين. ظنّوا أنّ الأمريكيّ تعرّض لحادث سيرٍ مروّع.

خرج المهندس من المعمل متّجهاً إلى الفندق الذي يقيم فيه. ركب في سيّارة. أليس الناس فضوليّين لاستخدام الكلمات الجديدة التي يتعلّمونها؟ فبينما كان الأمريكيّ يعطي النقود للسائق أراد أن يشكره باللّغة

التركيّة. عندما أراد الشكر قائلاً ذلك الكلام المعيب الذي تعلّمه من أبي، صرخ السائق به: واحد مثلك (...)!

لم يفهم الأمريكيّ سبب عصبيّة السائق، فكرّر ذلك الكلام المعيب، وقبل أن ينهي كلامه أكل لكمةً على أنفه. كرّر الأمريكيّ -الذي تعجّب ممّا حدث له- ذلك الكلام محاولاً إرضاء السائق، فنزل السائق بلكمةٍ على رقبته. وماذا عساه يفعل؟ اضطرّ الأمريكيّ إلى الدفاع عن نفسه باللّكمات أيضاً. بعض الناس، الذين تجمّعوا حولهما، سحبوا الأمريكيّ من بين يدي السائق وأنقذوه. شكر الأمريكيّ أولئك الناس الذين عملوا خيراً له، مستعملاً الكلمة التي تعلّمها، ولكنّ الناس الذي فرّقوا المتشاجرَين أدركوا أنّ السائق محقٌّ، فانقضّوا عليه دفعةً واحدة. عندما بقي الأمريكيّ تحت وابل من اللّكمات والركلات أراد أن يكسب قلوب الناس الذين يضربونه ليخلّص نفسه، فكان يشكرهم مستخدماً تلك الكلمة التركيّة باستمرار. صاروا يضربونه أكثر؛ لأنّه لم يتعقّل بعد.

تداركت الشرطة الموقف، وأنقذت الأمريكي. ألا يذكر الأمريكيّ ذلك الكلام المعيب شاكراً الشرطة! إهانة الشرطة أمام الجميع...

قبضت الشرطة على الأمريكيّ، وصحبوه إلى المخفر. عندما علم الضابط أنّ الأمريكيّ شخصٌ أجنبيٌّ أراد أن يطلق سراحه، ولكنّ الأمريكيّ قال ذلك الكلام المعيب شاكراً الضابط على تفهّمه. وفي النهاية طبعاً نجا الأمريكيّ. نجا، ولكنّه اضطرّ إلى الذهاب إلى المستشفى بعد خروجه من المخفر. نام أربعة أيّامٍ في المستشفى.

انفجرنا جميعنا من الضحك على هذه الحادثة المضحكة التي رواها أبي.

في أحد الأيّام، قال أبي لأمّي: إنّ ضيوفاً سيأتون على طعام العشاء في مساء الغد. والقادمون هُم أناسٌ مهمّون. حضّرت أمّي بدورها مائدةً جميلةً جدّاً. أتى ثلاثة رجالٍ مع زوجاتهم. جلسنا إلى الطاولة. أُعجب الضيوف بأختي فتوش كثيراً. كانوا يقولون: «يا لها من بنت لطيفة ومؤدّبة...!». هنّأوا أمّي على حسن تربيتها لفتوش.

قال أبي:

- الأمّهات لا يتركن أطفالنا في الشوارع يا سيّدي، ولا يخرجون وحدهم؛ ولهذا لا تفسد أخلاقهم.

قالت أمّي:

- على الرغم من كلّ شيء، يمكنهم تعلّم كلماتٍ سيّئةٍ من أطفال الشوارع؛ لذلك لا أسمح لهم بالخروج.

قالت إحدى النساء الضيفات:

- صحيح جدّاً يا سيّدتي. أخلاق أطفالنا تُفسد حتّى في المدرسة. فلْيحِمها الله من العين، ما شاء الله! لديكم طفلةٌ مهذّبةٌ جدّاً.

تدلّلت فتوش التي نفخت نفسها بسبب هذا المديح. أرادت أن تظهر كلّ مهارتها لتُعجب الضيوف أكثر. فجأةً! قالت لأبي:

- ولاك بابا ولووه!...

ظنّت فتوش أنّ كلماتها هذه، كما المعتاد؛ مضحكة. بالنسبة إلى الابتسامة فقد ابتسموا، ولكنّها بدت تكشيرةً باردةً جدّاً وقصيرة... وعمّ هدوءٌ بارد. لم يعرف أبي ما يقول. كرّرت فتوش -التي لم تفهم سبب عدم الضحك- ما قالته مرّةً أُخرى.

بعد ذلك نظرت إلى وجوه الموجودين مبتسمةً، كأنّها تقول لهم: انظروا إلى ما أقوله. ولكي ينقذ الوضع، ليّن أبي صوته بصعوبةٍ، وقال:

- ماذا يا ابنتي؟

- ولاك بابا ولووه!..

قطّب أبي حاجبيه وصرخ قائلاً:

- قولي يا روحي، ماذا هناك؟

ولكنْ لماذا لم يضحك هؤلاء الناس كما في كلّ مرّة؟

- بابا يا.. ولاك بابا ولووه!

حاولت أمّي أن تضحك ببرود؛ أمّا فتوش، فأصرّت على إضحاك الضيوف. تعلَمين ذلك الكلام المعيب الذي علّمه أبي للمهندس الأمريكيّ، فجأةً! نطقت به أختي...

في النهاية نجحت. لم يستطع الضيوف إمساك أنفسهم، وانفجروا ضاحكين. أمّا وجه أبي، فقد تقطّب جدّاً. فتوش، التي ظنّت أنّ ذلك الكلام المعيب أعجبهم لأنّهم ضحكوا، كرّرته أكثر من مرّة. نظرت أمّي ورأت أن لا نهاية لهذا، فقطّبت حاجبيها وقالت:

- اخرسي لأرى، سأطلي فمكِ بالفلفل الآن!

وعوضاً عن الإعجاب بفتوش، فعندما وُبِّخَتْ أمام الجميع، بدأت بالبكاء. ليس بكاءً، ولكنّه نواحٌ... لم يستطيعوا إسكات فتوش بأيّ شكل. أمسكتها أمّي من يدها وأخرجتها من هناك، ولكنّ بكاءها ظلّ يُسمع من الداخل.

قالت إحدى النساء الضيفات مواسيةً أمّي:

- لا تحزنوا يا سيّدتي. لو تعرفون ما يقوله الذين عندنا. ما شاء الله! ما تزال التي عندكم جيّدةً... ما زالت صغيرةً، عقلها لا يستوعب.

أظهر أبي نفسه مندهشاً من كلام فتوش، وقال:

- لا أعرف ممّن تتعلّم هذه الكلمات!

قالت أمّي:

- لا نتركها في الشارع أبداً. من أين تسمع هذه الكلمات وتتعلّمها!

ظننتُ أنّ أسئلتهم هذه جديّة، وقلت:

- تسمعها وتتعلّمها في أثناء الحديث في البيت.

فجأةً! انفجر أبي وصرخ:

- ولاك، وهل تُلفظ هذه الكلمات في بيتنا يا!

وعندها لم يستطع الضيوف إمساك أنفسهم، فضحكوا.

ممّا اضطرّ أبي إلى الضحك أيضاً.

عندما غادر الضيوف، وبّخني أبي كثيراً.

قلت له:

- وكيف أعرف؟ ظننت أنّكم تتساءلون حقّاً...

أردت أن تكون رسالتي قصيرةً يا زينب، ولكنْ انظري، طالت مرّةً أُخرى.

هل ستأتين في عطلة الصيف إلى إسطنبول؟ لنلتقي إن أتيتِ. على الأقلّ رأيتِ أنقرة؛ أمّا أنا، فلا أعرف مكاناً غير إسطنبول.

أنهي رسالتي على أمل أن تبقي بخير.

أحمد طاراباي

كونوا وطنيّين!

أنقرة، 14 كانون الثاني / يناير 1964

أخي أحمد:

سألتَني إن كنت سآتي إلى إسطنبول في العطلة. أبي لا يستطيع الحصول على إجازته السنويّة؛ لأنّه لم يمرّ عامٌ بعد على بدء عمله الجديد هنا. يريد أن يرسلنا نحن وأمّي إلى إسطنبول لمدّة شهرٍ في الصيف، ولكنّه ليس مؤكّداً؛ لأنّ أمّي لا تريد الذهاب إلى إسطنبول بدون أبي. فمن الصعب بقاء أبي وحْده هنا. إن أتينا سنقيم في بيت عمّاتنا. سآتي لرؤيتك حتماً.

في الأيّام الفائتة، فعلتُ شيئاً سيّئاً. لن أهدأ قبل أن أحكي لكَ. الحكاية التي سأرويها لكَ لا أحد يعرفها غير متين؛ لأنّه كان شريكي في الجريمة، وأنتَ أيضاً ستعرفها الآن.

ذهبنا الأحد الفائت إلى بيت جدّنا. يسكنون في مكانٍ بعيدٍ جدّاً عنّا. جدّي لا يستطيع صعود الأدراج العالية؛ لأنّه مسنّ، ولهذا السبب يسكنون في الطابق الثاني من العمارة. بحثوا عن مكانٍ مناسبٍ لهم أكثر، في الطابق الأوّل، ولكنّهم لم يجدوا. يصعدون ثمانية عشرة درجةً للوصول إلى بيتهم.

أنا لم أعدّ الدرجات، ولكنّ جدّي يقول باستمرار: «صعدت ثمانية عشرة درجةً، وأنا أتناوب في الاستراحة». ستعرف لاحقاً لماذا أحكي لك عن الدرجات. من الجيّد أنّ جدّي لا يسكن في طابقٍ أعلى، وإلّا فإنّ الجرائد كانت ربّما ستكتب في ذلك الأحد عن حادثٍ كبيرٍ وقع في عمارة جدّي.

لم تأتِ أختي الكبيرة معنا؛ لأنّ أصدقاءها سيأتون لزيارتها. ذهبنا نحن الأربعة: أنا، وأمّي، وأبي، ومتين إلى بيت جدّي. جهّزت جدّتي طعاماً لذيذاً جدّاً لنا. بعد الطعام جلس أبي وجدّي كعادتهما على أريكتين متقابلتين يشربان القهوة. بعد طعام الغداء جلست إلى جانبهما؛ لأنّ حديثهما الثنائيّ أعجبني كثيراً. لم يكن في الصالون أحد غيرنا نحن الثلاثة. تظاهرتُ بأنّني أقرأ جريدةً، ولكنّني كنت أستمع إليهما، وأراقبهما بطرف عيني.

جدّي مهتمٌّ كثيراً بالسياسة. يحكي مع أبي في السياسة في كلّ مرّةٍ يجلس معه، خاصّةً بعد طعام الغداء... عندما يشرب جدّي قهوته بعد طعام الغداء يغفو، والفنجان ما يزال في يده، ولكنّه قبل أن يغفو يسأل أبي شيئاً في السياسة، ثمّ يغفو في أثناء الجملة الأولى من جواب أبي. يسكت أبي عندما يرى أنّ جدّي غفا. ولكنّه لا يذهب؛ لأنّ جدّي، الذي يُنزل رأسه إلى صدره، أو يميل جانباً، أو إلى الوراء، يفيق بعد دقيقةٍ، أو دقيقتين بسبب شخيره... وفور استيقاظه يسأل:

- إإي، وبعدها؟

إذا انتبه إلى أنّ أبي غير موجود يعدّها قلّة أدبٍ ويغضب؛ لهذا السبب فأبي لا يُفارق جدّي عندما يغفو. إذا غفا في أثناء شرحه هو نفسه لشيءٍ ما، يسأل أبي عندما يفيق:

- أين كنّا؟

وأبي مضطرٌّ إلى أن يعرف أين انقطع كلامهما. أحياناً، يستغرب جدّي ويسأل مجدّداً:

- لا، لم نكن هناك. ماذا قلت أنا، أين كنّا؟

لهذا السبب تصل الأمور بينهما إلى الشجار أحياناً. حديثهما هذا بعد طعام الغداء مسلٍّ كثيراً بالنسبة إليّ. هذا الحديث لا يُعجب أبي، ولكنْ ماذا عساه يفعل؟ لا بدّ من أن يتحمّل.

- إإإي، بعد ذلك؟

عندما يتابع أبي من مكان توقّفه، يغفو جدّي مجدّداً في الجملة الثانية. يستمرّ هذا لمدّة ساعةٍ تقريباً. وعندما يقول جدّي: «لا تغفُ». فإنّه يغفو، أو يسند رأسه إلى الأريكة، ويغطّ في نومٍ عميق. إن استيقظ أحياناً يتظاهر بأنّه يسمع ويتكلّم حتّى بدون أن يفتح عينيه:

- أنت احكِ، احكِ.. أذني معك، أسمعك...

ليس كمن يريد الانسحاب، ولكنّ أبي يكنّ الاحترام الكبير لجدّي. خدم خدمته الاحتياطيّة في كتيبة جدّي. شيء يدعو إلى الاستغراب، فالآخرون يتصرّفون كأنّ جدّي ما يزال عقيداً، على الرغم من أنّه متقاعدٌ منذ وقت طويل.

في يوم الأحد ذلك، كانا جالسين في الصالون بعد طعام الغداء، ويشربان قهوتهما. قال جدّي:

- ما الأخبار؟ كيف ترى حال البلد؟

عندما تكلّم أبي بدأ جدّي كعادته يغفو ويشخر، ثمّ عندما ضرب رأسه بصدره نطّ، وأفاق فجأةً! سأله كأنّه لا يريد أن يظهر بأنّه نعسان:

- حسناً، وبرأيك ماذا سيفعل الألمان في هذا الوضع؟

مع أنّ كلمة ألمان لم تكن موجودةً في حديثهم. بادر أبي بالحديث، كأنّهم يتحدّثون عن موضوعٍ له علاقة بالألمان:

- الألمان متقدّمون جدّاً يا سيّدي؛ لأنّ الألمان...

غطّ جدّي في النوم من جديد. سكت أبي. وبينما حاول قراءة جريدته من حيث توقّف، نطّ جدّي بسبب شخيره وسأل:

- وقولك ماذا سيفعل الأمريكان مقابل هذا؟

احتميت خلف الجريدة، وأمسكت نفسي بصعوبةٍ حتّى لا أضحك. كان أبي يحكي بجديّةٍ قائلاً:

- الأمريكان يحكمون العالم. الجيش الأمريكي...

سار الأمر هكذا. أحياناً يستيقظ، ويذكر اسم دولةٍ لا تخطر بالبال، وعندها يستغرب أبي.

- وماذا يقول البابا حول هذا؟ أنت انظر إلى البابا، ماذا يقول البابا؟

- يا سيّدي، البابا... كما هو معروف فإنّ البابويّة قديمةٌ جدّاً... ثمّ إنّ...

لا بدّ من أنّه أفاق من غفوته؛ لأنّه غيّر الموضوع، وبدأ يحكي عن الطريقة التي ستتطوّر بموجبها تركيا. كان يقول بأنّ تركيا ستتطوّر عن طريق تصديرها الموادَّ الزراعيّة. شرح مطوّلاً، ثمّ غضب وقال:

- لا تتطوّر بتصدير الحلزون، الحلزون...

كرّر كلمة «الحلزون» مرّةً، أو مرّتين، ثمّ انخفض صوته، ونام مجدّداً. عندما تناول أبي الجريدة في يده أفاق وسأل:

- أين كنّا؟

- كنّا عند الحلزون يا سيّدي.

- أيّ حلزون؟

- حلزوننا.. لكي نبيعه للخارج...

- هاااا، نعم. الحلزون.. لا نتطوّر بتصدير الحلزون.. نحن في الأساس مختصّون بالتبغ، والقطن، والبندق، والبقوليّات... لأنّنا بقّالون، بائعو تبغٍ، زارعو بندقٍ.. فزراعة البندق...

ارتخى رأسه مجدّداً، وفور استيقاظه سأل:

- أين كنّا؟

- كنّا نتحدّث عن زراعة البندق.

- نعم. البندق...

في هذه الأثناء رنّ جرس باب البيت. ركضت وفتحت الباب. وجدت رجُلاً حسن المظهر، وكبيراً في السنّ. سألني عن جدّي، فقلت له بأنّه في البيت. أخبرت جدّي.

قال جدّي، الذي جاء إلى الباب، مستقبلاً الضيف:

- تفضّلوا يا سيّدي، تفضّلوا. أيّة رياحٍ رمتكم إلى هنا؟

أعطاني الضيف علبةً كبيرةً كانت في يده ملفوفةً بشريط، بينما اتّجها كلاهما إلى الصالون. وأنا بدوري أعطيت العلبة المزيّنة لجدّتي. فجأةً! ظهر متين الذي كان مختفياً حتّى ذلك الوقت. فتحنا العلبة. إنّها حلوى بالكستناء... أعشقها!

شعرت بأنّني أعرف الرجُل الذي أتى منذ أن رأيته بالباب، ولكنّني لم أعرف من هو. دخلت الصالون وجلست، واستمعت إليهم، وبينما

كنت أفكّر بالمكان الذي رأيت فيه هذا الرجُل، تعرّفت إلى صوته. عندما سأقول لكَ الآن ستعرفه أيضاً. هل تعرف من هو؟ في السنة الفائتة، وقبل عيد الجمهوريّة، ألم يأتِ صحفيٌّ إلى مدرستنا ويحكِ لنا عن الجمهوريّة؟ هل تذكّرته؟ حفيده في الصفّ الثاني من مدرستنا، أتى إلى مدرستنا من أجله. يُقال: إنّه صحفيٌّ مشهور. السيّد مدير مدرستنا يحترمه كثيراً. حتّى إنّ كلماته التي قالها في ذلك اليوم ما تزال في ذاكرتي: «يا أبنائي، كونوا وطنيّين. أحبّوا وطنكم كثيراً جدّاً. تعرّفوا إلى وطنكم عن قرب. عندما تكبرون، تجوّلوا في الأناضول قريةً قرية. استلموا وظائف في الأماكن الفقيرة. هذه الجمهوريّة أمانةٌ في أعناقكم». ما زالت كلماته ترنّ في أذنيّ، لقد قال أيضاً: «أنتم من سيجلب نور الحضارة إلى الأناضول الفقيرة». وبينما كان يتحدّث دَبّ فيّ الحماس...

لم أستطع تمالك نفسي، فقلت:

– أنا أعرفكم يا سيّدي، في السنة الفائتة أتيتم إلى مدرستنا في إسطنبول.

– صحيييح... المدرسة التي درس فيها حفيدي.

انسحبتُ مستمعةً إلى حديث هذا الرجُل الذي يتدفّق العسل من فمه، ثمّ هل تعلم ماذا حدث يا أحمد؟ بالنسبة إليّ، كانت خيبة أملٍ مروّعة... لهذا الرجُل ولد؛ أستاذ في الخدمة الاحتياطيّة. ولأنّه ولدٌ قادمٌ من المدينة، فإنّه لم يستطع تحمّل الحياة الريفيّة التي لم يكن معتاداً إيّاها. وفوق هذا كان متزوّجاً... زوجته من أمريكا. واصطحاب زوجته إلى قرى الأناضول عملٌ خاطئ. وبمساعدة معارفه الذين يشغلون أماكنَ مهمّةً، أمّن نقل ابنه إلى إحدى مدارس إسطنبول، ولكنّ المدرسة بعيدةٌ جدّاً عن بيتهما، تستغرق ساعةً في السيّارة، وسيكون صعباً على ابنه أن يذهب كلّ يومٍ من البيت

إلى المدرسة ويعود، ولكنْ توجد عدّة مدارس قريبة من منزلهما. ولكي يُنقل ابنه إلى إحدى هذه المدارس أتى إلى أنقرة، وبما أنّه أتى أراد أن يزور جدّي. علم أنّ واحداً ممّن يمكنهم تدبير ذلك في أنقرة هو صديق جدّي المقرّب. ما إن يخبر جدّي صديقَه عن هذا الأمر حتّى يتحقّق على الفور.

بينما شرح الرجُل ذلك الوضع، تجمّد دمي. بصرف النظر عن أنّها تُعدُّ قلّة أدب، أو أيّاً كان، لكنّني لم أستطع تحمّل الأمر وقلت:

- ولكنْ، يا سيّدي، مَن سيجلب نور الحضارة إلى الأناضول الفقيرة والمهملة؟

إمّا أنّه لم يفهم، وإمّا أنّه تظاهرَ بأنّه لم يفهم، وقال:

- ماذا قلتِ يا صغيرة؟

فخّم أبي صوته وقال:

- هيّا أحضري القهوة!

وطردني من وجههم.

أحضرتُ القهوة، وأعطيتهم إيّاها، وخرجت من عندهم.

نظرت، كان الغسيل يُغسل في الحمّام. وبدون أن يراني أحد أخذت قالبي صابون ووضعتهما في طشت مملوءٍ بالماء الساخن. عندما ذاب الصابون في الماء تحوّل إلى محلولٍ سميكٍ لزج. وقبل أن يراني أحد أيضاً أخرجت الطشت إلى خارج باب البيت. ليّفت الدرجات بهذا السائل اللّزج جيّداً. ولكيلا أنزلق وأقع لطّخت الأدراج من الأسفل إلى الأعلى صاعدةً بسائل الصابون. فجأةً! نظرت، وإذا بمتين يشاهدني من الأعلى. قال:

- هل أنت من تنظّفين الدرج؟

- بعد قليل سترى ماذا سيحدث، ولكنْ إيّاك أن تقول شيئاً لأحد!

انتظرنا أمام الباب، حتّى إذا أتى أحدٌ ما ننبّهه إلى الخطر المحتمل.

أوشك الضيف على المغادرة. دخلنا البيت. أتى أبي وجدّي إلى الباب ليودّعاه. تصافحوا.

- في أمان الله يا سيّدي.

- مع السلامة يا سيّدي.

- إذا كان عندكم أوامر أنا في الخدمة يا سيّدي...

لم يستطع أن يكمل كلمة «سيّدي». بقي نصف الكلمة في فمه. رفع يده في الهواء مودّعاً، وفي تلك الأثناء تماماً انزلق. ولكيلا ينزلق وثب كأنّه يرقص، ولكنّه انزلق بسرعة. لم يرَ أبي وجدّي وقوعه؛ لأنّهما دخلا البيت.

قال جدّي لأبي:

- يا بنيّ، ما بال الرجُل وهو ينزل على الدرج؟ بدا كأنّه يرقص.

قلت بسرعة:

- من المحتمل أنّه رقص فرحاً لأنّكم ستحلّون مشكلته.

ولكي نرى ما آل إليه الرجُل، خرجنا أنا ومتين إلى الشُّرفة ونظرنا. امتدت ساقان من باب العمارة إلى الخارج. سيّارته الخاصّة تنتظر عند الباب. نطّ السائق من السيّارة، رفع الصحفيّ العظيم من المكان الذي استلقى فيه، وأسنده من ذراعه وأركبه السيّارة. كان متين ملقى على الأرض، وهو يضحك. لديّ ثقة بمتين، لن يخبر أحداً، ولكنْ بعد فوات الأوان سيطر عليّ الخوف؛ فماذا لو جُرح رأسه يا ترى؟.. على أيّة حال، أعتقد أنّنا تجاوزناها بأقلّ الخسائر.

بعد ذلك بقليل دخلت إلى الصالون. وجدت جدّي يغفو مجدّداً، وأبي يجلس مقابله على الأريكة يقرأ الجريدة.

أفاق جدّي وسأل:

- أين كنّا؟

قال أبي:

- لم نكن في أيّ مكان. لم تكونوا تحكون عن أيّ شيء...

- هكذا إذن، لم أكن أحكي. حسناً، ما قولك، هل ستحدث الحرب النوويّة ها؟

بعد أن حكى أبي شيئاً، سأله عن الرجُل الذي كان موجوداً.

- دعك منه يا روحي، إنّه واحدٌ من الذين ينزلون على أقدامهم الأربعة عند كلّ منعطف...

تدخّلتُ أنا أيضاً قائلة:

- يا جدّي، هل ستتكلّم مع صديقك من أجل ابنه؟

قال جدّي:

- الإنسان يستحي يا ابنتي، أعطيته وعداً، سأخبر صديقي يا...

أسند رأسه إلى مسند الأريكة على نحوٍ مريحٍ وجميلٍ، وغطّ هذه المرّة في نوم عميق. خرج أبي من الصالون، وهو يمشي على رؤوس أصابعه.

قلتَ في رسالتك الفائتة: إنّك تكتب على نحوٍ مطوّل. انظر! أنا أكتب أطول منك.

سلامي لك، ولكلّ الأصدقاء، وأرجو لكم النجاح جميعاً.

زينب يالكر

ملحوظة:

عندما كان الصحفيّ الشهير الذي أخبرتكَ عنه يتحدّث في مدرستنا كنت متحمّسةً للغاية إلى درجة أنّني بكيت. ولكنْ من الآن فصاعداً، وبصرف النظر عمّن يلقي مثل هذه الخطابات، فإنّني لن أبكي مرّةً أُخرى.

ز. ي.

كيف يجب أن يُقرأ الشعر؟

إسطنبول، 20 كانون الثاني/ يناير 1964

صديقتي العزيزة زينب:

وهل يمكنني ألّا أعرف ذلك الرجُل المشهور الذي حكيتِ عنه في رسالتكِ؟ أنا أيضاً أذكر النصائح الوطنيّة التي أعطانا إيّاها في مدرستنا.

أضفتِ ملحوظةً في نهاية رسالتك، قلتِ: «ولكنْ من الآن فصاعداً، وبصرف النظر عمّن يُلقي مثل هذه الخطابات، فإنّني لن أبكي مرّةً أُخرى».

ولكنّكِ ستبكين يا زينب؛ لأنّ البكاء ليس باليد. عندما يُقطّع الإنسان البصل سيبكي، بصرف النظر عن مدى رغبته في عدم البكاء. هو لا يبكي بسبب حزنه بالطبع، ولكنّ الدموع تنهمر لأنّ البصل حادٌّ، ورائحته تحرق العينين. أصوات هؤلاء الرجال، وبطريقةٍ ما، لها تأثير البصل ذاته. أعرف هذا من نفسي. يوجد مذيعٌ في المذياع، كلّما تحدّث لا أستطيع أن أمسك نفسي، فأبكي على الفور. في أحد الأيّام كنت جالساً بجانب المذياع أبكي. رأى أبي الدمع في عيني، فقال:

- ماذا يقول الرجُل حتّى تبكي يا أحمد؟

وعندها، وبسبب هذا السؤال، أدركت أنّني لم أفهم ما يقوله الرجُل. لم أفهم أيّة جملةٍ ممّا يقوله، ومع ذلك كنت أبكي. يبدو ذلك أمراً سخيفاً للإنسان، أليس كذلك؟ ولكنّه حقيقيّ. بعد ذلك فكّرت كثيراً بسبب حدوث هذا، وبسبب بكائي: أنا لم أكن أبكي بسبب كلمات الرجُل، أو معناها، بل بسبب صوته؛ فتأثير صوته هو من يُبْكي، أو بمعنى أدق: ارتعاشات صوته هي التي تُبكي، مثل البصل الحادّ الحارق تماماً.

إنّ سؤال إنسانٍ عيناه ممتلئتان بالدموع بسبب البصل: «ماذا فهمت من البصل حتّى بكيت؟». يشابه سؤال إنسانٍ يستمع إلى موجات أصوات هؤلاء الناس: «ماذا فهمتَ حتّى بكيت؟».

قبل سنوات، صحبني جدّي إلى أحد الجوامع. بعد الصلاة دعا الإمام أدعيةً بالعربيّة. كان جدّي يبكي في أثناء قراءة الإمام. بكى إلى درجةٍ كبيرة... عندما بكى جدّي لم أستطع أن أمسك نفسي، فبكيت أيضاً. عندما خرجنا من الجامع متّجهين إلى البيت سألتُ جدّي:

- هل تعرف اللّغة العربيّة حتّى بكيت على ما قاله الإمام يا جدّي؟

قال:

- لا أنا ولا حتّى الإمام نعرف العربيّة...

- إذنْ، لماذا بكيت؟

- وكيف لا أبكي؟ ألم تسمع كيف كانت قراءة الإمام؟ من يدري ما هي الأشياء الموجعة، أو الجميلة التي يقولها!

عندها تذكّر جدّي صوت الإمام، وبدأ بالبكاء مجدّداً. دمعت عيناي أنا أيضاً. ربّما قرأ الإمام دعاءً مبهجاً للغاية.

لا أستطيع نسيان هذه الحادثة أبداً.

ثمّة بائعٌ متجوّلٌ، يمرّ بشارعنا كلّ مساء. يرفع صوته، وهو يبيع الخضار حسب موسمها، وكلّما سمعت صوت هذا البائع أبكي على الفور، مع أنّه كان يصيح: «عندنا ملفووووف، عندنا باراصيااااا!»، أو «خيااار، بصللل!». وهل يبكي الإنسان بسبب هذه النداءات؟ هذا يعني أنّني أتأثّر بصوت هذا الرجُل.

يُقرِئنا معلّمنا الشعر الموجود في كتاب القراءة بهذا الشكل. ألا يوجد أغنية اسمها «حزيناً ذهبت، سعيداً أتيت»؟ علّمنا كيف يجب أن نلفظها: يجب أن نمطّ الحرف الصوتيّ من كلمة «ذهبت»، وكلمة «أتيت»، بصوتٍ مهتزّ: «حزيناً ذهاابت، سعيداً أتاااايت». كأنّه لا يقول: «سعيداً عدت»، بل كأنّ متسوّلاً معاقاً أعمى يقرع الباب قائلاً، وهو يتسوّل: «لقد أتاايت».

عندما نغنّي هذه الأغنية في الصفّ أبكي دائماً. تخيّلي شخصاً يقول لكِ: «سعيداً أتيت»، وأنتِ تبكين.

كان معلّمنا يعلّمنا طريقة قراءة هذا الشعر، عندما قال:

- «حزيناً ذهاابت، سعيداً أتاااايت»...

أتى صوتٌ من المقاعد الأخيرة:

- أهلاً وسهلااً... إلى الباب، الله يعطييك..

قال معلّمنا:

- من هذا؟ لينهض على قدميه على الفور!

نهض يشار من المقعد الأخير، وقال:

- سامحوني يا أستاذي، لم أستطع إمساك نفسي...

سامحه المعلّم، ثمّ تعلّمنا تتمّة القصيدة:

أعطني رشفة ماء

من طريقٍ بعيدٍ أتيت

عندما تُقال: «أعطني رشفة ماء»، يجب أن يثخن الصوت ويغلظ فجأةً! وسيبدو كما لو أنّه لا يريد ماءً، بل كأنّ رجُلاً شرساً هجم عليه يريد روحه؛ هكذا يجب أن يُقال...

أعتقد أنّ الإنسان من الضروريّ أن يستخدم صوته على نحوٍ جيّد. حسب ما حكى لنا أبي، فإنّ صاحب المصنع الذي يعمل فيه يستخدم صوته على نحوٍ فعّالٍ للغاية. يحكي ذلك أيضاً باستمرارٍ للضيوف الذين يأتون إلينا. كان العمّال، أو ممثّلوهم، أو رؤساؤهم، يطلبون إلى صاحب المصنع زيادة أجورهم قائلين: «نعاني صعوباتٍ ماليّةً، فلتزيدوا أجورنا. واعتاد صاحب العمل أن يحكي لهم شيئاً ما بصوتٍ مرتجفٍ، ولطيفٍ، وحلوٍ، إلى درجة أنّ عينيه تبدآن بالبكاء من تأثير صوته قبلهم، وبعد ذلك لا يستطيع العمّال أن يمسكوا دموعهم؛ يبكي صاحب العمل، ويبكون هُم أيضاً. بعد أن يتبادل الطرفان البكاء، ينسى العمّال ما سيقولونه ويخرجون، وعندما يعودون إلى رشدهم بعد مدّةٍ قصيرةٍ يقولون سائلين بعضهم: «يا جماعة، ماذا قال لنا صاحب العمل حتّى بكينا؟»».

ولكنْ لا أحد منهم يتذكّر ما قاله صاحب العمل.

في إحدى المرّات، قال أبي لزملائه:

- سأمسك نفسي بقوّة، ولن أبكي مهما قال، حتّى إنّني لن أتركه حتّى يرفع أجرتي، أو أترك العمل!

وفور دخوله قال:

- يا سيّدي...

وعندها يبدأ صاحب العمل على الفور بالقول:

- صعب، صعب يا أخي... أعرف، المصروف صعبٌ هذه الأيّام. وكيف لا أعرف!

لا يوجد ما يُبكي في هذه الكلمات، ولكنّها عندما تصير مكتوبةً على الورق، فيكفي أن يأتي شخصٌ يعرف كيفيّة جعل صوته يرتجف، وهو يقول هذه الكلمات، ولن يصمد أيّ شخصٍ واقفٍ أمامه حتّى لو كان حجراً، وسيبكي. ولكنّ أبي كان يمسك نفسه بأيّ ثمن حتّى لا يبكي. وبدآ المحادثة...

- كم شخصاً في رقبتك؟

- خمسة أشخاص.

- واخ واخ واخ!

ردّد واخ كثيراً، وعلى نحوٍ أليمٍ إلى درجة أنّ أبي كان سينفلت بالبكاء، ولكنّه ضغط على شفتيه بأسنانه وصمد.

- هل يدرس الأولاد في المدارس؟

- واحد يدرس، وواحدة لا.

- يا للأسف! هذا يعني أنّك لا ترسل أحدهما.

- إنّها صغيرة؛ ولهذا السبب لا أرسلها. عندما تكبر سأرسلها.

- وهل تجعل الخيّاط يخيط لزوجتك معطفاً كلّ ثلاث سنوات؟

قال أبي:

- نعم، أفعل.

- وزوجتك -فوق كلّ هذا- مريضة، أليس كذلك؟

- لاا، ليست مريضة!

- ليست مريضة يا أخي، ولكنْ ممكن أن تمرض، وفي ذلك الوقت ماذا سيحدث؟ واخ واخ واخ.. ومن سيهتمّ بالمسكينة؟ تحتاج إلى طبيبٍ وعلاج؛ هذه كلّها نقود... كيف سيُجري العمليّة؟

- من؟

- طفلك.

- وأيّة عمليّات يا سيّدي؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل.

- لا يوجد، ولكنّني أقولها على سبيل المثال.. لو لزم الأمر..

كان أبي سيتحمل أكثر، ولكنْ عندما بدأ صاحب العمل بالبكاء، لَان أبي وقال:

- لا يا سيّدي، لا تبكوا، أرجوكم! نحن على أيّة حال نجد طريقاً ما لحلّ شؤوننا. إذا كنتم تحبّون الله لا تبكوا.

نظر إليه وبدأ بالبكاء.

عندما يحكي أبي هذه الحادثة يقول دائماً:

- كنت حتّى ذلك الوقت على درايةٍ بما كنّا نحكيه أنا وصاحب العمل. ولكنْ بعد ذلك فقدت وجهة الكلمات. كان صاحب العمل يحكي شيئاً ما بصوتٍ أليمٍ، وكنّا كلانا نبكي، وعندها قلت لنفسي: «فلْأستجمعْ نفسي، وأرَ عن ماذا يحكي هذا الرجُل، وأستمع». انتبهت، ويا لهول ما يقوله! ألم يكن يشرح كيف استشهد سيّدنا الحسن وسيّدنا الحسين في معركة كربلاء؟ لم أستطع أن أفهم كيف وصل حديثه إلى الحسن والحسين...!

خرج أبي من غرفة صاحب العمل باكياً.

ولذلك يا زينب، ليس بيدك ألّا تبكي عند سماعك تلك الأنواع من الأصوات. إن أتى ذلك الصحفيّ المشهور إلى المدرسة مرّةً أُخرى، وتكلّم بتلك النبرة مرّةً أُخرى، فإنّنا سنبكي من جديد.

أرجو لكِ الصحّة والعافية. في انتظار رسائلكِ.

أحمد طاراباي

ثنائيّة المدرسة-العائلة

أنقرة، 24 كانون الثاني / يناير 1964

أخي أحمد:

قبل قليل استلمت رسالتك التي أرسلتها بتاريخ 20 كانون الثاني / يناير. لا يوجد مدرسة اليوم؛ بسبب اللّقاح الذي أخذناه البارحة. في أثناء قراءتي رسالتَكَ في غرفتي، ضحكتُ بصوتٍ عالٍ بدون أن أنتبه. سمعتني أمّي من الخارج ونادت:

- لماذا تضحكين مع نفسك؟

قلت لها بأنّني أضحك بسبب رسالتكَ، فأتت إلى غرفتي وقالت:

- وماذا كتب؟

قرأت أمّي رسالتك أيضاً، وانفجرت ضاحكةً.

منذ مدّةٍ، وأنا أريد أن أكتب إليك عن اجتماع أولياء الأمور. اليوم لديّ الوقت الكافي، ويمكنني الكتابة، وأنا مرتاحة. ارتفعت حرارتي قليلاً بسبب اللّقاح، ولكنّني بخير.

في أحد الأيّام الفائتة، عُقد اجتماعٌ لأولياء الأمور. يُعقد هذا الاجتماع كلّ شهرٍ مرّة. كلّفوا خمسة طلّابٍ من الصفّ الخامس: ثلاث بنات، وصبيّين، لاستقبال الأهالي القادمين إلى الاجتماع. وأنا كنت من بين المكلّفين. استمعت إلى ما يُحكى في الاجتماع من أوّله إلى آخره. أريد أن أحكيه لك أيضاً؛ لأنّه مسلٍّ جدّاً.

في الحقيقة، لم نكن نريد الاستماع إلى ما يُحكى. عندما جلس الأهالي في أماكنهم أخرجونا خارج الصالة. كنّا في الممرّ واقفين وراء الباب. سنوزّع الشاي، والليموناضة، والبسكويت في نهاية الاجتماع. كانت الصالة مزدحمةً، والجوّ حارّاً. شعر من في الداخل بغثيانٍ في المعدة. ولكي يغيّروا الجوّ قليلاً فتحوا فردتيّ الباب على مصراعيهما. ونحن بدورنا كنّا واقفين عند الباب خارجاً نستمع جيّداً إلى ما يُحكى في الداخل. ألقى السيّد المدير كلمة. في بادئ الأمر كان يتحدّث بلطفٍ، ولكنْ مع الوقت، ازداد صوته قساوة. قال: إنّ الأهالي لا يهتمّون بأطفالهم، أو إنّهم يهتمّون قليلاً جدّاً، وإنّهم ينتظرون من المدرسة فعل كلّ شيء، وشرح أنّ المدرسة الحقيقيّة تبدأ في البيت، وأنّ على الأهالي الإشراف على واجبات أطفالهم المنزليّة، وأنّ عليهم الحضور إلى المدرسة، وسؤال الأساتذة عن أوضاع أطفالهم.

كان الأهالي يوافقون السيّد المدير؛ ولذلك بدأ الهمس.

بعد أن ذكر السيّد المدير بأنّه يهتمّ بالأطفال على نحوٍ جيّدٍ جدّاً، قال:

- لديّ طفلٌ يدرس في الصفّ الأوّل الثانويّ. منذ بداية السنة الدراسيّة وإلى الآن لم أستطع أن أجد وقتاً بين أعمالي لأذهب إلى مدرسته، ولو مرّة واحدة، ولم أستطع أن أسأل الأساتذة عن وضعه. كتبت معلّمةُ ابني رسائل عديدة، يستدعونني فيها لمقابلتهم، ولكنّني لم أستطع الذهاب.

لام الأهالي مرّةً أُخرى على قلّة اهتمامهم بوضع أطفالهم في المدرسة، وعدم مجيئهم إلى المدرسة. بعد كلمة السيّد المدير، طلبت رئيسة اجتماع أولياء الأمور إلى الأهالي أن يُفصحوا عن رغباتهم. بدأ أحد الآباء بالكلام. ذكر أنّه من غير الصواب إعطاء علامة «ضعيف» لطفله في مادّة اللّغة التركيّة. كان يقول:

– وكيف يمكن ذلك يا سيّدي؟ كيف تعطون علامة «ضعيف» لابني في مادّة اللّغة التركيّة؟

سأل معلّمُ ذلك الطفل الوالدَ عن سببٍ لعدم إعطائه درجة «ضعيف»، ولكنّ الرجُل كان يتكلّم على نحوٍ غريب: بداية الجملة في كلامه لا تترابط مع نهايتها، الجُملة التي يبدأها بالزمن المضارع، يستمرّ بها بالزمن الماضي، وينهيها بزمن المستقبل. قال:

– مستحيلٌ يا سيدي! لأنّها لو صارت لغةً فرنسيّةً، لماذا أعطيتموه درجة «ضعيف»؟ عندها سأفهم. ربّما عندكم حقّ في هذا، ولكنّكم ستعطونه درجة «ضعيف» يمكن أن يكون قد أخذها من درس اللّغة التركيّة في الماضي. سيكون من غير العادل... فابني من قوميّةٍ أُخرى، لو كان قد صار، عندها لن يعرف اللّغة التركيّة، سيكون ضعيفاً، تمام؟ أمّا الآن، فلا يأخذ. هذا الولد ولدي. صار ولداً تركيّاً، يعني: يعرف اللّغة التركيّة... ولماذا لا يعرف، إذا كانت لغته الأمّ هي التركيّة؟ لن أقول: إنّ عليهم أن يعطوه «جيّد جداً» كانوا... ولكنْ كلّ ولدٍ تركيٍّ عليه أن يأخذ في اللّغة التركيّة على الأقلّ علامَةَ «وسط». اللّغة التركيّة يحكي ابني، وأنا يبدو أنّني فهمت عليه، وأمّه فهمت عليه، أصدقاؤه فهموا عليه، كلّ واحد يفهم، ولهذا أيضاً أستاذه ضروري أن يفهم.. على الأقل ليحصلوا على «وسط» لازم...

قال معلّم الطفل:

- عفواً، لم أستطع أن أفهم ما تقولونه. هل تقصدون أنّه يجب أن يحصل على درجة «وسط» على الأقلّ فقط لأنّه طفلٌ تركيٌّ، ولغته الأمّ التركيّة؟

- نعم، ما قلته أردته. كلّ شخص يفهم ما يقوله ولدي، ليفهم الأستاذ أيضاً...

- يعني أنّكم تفهمون ما يقوله ابنكم؟

- حتماً.

- وابنكم يستطيع فهم ما تقولونه؟

- يجب أن يكون قد فهم...

سُمعت همسات استهانةٍ من الصالة. تدخّل المدير، وهدّأ الرجُل.

تحدّث واحدٌ آخر من الآباء، فقال: إنّ طفله قد سأله عن بعض الأشياء في دروسه، وإنّه لم يعرف أجوبة أيٍّ من تلك الأسئلة. كان يقول:

- وكيف لا أعرف يا سيّدي؟ كيف لا أعرف؟ قولوا لي، كيف لا أعرف؟

لم يتّضح في البداية سبب عصبيّة هذا الرجُل، ولكنّني فهمت ما يريده عندما قال:

- ما لا أعرفه هو كيف يتلقّى ابني تعليمه؟

كان يشتكي من ثقل برنامج الدروس:

- أنا أنهيت الثانوية، وفي ظلّ ذلك، هل من المنطقيّ عدم معرفتي لما يسأله ابني الذي يدرس في المدرسة الابتدائيّة؟ لا يستطيع أطفالنا الصغار تحمّل ثقل برنامج الدروس هذا.

ردّت إحدى الأمّهات على هذا السيّد، ولكنّها على عكس ذلك، قالت بأنّ الأطفال يتعلّمون القليل من الأشياء، واشتكت من قلّة المعلومات المقدّمة لهم.

- طفلي لا يعرف أيّ شيءٍ أسأله عنه. في زماننا كان برنامج دروسنا ممتلئاً أكثر. مثلاً: في أحد الأيّام كنّا في المطعم، وعندما رأت ابنتي أحد الأشخاص ينكش أسنانه بنكاشة الأسنان سألتني: «هل هذا الرجُل يجترّ؟». يعني لو سمحتم، يجب على طفلٍ بعمر الأربع سنوات أن يعرف أنّ الإنسان لا يجترّ.

هدّأ السيّد المدير هذه المرأة أيضاً. شرح المدير أنّ المدرسة ليست هي من ينظّم برنامج الدروس، بل وزارة التعليم، وأنّ الوزارة هي من تهتمّ بهذا الأمر.

لم يكن من السهل تهدئة المرأة؛ قالت:

- نحن ننتظر كلّ شيءٍ من الحكومة، ولكنّ مهمّة وزارةٍ بهذا الحجم، أو الحكومة، لا يجوز أن تكون تعليم الناس أنّهم لا يجترّون!

بدا لي أنّ الناس هناك كانوا يتحدّثون بهذه الطريقة لمجرّد الضحك، مع أنّ وجوه المتحدّثين كانت جادّة.

في صفّنا زميلٌ اسمه مراد، كلّما قال له الأستاذ «انهض!» يسأل:

- من؟

- أنت.

- أنا يا أستاذ؟

- أنت، أنت يا بنيّ، أحكي معك...

- معي يا أستاذ؟

حتّى لو ذكر المعلّم اسمه، وكان الاثنان متقابلين، فإنّ مراد يتصرّف على هذا النحو مجدّداً. في النهاية، يخرج المعلّم عن طوره ويصرخ:

- وهل يوجد أحد غيرك أمامي يا مراد؟ أنا أحكي معك يا...!

في أوضاع كهذه، يحدث أن يستدير مراد، وينظر إلى الحائط خلفه، كأنّ المعلّم يتحدّث إلى أحدٍ آخر خلفه. في إحدى المرّات استدار ونظر إلى الحائط خلفه، ونحن ضحكنا كثيراً...

نهض أحد الرجال الموجودين في الاجتماع، علمنا فيما بعد أنّه والد مراد.

- إذا سمحتم لي، أريد الحديث أيضاً.

قالت رئيسة اجتماع أولياء الأمور:

- تفضّل يا سيّدي، إنّنا نستمع إليك...

ردّ الرجُل: أنا؟

قالت الرئيسة: نعم، ألا تريدون الحديث؟

- من؟

- أنتم.

- أنا؟

- نعم، تفضّلوا، تكلّموا يا سيّدي.

وكما يفعل مراد تماماً، رفع الرجُل إصبعه إلى صدره، وسأل مرّةً أُخرى:

- أنا؟

عندما صرخ أحد الحاضرين: «لا، بل أنا...». بدأوا بالضحك.

تكلّم والد مراد. أراد منع الأطفال من لعب كرة القدم في المدرسة. كان يقول بأنّ ابنه لا يدرس دروسه بسبب اللّعب بالكرة.

سأله المدير:

- في أيّ صفٍّ ابنكم؟

فسأله الرجُل:

- ابني أنا؟

- نعم، ابنكم أنتم.

فكّر الرجُل، وفكّر، ثمّ قال:

- يدرس في هذه المدرسة.

- وما رقمه؟

- رقم من؟

ومجدّداً ارتفع صوتٌ في الصالة: «رقم مقاس حذائك!». وبدأوا بالضحك.

الرجُل لا يعرف حتّى رقم ابنه. عندما ذكر اسم ابنه ورقمه عرفنا أنّه والد مراد.

بدأ رجُلٌ آخر بالكلام، ولكنّه كان يتحدّث مطوّلاً إلى درجةٍ يصعب فيها فهم ما يقوله. بدأ كلامه هكذا:

- لا يمكن لتركيا أن تتطوّر إلّا بتربية النحل...

ولأنّنا لم نعرف ما علاقة تربية النحل بهذا الاجتماع، فقد أمسكنا أنفسنا في الخارج حتّى لا نضحك.

بعد أن ذكر الرجُل أنّه قرأ عدّة كتبٍ عن تربية النحل، بدأ يشرح عن النحل. ما قاله كان بديهيّاً للجميع:

- النحلة حيوانٌ صغيرٌ ذو أجنحةٍ ويطير.. يصنع عسلاً. العسل مفيدٌ جدّاً للإنسان، وذو قيمةٍ كبيرة. وكما يؤكل على الفطور فمن الممكن أكله أيضاً بعد الطعام، كما يُصنع منه شراب. يوجد نوعان من العسل...

بعد أن شرح العسل بكلامٍ معسول، انتقل إلى موضوع النحل:

- يوجد دبّور، كما توجد نحلة...

كانت تصدر عن الموجودين في الصالة أصوات الانزعاج: «أووف»، «بووف».

في النهاية قال السيّد المدير:

- وماذا سنعمل بالنحلة يا سيّد؟

- النحلة؟ سيؤخذ العسل منها..

- وماذا سنعمل بالعسل؟

- وماذا لا يُعمل بالعسل؟ كلّ شيء...

- يعني: ماذا سنعمل نحن به في المدرسة؟

قال الرجُل:

- لو سمحتم، سأشرح هذا: قبل قليل، تفضّلَ أحد السادة، وهو على حقّ، بأنّه من الواجب أن يُعطى أولادنا معلومات مفيدة في الحياة. إنّه محقّ تماماً. مثلاً: ابني يعرف أنّ مجموع قياسات الزوايا الثلاث للمثّلث هو مئة وثمانون درجة، ولا يعرف كيفيّة تربية النحل. وماذا سنستفيد إن كان مجموع قياسات الزوايا الثلاث للمثّلث مئة وثمانين، أو كان ثلاثمئة، أو كان خمسة آلاف...؟ أرجوكم قولي لي من فضلكم. صرنا في هذا العمر، من منّا سُئل عن مجموع قياسات الزوايا الثلاث للمثّلث في الحياة؟ يجب ألّا تمتلئ أمخاخ أطفالنا الغضّة بأشياء تافهة. يجب أن يتعلّموا معلوماتٍ

مفيدةً، مثل تربية النحل. يجب أن تحتوي المدرسة على خلايا نحل. لا يمكن أن تتطوّر تركيا إلّا بتربية النحل؛ لأنّ النحل لا يشبه الغنم، أو البقر؛ فالبقرة تعطي حليباً، ولكنّها تحتاج إلى العشب والتبن؛ أمّا النحل، فليس بحاجةٍ إلى شيء، حتّى إنّه يعطي العسل بدون إرادته.

نهض شخصٌ آخر:

- أنتم محقّون تماماً، ولكنْ لا يمكن تربية النحل داخل المدينة. انظروا! حتّى الإنسان يصعب عليه العيش بسبب الدخان المتصاعد من المداخن، فكيف سيعيش النحل؟ ثمّ إنّ النحل ينتج حسب المكان الذي يعيش فيه؛ فحتّى لو عاش النحل داخل المدينة، فإنّه لن يعطي عسلاً، بل سيعطي الزفت والقطران يا سيّد.

وبينما كان من في الصالة يؤيّدون كلام الرجُل، قال رجُلٌ آخر:

- لديّ عرضٌ آخر: فلْيُربَّ الدجاج، وليس النحل. لا تستخفّوا بالدجاج. لو تعلّم أطفالنا تربية الدجاج...

قال السيّد المدير مقاطعاً كلام السيّد:

- يا سيّدي، لقد قلتُ قبل قليل: إنّنا لا يمكن أن نربّي النحل، والدجاج، والبقر من تلقاء أنفسنا، ووزارة التعليم هي من تُنظّم البرنامج الدراسي؛ هنا مدرسة ابتدائيّة، وليست مدرسة زراعيّة.

نهضت امرأةٌ متبرّجةٌ وقالت:

- أعتقد أنّنا ابتعدنا كثيراً عن الموضوع. بصفتي عضواً في مجلس أولياء الأمور، فإنّ لديّ مقترحاً آخر: ما قولكم بمساعدة الأطفال المحتاجين في مدرستنا؟ هل نقيم سحب يانصيب، أم ننظّم احتفالاً على غرار السنة الفائتة؟

بعد مجادلات مطوّلة، رأوا أنّه من المناسب تنظيم احتفال؛ لأنّ موعده قد حان، ثمّ بدأوا بجمع المساعدات الماليّة من الأهالي الموجودين في الصالة.

تجمّع الأهالي حول الأساتذة ليسألوا عن وضع أطفالهم في الدروس. ونحن بدورنا دخلنا الصالة، وبدأنا بتوزيع الليموناضة، والشاي، والبسكويت.

الحقيقة أنّنا تسلّينا كثيراً في ذلك اليوم. كم سيكون مسلّياً لو أستطيع حضور جميع اجتماعات أولياء الأمور! إذا صار اجتماع لأولياء الأمور في مدرستكم، جِد أنت أيضاً طريقةً ما واستمع إلى ما يتحدّثون عنه.

كانت أمّي في الاجتماع أيضاً، عندما عدنا إلى البيت سألتها:

- لماذا لم تتحدّثي يا أمّي؟

قالت:

- وهل تركوا لي مجالاً؟ تكلّموا على نحوٍ سخيف...

قلت:

- وهل كان لديك شيء لتقوليه؟

قالت:

- ألا أملك أنا أيضاً فماً ولساناً؟ مؤكّدٌ أنّ فمي يحكي مثلما يحكون، وأنا أيضاً كنت سأقول بعض الأشياء، لكنّهم لم يتركوا فرصةً لأحد.

كتبت رسالةً أطول من رسالتك.

أخبر ميني أنّها لم تردّ على رسالتي إلى الآن. مع تمنّياتي بالنجاح.

زينب يالكر

أطفال هذه الأيّام الرائعون

إسطنبول، 30 كانون الثاني / يناير 1964

زينب:

في أثناء قراءتي رسالتكِ، تخيّلت اجتماع أولياء الأمور في مدرستكم كما لو أنّني أشاهد فيلماً. أبي لا يستطيع الذهاب نهائيّاً إلى اجتماع أولياء الأمور في مدرستنا؛ فليس لديه وقت. يأتي مرهقاً عند عودته من المصنع إلى البيت كلّ مساء. في بعض الأيّام يعمل ساعاتٍ إضافيّةً، فيأتي إلى البيت متأخّراً. يوجد في البيت يوم الأحد فقط. ولأنّ حمل البيت كلّه فوق أمّي، فهي أيضاً لا تستطيع الذهاب.

لأخبركِ شيئاً: الرائعة التي عندنا أصبحت الأولى.

من المؤكّد أنّكِ لم تفهمي ما قلتُه. هل تعرفين من هي الرائعة التي عندنا؟ إنّها فتوش... في الأحد الماضي تسابق ستّةُ رائعين. الأصحّ: تنافس الرائعون الستّة. لو أردتِ رأيي، لقلتُ: إنّ الرائعة التي عندنا انتزعت المركز الأوّل.

لدي عمّان: أحدهما لديه رائعان اثنان، والآخر لديه رائعٌ واحد. كانوا

عندنا. أتى إلينا أيضاً مهندسٌ يعمل مع أبي في المصنع، كما أتى أحد جيراننا أيضاً، ولدى كلّ واحدٍ منهما رائع. أصبح في البيت ستّة رائعين.

لدى عمّي الكبير عادة، فهو يمتدح طفليه أمام الجميع. وحسب ما قاله: فإنّ طفليه رائعَان. كلّما أتى إلينا يحكي عن المهارات الجديدة التي يمتلكها طفلاه.

يبدأ بالكلام:

- هل تعلمون ماذا فعل الصغير الذي عندنا؟ والله شيء لا يُصدق!

في أحد المساءات عندما دخل الباب عائداً من العمل، ركض الولد وأحضر شحّاطة، أو شيئاً من هذا القبيل. استرسل عمّي في الكلام:

- وكيف يتعقّل ولدٌ بهذا العمر؟ ذُهلت!... يحضر شحّاطتي يا سادة، شحّاطتي... انظروا إلى هذا الذكاء. والله هذا الولد رائع!

هل تعرفين كم عمر ابن عمّي الذي أحضر الشحّاطة له وأدهشه؟ إنّه أكبر من فتوش بسنة، يعني: إنّه طفلٌ كبير...

عندما طار عمّي بمديح الرائع الذي عنده إلى السماء كعادته، لم يقصّر المهندس فقال:

- أطفال هذه الأيّام كلّهم هكذا. ابنتي لم تكمل السبع سنوات بعد، وتتكلّم الفرنسيّة بسهولة.

- ماذا تقولون!.. إنّها رائعة!

- نعم، إنّها رائعة!.. فصفصت اللّغة الفرنسيّة فصفصة.

وهل يقصّر عمّي الكبير؟ هو أيضاً بدأ:

- وابني الصغير، ما شاء الله! أروع من الكبير. الولد الكبير رائعٌ أيضاً

ياهووه..! كلّ واحدٍ منهما أحسن من الآخر. في أحد المساءات أتيت إلى البيت. قالت أمّه: «ابنك صار كبيراً، لا أستطيع مجاراته بعد الآن، لا يستمع إليّ. يلعب الكرة في الشارع. أقول له: تعال، ولا يأتي. أَجلِسه في البيت!». خرجت إلى الشارع لأبحث عنه. نظرت، وإذا هو مبلّلٌ بالعرق، يركض وراء الكرة. أقول له: تعال، ولا يأتي. ركضت وراءه لأمسكه، ولكنّه يركض أسرع منّي، لا أستطيع اللّحاق به. إنّه بطول الساق، ولكنْ عليه «ركضة»، والله رائع...!

عندما قال جارنا: «ابنتي أيضاً هكذا، ما شاء الله، رائعة من الروائع!». لم يرغب عمّي الكبير بتفويت الفرصة التي أتيحت له فقال: «أعتذر من قطع كلامكم». وتابع مدح الرائع الذي عنده:

- بعد ذلك يا سيّدي.. محسوبكم يركض، وهو يهرب. ما استطعت الإمساك به بأيّ شكل. بعد هذا يا سيّدي ناديت عليه: «تعال إلى الداخل، أحسن لك!». أردت بكلامي هذا أن أخيفه، فاستدار إلى الخلف، ستعجبون بكلّ ما يمكن أن يقوله لي. ألا يقول: «لماذا تتدخّل؟ هل أنت أمّي؟». انظروا إلى هذا العقل والمنطق! ضحكت برهةً... يعني يا لقوّة المنطق عنده! لو أعملَ إنسانٌ كبيرٌ عقله، لما خطر له مثل هذا الكلام.

يحكي عمّي من جهة، وينظر إلى ابنه ضاحكاً باستمتاعٍ من جهةٍ أُخرى. كان يضحك إلى درجة أنّ الذين معه اضطرّوا إلى أن يضحكوا من باب المجاملة.

قال المهندس لعمّي:

- ما شاء الله... الذي عندكم ذكيٌّ جدّاً يا روحي!

قال عمّي:

- أجل، حتّى إنّ هذا «الفصعون» يعرف عمل كلّ شخص في البيت.

إنّه ابن عمّي، أحبّه كثيراً. يصغرني بسنة ونصف. ولكنْ برأيي، ما يفعله قلّة أدب واضحة.

قال جارنا الذي قُطع كلامه قبل قليل:

- ابنتي رسّامةٌ بالفعل. سيغمى عليكم لو رأيتم رسمها. مَن يَرَ رسمها لا بدّ من أن يعضّ أصابعه. واللهِ إنّها رائعة...!

قالت أمّها:

- أخاف عليها من العين.

بدأ عمّي الأصغر كلامه بـ«أطفال هذه الأيّام كلّهم رائعون، الله يعلم!». وانتقل إلى الكلام عن ابنه الذي يغنّي على نحوٍ جميلٍ جدّاً.

وهل يمكن لأبي أن يكون أدنى منهم؟.. قال:

- ستصير فتوشتنا راقصة باليه. هي من الآن ترقص تويست، أو مويست(*)، أيّاً كان، فهي ترقصها بطريقةٍ مدهشة!..

قالت أمّي:

- أنا لن أدع ابنتي تصير راقصةً شرقيّة.

قال أبي:

- أنت لا تستطيعين استيعاب هذا يا سيّدتي، الراقصة العاديّة شيء، وراقصة الباليه شيءٌ آخر.. التي عندنا ستصير راقصة باليه.

- أيّاً كان، ألن تخلع ملابسها أمام هذا وذاك؟ لا أريد!

هل تعرف كيف تبدو لي هذه المحادثات؟ كأنّ شخصاً ما سيظهر

(*) التويست: رقصة مستوحاة من موسيقى الروك أند رول.

ويقول: «بلغ ابني العشرين من عمره حالاً. في ذلك اليوم، وبينما كان يرضع من أمّه، ألا يبدأ بالقول بصوتٍ غليظ: (بابا، زوّجوني وخلّصوني)!.. دُهشت والله! الولد يتكلّم وبهذا العمر يا روحي! أطفال هذه الأيّام حقّاً مذهلون».

في أحد الأيّام، عندما قالت إحدى جاراتنا لأمّي: إنّ ولدها الذي يبلغ من العمر سنة ونصف السنة بدأ بالمشي، وإنّها دُهشت كثيراً، قلتُ في نفسي: «وماذا يفعل طفل عمره سنة ونصف غير المشي؟ هل يطير مثلاً؟».

الطفل يبقى رائعاً مهما فعل. لو تكلّم فهو رائع.. إنّه طفل، سيتكلّم حتماً، لن ينبح مثلاً... بعد قليل تحوّل المنزل من الداخل بسبب ضجيج الأطفال الرائعين إلى مستشفى مجانين.

للمهندس طفلٌ اسمه طارق يدرس في الصفّ الثاني الإعدادي.

قال أبوه:

- كان طارق ولداً رائعاً عندما كان صغيراً، ولكنْ لسببٍ ما قلّت روعته قليلاً بعد ذلك.

سأل عمّي الأصغر:

- وأين كانت روعته؟

بينما كان يحكي كنت أتفحّص طفله، بدا صبيّاً كبيراً ضربه البله.

نادته أمّه من الباب ثلاث مرّات:

- طاررررق!

وفي المرّة الرابعة، ألا يفتح الصبيّ النافذة وينظر إلى الشارع صارخاً:

- هاا؟ ماذا هناك؟

كان الأهالي متحمّسين لبدء مسابقة الرائعين.

لم يستطع عمّي الأكبر التحمّل، وقال لابنته ذات الخمس سنوات:

- هيّا، غنّي، وليستمع الأعمام والخالات...

كانت الفتاة تتدلّل متمايلةً يمنةً ويسرة:

- هأ...

- هيّا يا ابنتي، هيّا يا روحي...!

- لن أغنّي.

قالت زوجة عمّي:

- يملك طفلانا مواهب موسيقيّة، كلاهما يعزفان البيانو. لو كان يوجد هنا بيانو لعزف ابني لكم معزوفة الدربكّة.

صحّح عمّي على الفور:

- ليست دربكّة يا سيّدة، ليست دربكّة! بل مازوركا...(*)

- دربكّة، زربكة، أيّاً كان، فهو يعزفها. كنت مولعةً بالعزف وأنا صغيرة؛ الصبيّ يشبهني.

ومرّةً أُخرى، أصرّوا على البنت أن تغنّي.

- انظري، هيّا وإلّا لن أدعك تلبسين ملابسك الجميلة!

- لا تُلبّسني...

كانت البنت تتدلّل أكثر فأكثر.

عندما قال عمّي: «إن غنّيتِ سأعطيك شوكولا». سألت الفتاة:

- أيّة أغنيةٍ أغنّي؟

- غنّي: وضعتُ حجراً في طريق سيّارتك، يا (إيمانـ)ـتي.

(*) مازوركا: نمط موسيقي بولندي مبني على الرقصات التراثية والإيقاعات الثلاثية.

بدأ عمّي ينغّم، وهو يدقّ على إحدى الصواني كما لو أنّها رقّ، كما بدأت زوجة عمّي بالفقش بأصابعها، وراح صوت البنت يطنّ. عندما ينقطع صوت البنت تهبّ زوجة عمّي للمساعدة، وتنضمّ للغناء. وبسبب زعيق زوجة عمّي لم يعد من الممكن سماع صوت البنت نهائيّاً.

بنات بيه أوغلو، (إيمانـ)ـي

بنات بيه أوغلو

يلمّحون، يغمزون، (إيمانـ)ـي

عندما انتهت الأغنية صفّقوا لابنة عمّي.

قالت زوجة عمّي لزوجة المهندس:

- أخذت برداً يا أختي، لذلك صوتها مبحوح اليوم.

- أعوذ بالله، لديها صوتٌ جميلٌ جدّاً! فلْيحمِها الله من العين.

قال عمّي الأصغر لابنه:

- هيّا، أنتَ أيضاً اقرأ شعراً، ولنستمع.

انزوى الصبيّ عند الحائط.

- هيّا يا بنيّ، هيّا يا ولدي...!

ضغطوا على الصبيّ. وفي النهاية قطّب عمّي حاجبيه وصرخ:

- اقرأ يا ابن الحرام!

بدأ ابن عمّي بالبكاء. اختلط لعاب المسكين بمخاطه، ومخاطه بدموعه. بدأ يقرأ الشعر، وهو يبكي ويبلع ريقه. الأصحّ: أنّ الثلاثة: عمّي، وزوجة عمّي، وابن عمّي، بدأوا يقرأون الشعر معاً. يقرأ ابن عمّي كلمةً ويتوقّف؛ بسبب نسيانه للتتمّة، ثمّ يردّد عمّي وزوجته من ورائه الكلمات التي تلي ما توقّف عنده.

ابن عمّي: «قطّتي... قطّتي... قطّتي...».

عمّي: «إإي؟ بعدها يا بنيّ؟».

ابن عمّي: «قطّتي... قطّتي...».

زوجة عمّي: «ماذا حدث لك اليوم يا بنيّ؟ رُبِط لسان الولد».

ابن عمّي: «قطّتي... قطّتي... قطّتي...».

عمّي (غاضباً): «كم قطّة تملك ولاه؟».

ضحك الجميع.

زوجة عمّي: «لا تُربك الولد! شوّشت الولد بصراخك!».

ابن عمّي: «قطّتي...».

عمّي: «ما تزال...».

ابن عمّي: «ما تزال ترضع الحليب...».

زوجة عمّي: «وتقول...».

ابن عمّي: «وتقول...».

عمّي: «مياو...».

ابن عمّي: «مياو...».

زوجة عمّي: «ومن جديد.. ماذا تريد.. ماذا تريد..».

عمّي: «قطّتي...».

ابن عمّي: «قطّتي المرقّشة... لا تستطيع بلع الخبز... لا.. لا.. لا..».

عمّي: «ماذا بعدَ لا؟».

ابن عمّي: «لا تستطيع مسك الفأر».

زوجة عمّي: «أحسنت!».

ابن عمّي: «يا لها من شقيّة.. قطّتي المرقّشة...».

نجا ابن عمي، ونحن أيضاً. ولكنّ عمي لم يكن مسروراً؛ فصرخ على ابنه:

- يا حمار!

قالت زوجة عمّي:

- لم يعتد الولد وجود الغرباء.

قالت زوجة المهندس:

- الصغير استحى من كثرة الناس.

وبينما كنّا نصفّق لابن عمّي، مسح دموعه بكُمّه، وخرج من الغرفة.

قالت جارتنا لابنتها الرسّامة الرائعة:

- هل أحضرتِ رسوماتك؟ أرها لأعمامك إن أحضرتها.

رفعت البنت رأسها لفوق:

- هأ...

قالت أمّها:

- إذا وُجِدت بعض الألوان هنا، ترسم الآن.

قال لي أبي:

- أعطِها ألوانك يا بنيّ!

لا أستطيع أن أشرح لكِ درجة انزعاجي. معيبٌ ألّا أعطيها. أعطيتها علبة الألوان التي أحضرها لي أبي في رأس السنة. جلست البنت إلى الطاولة. بدأت ترسم على الورقة التي أمامها. بسبب انزعاجي، ابتعدتُ عنها حتّى لا أرى. بينما كانت إحدى الرائعات ترسم، نادى المهندس

ابنته التي تتحدّث الفرنسيّة بطلاقة. قال المهندس شيئاً بالفرنسيّة، فقالت البنت:

- وي.

قال المهندس شيئاً ما مرّةً أُخرى.

فقالت الفتاة مجدّداً:

- وي.

وكلّما قال أبوها شيئاً، تقول البنت: «وي». في إحدى المرّات، وعندما قالت البنت «وي»، قال أبوها:

- علّقت على «وي» هذه. أما عندك غيرها؟

قالت البنت:

- هل هي نو؟ هل وصلنا إلى درس نو؟

- إنّها نو، يجب أن تقولي نو. الآن حان دور نو.

بعد ذلك بدأت البنت تقول: «نو» على كلّ ما يقوله أبوها. كنت أصبّ كلّ انتباهي على ما يقوله المهندس، وأحاول حفظه في عقلي؛ لأنّني كنت مصرّاً على كتابة هذه الحادثة لكِ، ولكنّني لم أستطع أن أفهم سوى القليل ممّا قالته. وقد سمعت ذلك من زميلٍ لي كان يدرس في الثانويّة.

قال المهندس:

- فيغم لابوغت(*)

وقد قالت البنت على ضوء ذلك: «وي...». ثمّ ذهبت وقبّلت أمّها.

قال أبوها:

(*) تعني أغلق الباب. (م)

- جملة فيغم لا بوغت لا تعني أن تقبّلي أمّك، إنّما ستقبّلينها عندما أقول: بيز لامير(*).

قالت أمّ البنت:

- أنت تُربك البنت.

سألت الفتاة:

- عندما تقول: فيغم لا بوغت ماذا كان عليّ أن أفعل؟

قالت أمّها:

- عليك أن تفتحي النافذة.

قال المهندس مصحّحاً خطأ زوجته:

- أنتِ اسكتي يا روحي. ما قلتِه يعني: (أفرو لا فونيت)(**)؛ أمّا: فيغم لا بوغت فتعني: أغلق الباب.

قالت المرأة:

- ليس كذلك أبداً. هذا ما علّمونا إيّاه في المدرسة.

بدأ المهندس وزوجته بمجادلة حول «أغلق الباب»، و«افتح النافذة».

قالت المرأة في النهاية:

- وهل أنت فقط من درس اللّغة الفرنسيّة؟ أنا أيضاً درست اللّغة الفرنسيّة في المدرسة. اذهب واسأل من تريد. إنّ فيغم لا بوغت تعني: افتح النافذة.

- أنا لم أدرس اللّغة الفرنسيّة في المدرسة فقط، بل عشت في فرنسا أيضاً.

(*) تعني قبّلي أمك. (م)

(**) تعني افتح النافذة. (م)

- يا إلهي، كنّا معاً يا...! حتّى إنّك أردت من بائعةٍ في إحدى المحالّ شراء حمّالة صدرٍ لي، ولكنّك لم تستطع قول ذلك بأيّ شكل، فشرحت لها بالإشارة. وقد فهمت البنت خطأ، وأحضرت لك حقيبة صيدٍ عوضاً عن حمّالة صدرٍ لي.

قطّب المهندس حاجبيه وقال:

- يا امرأة، يا امرأة! أنت تخلطين فرنسا بألمانيا دائماً. ما ذكرتِه حدث في ألمانيا. عندما أتكلّم الفرنسيّة يفتح الفرنسيّون أفواههم من الدهشة.

ولقطع هذه المجادلة بين الزوج وزوجته، سألت جارتنا ابنتها التي ترسم على الطاولة:

- هل رسمتِ يا ابنتي؟

قالت الفتاة:

- رسمت.

أطلقت أمّها صرخة:

- هذا ما كان ينقص... يا إلهي! ما زال الثوب الذي ألبستها إيّاه جديداً، لقد أفسدته.

بعثرت الرسّامة الرائعة الألوان، وتحوّلت إلى مهرج.

نظر المهندس إلى الرسمة وقال:

- ما شاء الله، إنّها جميلةٌ جدّاً يا ابنتي!

كان أبي أكثر من يمتدح الأطفال الرائعين. كان يفعل ذلك حتّى يمتدحوا بدورهم فتوشتنا التي حان الوقت لإبراز مهارتها.

قال أبي:

- ابنتي ستصير راقصة باليه. هيّا يا ابنتي، ارقصي تويست، ولْيرَ الأعمام.

تجمّدت فتوش في الزاوية، ولم تتحرّك.

- هيّا يا ابنتي...!

ولإثارة حماس فتوش، التي كان رأسها محنياً، بدأ أبي برقصة التويست، ثمّ بدأ المهندس وزوجة المهندس برقصة التويست أيضاً. صفّقوا قائلين:

- هيّا، أنتِ أيضاً يا ابنتي...!

عندما دفعت أمّي فتوش المذنبة والمنطوية على نفسها، فهمت لماذا لم تتحرّك نهائيّاً.

صرخت أمّي:

- آآآ! يا الله، عَمِلَتها!

أخذت أمّي فتوش في حضنها وأخرجتها لتنظّفها. قال أبي:

- هي لا تفعل شيئاً كهذا أبداً، ولا أعرف كيف عملتها الآن.

قالت زوجة المهندس:

- إنّها طفلةٌ يا سيّدي. تعملها، كلّ الأطفال يعملونها...

- يبدو أنّها خافت.

وهكذا كان سباق الرائعين الذين عندنا. لو سألتِني لقلتُ بأنّ أختي فتوش تعدّ هي من استحوذ على المركز الأوّل في سباق الرائعين هذا.

ذهب الضيوف. في المساء قلت لأبي:

- قرأت ذات مرّةٍ هذه الفكرة في كتاب، وكتبتها على دفتري، انظر يا أبي هل هي صحيحة؟

بعد أن قلت ذلك قرأت الأسطر التي نقلتها إلى دفتري من الكتاب:

ليس من الطبيعيّ أن يتكلّم الحمار بينما يحمل الإنسان الحمولة، ولكنّ بعض الناس يُعجبون كثيراً بكلام الحمار، مع أنّ الطبيعيّ هو أن يتكلّم الإنسان، بينما يحمل الحمار الحمولة.

قال أبي:

- ماذا يعني هذا؟

قلت له:

- يعني: من الطبيعيّ أن يكون الطفل طفلاً، ولكنْ من غير الطبيعيّ أن يكون عظيماً.

قال:

- لا تهذِ!

إنّ مسابقة الرائعين التي عقدت عندنا لم تقلّ متعةً عن اجتماع مجلس أولياء الأمور عندكم.

أنتظر أخباركِ، وأرجو لكِ أيّاماً جيّدة.

أحمد طاراباي

يا روحي، يا حلوتي!

أنقرة، 3 شباط / فبراير 1964

أحمد:

أشكركَ جدّاً على رسالتكَ التي أرسلتها بتاريخ 30 كانون الثاني / يناير. وصلت رسالتك يوم دخول المدارس في عطلة شباط / فبراير. بينما كنت أقرأها ضحكت حتّى دمعت عيناي.

كان من في البيت يعتنون بأختي الكبيرة على أساس أنّها طفلةٌ رائعةٌ، ولكنّهم عندما أدركوا أنّ الروعة بعيدةٌ كلّ البعد عنها لم يبقَ عندهم أملٌ في أن يظهر طفلٌ رائعٌ في عائلتنا. لسببٍ ما لم يكن لديهم أملٌ حتّى بي، أو بمتين.

أتذكّر الأيّام التي ظنّوا فيها أنّ أختي الكبيرة طفلةٌ رائعة! في تلك الأيّام لم أكن أرتاد المدرسة بعد. عندما يعود أبي من العمل في المساء، كان يحاول تعليمها الفرنسيّة، ولم تستطع هي أن تحفظ مقطعاً من الأشعار الفرنسيّة خلال أسابيع. ولأنّني كنت أجلس معهم، وأستمع إليهم دائماً، فقد حفظت تلك القصيدة على الفور.

مرّت سنواتٌ كثيرةٌ، وما زالت تلك القصيدة في بالي:

الراعي وكلبه (لو بيرجير إي سون شيان)
أحبّ كلبي الحارس الجيّد (جيم مون شيان آن بون غارديان)
يأكل قليلاً ويعمل بكدّ (كي مونش بو، ترافاي بييان)

بالنسبة إلى أختي لا أعرف؛ أمّا أنا، فقد علقت في عقلي لكثرة ما سمعتها. كرّر أبي تلك القصيدة الفرنسيّة كثيراً لتحفظها أختي، إلى درجة أنّني لست فقط من حفظها، بلْ حتّى أمّي والخادمة قد حفظتاها. كانت أختي تقرأ هذه القصيدة بصوتٍ مبهمٍ، كأنّها تختلق كلماتٍ صينيّة. كانت تقول أشياء مثل: «شيان مين بيان مون تيان».

في أحد الأيّام، قال واحدٌ من أصدقاء أبي، وهو مُربٍّ قد درس في أوروبا:

- لتعلّم اللّغة الأجنبيّة قدرةٌ مغايرة. لا تجبر الطفل لمجرّد أن يتعلّم الفرنسيّة. عندما كنت في باريس رأيت أناساً كثيرين كانوا مقيمين فيها لسنوات، ولكنّهم لم يكونوا يتكلّمون الفرنسيّة. وهؤلاء الناس علّموا اللّغة التركيّة للنُدل العاملين في المقاهي التي كانوا يجلسون فيها كلّ يومٍ من الصباح حتّى المساء. بعض الناس ليس لديهم القدرة على تعلّم لغةٍ أجنبيّة، إنّما لديهم القدرة على تعليم لغتهم للأجانب. ربّما ابنتك هكذا. لكلّ طفلٍ قدرته، وهذه القدرة بذرةٌ مخفيّةٌ في روحه. يجب أن تُكتشف هذه البذرة، وتُنبَت حتّى تظهر قدرة الطفل.

وبناءً على كلمات صديق أبي هذه، قام أبي بجعل أختي تأخذ دروساً في الكمان حتّى تنمو بذرة قدرتها، ولكنّ بذرة قدرة أختي الكبيرة لم تنبت حتّى بتأثير صوت الكمان.

قالت الفتاة التي تعطيها درس الكمان:

- ما شاء الله، لهذه الطفلة صوت خرّب أذني. منذ أن بدأتُ بإعطائها الدروس لم أعد أستطيع التمييز بين صوت المفتاح «دو» وصوت المفتاح «سي»، وبين صرير الباب وصوت الكمان.

وفي الحقيقة، إنّ أختي هكذا. عندما يُقرع الباب تركض لفتحه حتّى لو كانت ستكسر الكؤوس في المطبخ.

عندما كانت أختي في المدرسة الابتدائيّة، قال لها معلّمها:

- فلْيحفظكِ الله يا ابنتي، عندما ينشد زملاؤك الأنشودة، اسكتي أنتِ. فإنّك تشوّشينهم.

ثمّ جعلوها ترسم، ولم تنجح تلك المحاولة أيضاً. أرسلوها إلى دروس الباليه. كان لدرس الباليه فائدة كبيرة جدّاً لأختي؛ لأنّها كانت تصطدم بهذا وذاك في أثناء تجوّلها في المنزل، وتوقع بعض الأشياء على الأرض. كانت تصطدم بالطاولات والكراسي، كأنّها تحمل حقيبةً في يدها ورجلها؛ أمّا بعد دروس الباليه، فقد قلّ اصطدامها بالأشياء مقارنةً بالسابق.

اجتهد أبي وأمّي كثيراً جدّاً لإنبات تلك البذرة المخفيّة في روح أختي حتّى تعبا في النهاية وقالا:

- لتتفجّر مواهبها لاحقاً. لندعها تدرس في المدرسة الآن.

كانت أختي الكبيرة تجتاز بانتظامٍ كلّ صفٍّ خلال سنتين، ولكنّها في الصفّ الثاني الثانويّ خرّبت هذا النظام، فبسبب رسوبها مرّتين متتاليتين في الصف، حصلت على شهادة، وتركت المدرسة. عندها قالت أمّي:

- هذا يعني أنّ البنت قادرةٌ على أن تكون ربّة منزل.

لأنّها حاولت في كلّ شيء، وما بقي إلّا أن تكون ربّة منزل. ولكنّ هذه

المحاولة لم تستمرّ طويلاً؛ منعت أمّي دخولَ أختي المطبخ نهائيّاً؛ لأنّه إذا دخلت أختي المطبخ مدّة خمس دقائق فقط، ووقفت بدون أن تلمس أيّ شيء، فلن يتمكّن أحدٌ من العثور على ما يبحث عنه في المطبخ بعد ذلك: تختفي الطناجر الكبيرة، ثمّ تظهر بعد أيّامٍ في أماكن يستحيل توقّعها. أخذوا أختي إلى طبيب مختصّ، فقال:

- لقد أهلكتم الطفلة، وأنتم تحاولون إيجاد القدرة الخفيّة في روحها. حرام، اتركوا الطفلة وشأنها!

وبعد ذلك تركوا أختي وشأنها، فعادت إلى رشدها.

ولكنّ ما حدث قد حدث لي ولمتين. بسبب تعب أبي وأمّي واستيائهما، وهما يحاولان إيجاد قدرة أختي الخفيّة، لم تبقَ لديهما أيّة طاقةٍ للاهتمام بنا، مع أنّهما لو صرفا كلّ ذلك الجهد على متين فقط، وليس عليّ، لنمت قدراتُه حقّاً؛ لأنّ متين يهتمّ كثيراً بالآلات، فهو -بسبب هذا الاهتمام- قد خرّب الآلات التي في البيت من مذياعٍ، وغسّالةٍ، وآلة حلاقة أبي، وطنجرة الضغط، والفونوغراف، وآلة تسجيل الصوت، وآلة التصوير، وآلة الخياطة، والساعات، ومدفأة الغاز. كان مهتمّاً جدّاً بإزالة رقّاص ساعة الجدار وتركيبه في طنجرة الضغط، وإخراج البراغي من ماكينة الخياطة وتركيبها في المذياع. كان أبي يسمّي هذه القدرة «عجزاً». مع أنّ محاولات متين هذه كانت بهدف اختراع ماكينة.

لأحد جيراننا؛ زملاء أبي في الصفّ، طفلةٌ رائعةٌ اسمها نورتان. لم يكن هناك أيّ شكٍّ بأنّ هذه الطفلة رائعة؛ لأنّ نورتان تأكل أكثر ممّا يأكله أفراد أسرتنا جميعهم في وجبةٍ واحدةٍ، ثمّ تقول أمّها: «تلاشت شهيّة الصغيرة من جديد هذه الأيّام...». فتعطيها شراباً، وفيتامينات، وزيت سمك؛ لكي

تنفتح شهيّتها. إنّها فتاةٌ منفوخةٌ، تمشي بصعوبةٍ لشدّة بدانتها. ساقاها ضخمتان ومرتخيتان. أبوها مثل فطيرة مقليّة، دبّت الروح فيها وصارت تمشي.

عندما يخرج أبو نورتان وأمّها إلى مكانٍ ما في اللّيل يتركانها عندنا، وفي حال ذهاب عائلتنا إلى السينما، لا يريدون ترك متين وحْده ليلاً في البيت؛ لأنّ متين إمّا أن يعبث بالمذياع، وإمّا أن يخرّب الثلّاجة السليمة أساساً في محاولةٍ منه لإصلاحها. لم أستطع أنا أيضاً أن أمنع اهتمام متين بالآلات. أصرَّ على أنّه يريد أن يركّب ساعة على طنجرة الضغط ليعرف كم يستغرق طهو الطعام من وقت. لم أستطع مجاراته. ولهذا السبب، عندما يذهب أبي وأمّي وأختي الكبيرة إلى السينما يتركوننا أنا ومتين في بيت نورتان.

ليلاً، في أحد الأيّام الفائتة، كنّا في بيتهم. جلسنا نحن الأطفال في غرفة. كنت أقرأ قصّةً من كتابٍ لمتين ونورتان.

خرجت نورتان لتشرب ماء، وعندما عادت قالت:

- يا أولاد، يا أولاد، أمّي وأبي يتشاجران. هيّا تعالا لنتفرّج!

- وكيف عرفتِ أنّهما يتشاجران؟

- خرجت لأشرب الماء، ومررت بالصالون. عندما رأتني أمّي قالت لأبي: «يا روحي، يا حلوي». كما بدأ أبي يقول لأمّي: «يا روحي، يا حبيبتي الوحيدة». كلّما تشاجرا ومررت من جانبهما فجأةً، يبدآن بتبادل كلمات مثل: «يا روحي، يا قلبي» حتّى لا تُفسد أخلاقي، مع أنّهما عندما لا يتشاجران يناديان بعضهما باسميهما. هيّا تعالا لنتفرّج!

قلت لها:

- لنذهب إلى البيت نحن؛ إنّهم على وشك العودة من السينما...

عندما ذهبنا إلى الصالون لنخبرهما بذهابنا، واجهنا موقفاً مضحكاً. لو عرفت أنّنا سنواجه شيئاً كهذا لما مررت بجانبهما نهائيّاً، ولكنّني دخلت ولم أعد أستطيع العودة. ثمّة مزهريّة مكسورة على الأرض. شَعْرُ أمّ نورتان مبعثرٌ، ووجه أبيها مخدّش.

قال أبوها:

- يا حبيبتي، أخفي المزهريّة.

وعندها سألت أمّها:

- هل أتت نورتان؟

وأدارت رأسها فرأتنا، ثمّ قالت لابنتها:

- كم مرّة قلت لكِ ألّا تدخلي قبل أن تقرعي الباب؟

ثمّ سألت زوجها:

- هل أصنع لكَ القهوة يا حلوي؟

قال الرجُل:

- نعم يا حبيبتي الوحيدة، نعم يا حلوتي.. السكّر وسط يا حياتي.

كانت «شحاطة» المرأة على الأريكة بجانب زوجها.

قالت نورتان:

- ستذهب زينب وأخيها يا أمّي.

قال أبو نورتان، وهو يمسك رأسه متشنّجاً بسبب الألم:

- لم أستوعب كيف انزلقت قدمي..

أتينا إلى بيتنا. استلقى متين ونام؛ أمّا أنا، وفي أثناء كتابتي هذه الرسالة إليك، سمعت سعال أبي؛ لقد عادوا من السينما.

إلى اللّقاء مجدّداً.. وداعاً يا أحمد..

زينب يالكر

أمام الضيف

إسطنبول، 10 شباط / فبراير 1964

صديقتي العزيزة زينب:

عندما قرأتُ رسالتكِ التي حكيتِ فيها عمّا حدث معكم في بيت جيرانكم، سُعدت لأنّنا نعيش في بيتٍ صغيرٍ مؤلّفٍ من ثلاث غرف؛ لأنّه بسبب صِغر منزلنا نسمع ونرى ما يحدث داخله، ولهذا فإنّ ما حدث مع جيرانكم من فكاهات لا يمكن حدوثها عندنا. مع هذا، فلا يخلو الأمر من حدوث بعض الأحداث المزعجة في بيتنا أحياناً، فمثلاً: الأحد الماضي كان يوماً مزعجاً.

أخبرنا أبي بأنّ صاحب المصنع الذي يعمل فيه سيأتي إلى بيتنا يوم الأحد لتناول طعام الغداء. لم أستطع أن أستوعب ذلك؛ لأنّ أبي كان يكره مديره كثيراً. فهو يحتقره كلّما سنحت له الفرصة. يحمرّ وجهه كثيراً كلّما حكى عن مديره، فهو يحكي أشياء سيّئة جدّاً عنه.

قلت لأمّي:

- كأنّ لهذا الرجُل عملاً في بيتنا.

قالت أمّي:

- ما هذا الحكي؟ إنّه مديرٌ له وزنه.

- ولكنّ أبي لا يحبّه نهائيّاً.

- أمّا هو فيحبّ أباك.

- لماذا؟

- ألم يصبح أبوك رئيس النقابة في المصنع!

كنت أعرف أنّه قد اختيرَ أبي رئيساً للنقابة قبل شهر؛ هذا يعني أنّ المدير قادمٌ إلينا لهذا السبب.

تملّكني الفضول؛ لأنّني لم أرَ هذا المدير الذي يحكي عنه أبي بالسوء قطّ. لا بدّ من أن يكون مخلوقاً عملاقاً ومتوحّشاً.

بدأت تحضيرات استثنائيّة في بيتنا بسبب قدوم المدير. في إحدى المساءات، وعندما عاد أبي من عمله، كان يدهن جدران غرفة الجلوس من جهة، ويلوم مديره باستمرار من جهةٍ أُخرى. سألته:

- لماذا تدهن الجدران بحجّة قدوم المدير يا أبي؟

قال أبي:

- المدير؟

وبعد أن غطّس فرشاة الدهان بعنايةٍ في التنكة أضاف:

- كأنّني أدهن لأنّه سيأتي! لقد اتّسخت الجدران، ألا ترى؟

استعارت أمّي من الجيران كؤوساً، وصحوناً، وغطاء طاولةٍ، وأشياء أُخرى.

قبل يومٍ من مجيئه دخلت المطبخ، وبدأت بتحضير طعام الضيافة.

في يوم الأحد ذلك، استيقظ أبي باكراً جدّاً، مع أنّه أيّام الأحد يتأخّر كثيراً في الاستيقاظ. قلت:

- هل سيأتي الضيف باكراً هكذا؟

قال:

- وهل تحسب أنّني استيقظت باكراً من أجله يا روحي؟

بعدما تناولنا طعام الفطور، جلس أمام النافذة بانتظار المدير. في بعض الأحيان كان يتجوّل في البيت بسبب انزعاجه، ويصرخ:

- أين صار هذا الرجُل؟

جهّزت أمّي مائدة الطعام. تدخلُ المطبخ مرّةً، والغرفة مرّةً أُخرى، تتأكّد من عدم نقصان أيّ شيء.

بينما كان أبي يتجوّل في الغرفة ويلوم المدير، ضُرب بوق سيّارةٍ أمام بيتنا، فصرخ علينا، وقد لفّه الارتباك:

- اركضوا! أظنّه أتى. افتحوا الباب، هيّا! ماذا تنتظرون؟

وهو بدوره مطّ نفسه حتّى خصره منحنياً، ونظر من النافذة التي تُطّل على الطريق.

كانت أمّي، التي انتقل إليها ارتباك أبي، قد فتحت باب البيت بالفعل، ولكن ما من أحدٍ في الخارج.

ظلّت أمّي على مدى يومين تعطي فتوش دروساً حول كيفيّة التصرّف أمام الضيف. كانت تعطيها هذه الدروس عندما أكون موجوداً لكي أسمع أنا أيضاً. أجلستْ فتوش التي ارتدت ملابسها الجديدة أمامها، وفي أثناء تكرارها كلماتها المعتادة لها، كانت تنظر إليّ بطرف عينها لترى إن كنت أستمع إليها.

- انتبهي يا ابنتي، انتبهي يا حلوتي، احذري من أن تقلّلي أدبكِ أمام الضيف، تمام؟ لا يجوز إدخال اليد في الفم أمام الضيف. لا يمكن التقاط أيّ شيءٍ يقع على الأرض وأكله أمام الضيف. إيّاكِ أن تنسي هذا. ستغلقين فمكِ بيدكِ عندما تسعلين أمام الضيف. إيّاكِ أن تقطعي الخبز بفمكِ أمام الضيف، معيبٌ جدّاً. تقطعين قطعة الخبز بيدك. تمام يا روحي؟ لا يُقال: «هاا» أمام الضيف. معيبٌ جدّاً. إذا ناداكِ أحدٌ ما إيّاكِ أن تقولي: «هاا؟».

سألت فتوش:

- إذنْ، ماذا سأقول أمام الضيف؟

- أمام الضيف لا يُقال: «هاا»، بل يُقال: «نعم».

كانت تنظر إليّ أحياناً لترى إن كنت أسمع وأنتبه، ولكنّها لم تعد تكتفي بذلك واستدارت إليّ قائلة:

- يا بنيّ، أمام الضيف ابدأ كلّ كلامك بـ«يا سيّدي»، وأنهه بـ«يا سيّدي» أيضاً.

أبي، الذي كان يراقب طريق مديره من النافذة، لم يترك كلمةً لم يلم بها مديره. وفجأةً! صرخ أبي، وهو يركض نحو الباب:

- لقد أتى!

ذهبت أنا إلى النافذة، ونظرت إلى الخارج. كانت تقف أمام بابنا سيّارةٌ حمراء فاخرة.

كنت أسمع صوت أبي الهادر:

- شرّفتم يا سيّدي.. كنّا في انتظاركم. تفضّلوا، تفضّلوا يا سيّدي. أهلاً وسهلاً، حلّت البركة..

ذهبت إليهم. ساعد أبي مديره في خلع معطفه، ثمّ علّق معطفه وقبّعته على مشجب الثياب.

لم يكن كما ظننته قطّ، ليس عملاقاً، أو متوحّشاً. رجُلٌ صغيرٌ ومضحك. لم أدرك لماذا يغضب أبي كلّ هذا الغضب من رجُلٍ كهذا، ثمّ يستقبل هذا الرجُل الذي يغضب منه كلّ هذا الغضب بتلك الحفاوة!

قبّلت فتوش يد المدير؛ أمّا أنا، فصافحته. قال أبي:

- قبّل يد السيّد عمّك يا بنيّ.

فاضطررت إلى تقبيلها. بدأ بالحديث إلى أبي.

بعد ذلك قالت أمّي:

- تفضّلوا إلى الطعام يا سيّدي.

قال المدير:

- عذّبتم أنفسكم، لا أستطيع البقاء لأجل تناول الطعام.

انظري إلى قلّة الأدب هذه: أمّي منذ يومين، وهي تتعذّب لاستقبال المدير، وهو لن يجلس إلى مائدة الطعام الآن. لكنّ أبي أصرّ عليه، وأمسكه من يده ومعصمه، وأجلسه إلى الطاولة. انتقل ارتباك أبي وأمّي إليّ أيضاً.

قال أبي:

- املأ الكؤوس ماء.

وبهذا الارتباك، وبينما كنت أملأ كأس المدير من الإبريق، طفح الماء من الكأس.

قال أبي:

- صرت ولداً كبيراً، ولا تستطيع ملْءَ الماء!

ثمّ أراد أن يمسح الماء عن الطاولة بالمنديل، ولكنّه بينما كان يسحب المنديل قلب صحنَ السَّلطة.

قالت أمّي:

- آآ، عفوكم، هل انسكبت عليكم؟

وفي أثناء ذلك سكبت فتوش الشوربة التي في طبقها كعادتها.

وبّخت أمّي فتوش، فبدأت فتوش بالبكاء، وقالت:

- أنتِ ضربتها بذراعكِ يا أمّي.

قال أبي الغاضب:

- قلت لكِ أن تطعمي الأولاد على حِدة.

همست أمّي لفتوش، ولكنّنا سمعنا كلّنا:

- اسكتي، لا يجوز البكاء أمام الضيف.

سكتت فتوش؛ لأنّه لا يجوز البكاء أمام الضيف، ثمّ تنهّدت لمدّةٍ من الوقت.

كانت أمّي تضع اللّحم في صحن الضيف. وللتسهيل على أمّي مدّ الضيف صحنه إليها، ولكنّه كان ملتفتاً نحو أبي. وفي اللّحظة التي كانت أمّي تفرغ فيها المغرفة الثانية في صحن الضيف، الذي كان ملتفتاً نحو أبي، سحب صحنه فجأةً! فسكبت أمّي اللّحم الذي في المغرفة في صحن الحلوى. قالت أمّي:

- آآآ، ماذا فعلتُ!

كانت الطاولة في حالةٍ من الفوضى بسبب ارتباكنا جميعاً.

كان أبي يرشّ على طعامه الفلفل عوضاً عن الملح. عندما انتبه إلى ذلك صرخ:

- في أيّ جهنّم توجد المملحة؟

مدّت أمّي صحن الخردل لأبي عوضاً عن المملحة. ولكنّني تصرّفت قبلها وأعطيت المملحة لأبي. رشّ أبي الملح على نحوٍ سريعٍ، ما تسبّب بوقوع غطاء المملحة، فانسكب كلّ الملح على الطعام.

أمّي، التي ارتبكت تماماً، لم تعرف ماذا تقول. وبهذا الارتباك سألت أمّي الضيف سؤالاً ليس وقته نهائيّاً:

- كيف حالكم يا سيّدي؟

سأل المدير الذي لم يدرك ذلك:

- عفواً؟

قالت أمّي:

- كيف كان الطعام، هل أعجبكم يا سيّدي؟

قال المدير:

- سلمت يداكم، إنّه لذيذٌ جدّاً.

في هذه الأثناء قالت فتوش:

- أمّي، علق الأكل في حلقي!

كانت أمّي تضرب ظهر فتوش بإحدى يديها وتسقيها الماء بيدها الأُخرى.

أخبرنا أبي قبل ذلك أنّه يجب علينا أن نمسك السكّين بيدنا اليمنى، والشوكة بيدنا اليسرى. حاولت كثيراً، ولكنّني لم أفلح. لم أستطع إيجاد مكان فمي بالشوكة التي بيدي اليسرى بأيّة وسيلة. تراجعت عن ذلك، وتناولت الشوكة بيدي اليمنى كالعادة. بينما كان أبي يحاول تقطيع قطعة

اللّحم التي في صحنه بالسكّين الذي بيده اليمنى، والشوكة التي بيده اليسرى، طار عظم اللّحم من الصحن، واستقرّ فوق البرتقال.

ومع هذا، كنت أقلّ شخصٍ ارتكب أخطاء. عندما نهضنا عن المائدة تنهّدت؛ لأنّنا تجاوزنا هذه المحنة.

بينما كان الضيف يشرب قهوة بعد الطعام سألني:

- في أيّ صفٍّ أنت يا ولدي؟

قلت:

- يا سيّدي، أنا في الصفّ الخامس يا سيّدي.

نظرت إلى وجه أبي وأمّي لأرى ما إذا كانت إجابتي الممتلئة بـ«يا سيّدي» هذه قد أعجبتهما. كانا كلاهما يضحكان.

- كم عمرك؟

- يا سيّدي، إحدى عشرة يا سيّدي.

- ماذا ستصير عندما تكبر؟

- سيّدي، كاتباً يا سيّدي.

- أحسنت!

سكتُّ. كانت أمّي تمطّ شفتيها محاولةً قولَ شيءٍ ما لي. فهمت أنّها تهمس لي بأن أشكره. في تلك الأثناء كان المدير يتحدّث إلى أبي. قلت له:

- سيّدي، أشكركم يا سيّدي.

ولأنّ الضيف لم يفهم معنى هذا الشكر المتأخّر، توقّف قليلاً، ثمّ قال:

- لا داعي.

كتبت إليكِ في إحدى رسائلي القديمة كم هي طفلة رائعة أختي! في ذلك اليوم أيضاً أظهرت فتوش روعتها. بينما كانت أمّي تنظّف المائدة وقعت موزةٌ على الأرض.

قالت فتوش التي التقطت الموزة عن الأرض، ووضعتها على الطاولة:

- لا يمكن أكل ما وقع على الأرض أمام الضيف، أليس كذلك يا أمي؟ آكلها بعد ذهاب الضيف.

سعل أبي سعلات متكرّرة، إمّا لكيلا تُسمع كلمات فتوش، وإمّا لتفهم الخطأ الذي ارتكبته.

قالت فتوش على الفور:

- أمام الضيف، لا يجب السعال بدون إغلاق الفم باليد يا أبي!

سأل أبي، وهو يحاول تلطيف الجوّ:

- ها؟ ماذا قلت يا فتوش؟

قالت فتوش:

- لا تُقال: «ها» أمام الضيف يا أبي!

بعد قليلٍ نهض الضيف للانصراف. رافقه أبي وأمّي حتّى الباب، وأركباه في سيّارته، وبعد أن ذهبت السيّارة دخلا، وبمجرّد دخولهما قال أبي:

- تفوه، فضحتمونا!

قالت أمّي:

- هل قلت لكم أن تتصرّفوا هكذا؟

قالت فتوش:

- لم أقطّع الخبز بفمي يا أمّي.

استمرّ هذا الامتعاض طوال اليوم.

أرسل إليكِ يا زينب صورةً مع هذه الرسالة. إنّها صورةٌ التقطتها مع زملاء صفّنا. سترين في الصورة المعلّم الجديد الذي أتى بعد ذهابك من هنا.

أرجو لكِ أيّاماً سعيدةً، وحظّاً جيّداً.

أحمد طاراباي

شيء معيب!

أنقرة، 16 شباط / فبراير 1964

صديقي العزيز أحمد:

لا أستطيع وصف مدى سعادتي لإرسالكَ الصورة. تقريباً، كلّ زملائي القدامى موجودون في الصورة. لا بدّ من أنّ ميني هي التي تقف بجانبك، ولكنّ صورتها ليست واضحةً تماماً. حسين يغطّيها بقدْرٍ كبير. ويبدو أنّ يشار صعد على ظهر جنكيز، ونيشه أتت إلى المقدّمة كعادتها. لو تعرف كم سُعدت لإرسالك هذه الصورة! ولكنّني لم أستطع تمييز دمير، يبدو أنّه ليس موجوداً. كأنّ معلّمكم مسنّ؟

أرسل إليك أيضاً صورةً التقطناها مسبقاً لي ولأخي. التقطها لنا واحدٌ من أولاد الجيران.

لو تعرف ماذا حصل لي هذا الأسبوع! صار اسمي «الغشّاشة»، من حيث لا أدري، ولكنْ ليس من حيث لا أدري تماماً.

أكثر ما يُغضب معلّمنا هو الغشّ. يحكي لنا عن مساوئ الغشّ

باستمرار: «الغشّ هو سرقة حقّ زميلكم المجتهد»، «الغشّ ليس عملاً ذكيّاً، بل خبيثاً».

كان لأبي الرأي نفسه في هذا الصدد؛ هو أيضاً يقول: «الغشّ أمرٌ مخزٍ، وسيّئٌ جدّاً، بهذا الفعل فإنّ الإنسان يخدع نفسه وليس الآخرين».

عندما يجتمع أبي مع جيراننا؛ زملائه الثلاثة في الصفّ، يستذكرون لحظات حياتهم الدراسيّة دائماً. في إحدى اللّيالي التي كان جدّي فيها عندنا، جاء زملاء أبي أيضاً. فتحوا سيرة حياتهم الدراسيّة مجدّداً.

قال أبو الفتاة نورتان السمين:

- هل تتذكّرون عندما علّقنا «راشيتة الغشّ» في الامتحان على ظهر أستاذ الرياضيّات، صبري بيك الأقرع؟

قالت أمّ نورتان:

- كيف حدث، احكِ لنا!

- رحمه الله، صبري بيك الذي نلقّبه بالأصلع، كان أستاذنا لمادّة الرياضيّات في الثانويّة. كان يفتخر بعدم سماحه للطلّاب بالغشّ، ويقول متحدّياً: «فلْيغشّ من يثق بنفسه لأرى!». بمجرّد كتابة الأسئلة على ورقة الامتحان يبدأ بالقفز هنا وهناك. قام أحد الأصدقاء..

قال أبي:

- نجدت الزنجي، أليس كذلك؟

- نعم، نجدت الزنجي، هو سفيرٌ الآن. علّق ورقةً كُتبَ فيها حلّ الأسئلة على ظهر سترة صبري. كان الطلّاب ينظرون إلى الورقة المعلّقة على ظهر صبري بيك، وقد كُتب فيها حلُّ الأسئلة، فيكتبون. ولكنْ لأنّ صبري بيك لا يقف في مكانٍ واحدٍ، وينطّ باستمرارٍ من مكانٍ إلى مكان، فكان من

الصعب النظر إلى «راشيتة الغشّ» وكتابة الجواب كاملاً. كان أحد الطلّاب يسأل الأستاذ سؤالاً، وبذلك يستوقفه بالكلام، فيغشّ الطالب الآخر؛ أمّا أنا، فلم أستطع أن أغشّ بأيّة طريقة. تظاهرت بأنّني أغشّ، وأثرتُ شكّ صبري بيك. وحتّى لا أغشّ أتى، ووقف أمامي، وأسند ظهره إلى مقعدي. أأوه، نظرت، ونظرت، وكتبت.

الذين كتبوا الإجابات خرجوا من الصف؛ أمّا آخر مَن بقي، فقد سلّم أوراقه مع رنين جرس الفرصة، ثمّ خرج. وفي ذلك الوقت تماماً عاد رشدنا إلينا. نسينا أن ننزع الراشيتة عن ظهر صبري بيك. دخل صبري بيك، الذي جمع أوراق الامتحان، إلى غرفة الأساتذة، والراشيتة المعلّقة على ظهره تلوح.

لم يُعرف من فعل هذه الفعلة. الأستاذ صبري بيك إنسانٌ متسامح. سامحهم كلّهم لكثرة توسّلهم، وعمل امتحاناً جديداً.

قال زميلٌ آخر لأبي:

- يا للمقلب الذي رتّبناه لعثمان الجزّار!

عثمان الجزّار، هذا الذي يحكون عمّا فعلوه به، هو مدرّس التاريخ. كان هذا المدرّس يجلس على الكرسيّ دائماً، ولكنّ عينيه تبقيان على الطلّاب كالـ «بروجيكتور». في ذلك الامتحان لم يحصل أيٌّ من الجالسين في المقعد الأوّل على علاماتٍ جيّدةٍ؛ أمّا الطلّاب الآخرون، فقد حصلوا جميعهم على علاماتٍ جيّدة؛ لأنّ كلّ طالبٍ أسند كتاب التاريخ إلى ظهر الطالب الذي يجلس أمامه، وغشّ أمام عيني المدرّس.

قال أبي الذي لم يستطع أن يكون أقلّ من زملائه:

- هل تذكرون ما حدث في امتحان الأستاذ «نافذ المصفّر»؟

- هل تقصد «راشيتة» الحشرات؟ ومن ذا الذي لا يتذكّرها؟

مدرّس الكيمياء نافذ هذا الذي يتحدّثون عنه، تصعب على عينيه الرؤية لأبعد من متر، وهو يعطي الطلّاب علاماتٍ قليلةً جدّاً. قبل الدخول إلى الامتحان، قام أحد الطلّاب بإمساك خمس حشرات كبيرة، أو عشْر، ووضعها في علبة ثقاب. بدأ الامتحان. كتبوا أجوبة الأسئلة على أوراقٍ صغيرةٍ جدّاً، وعلّقوها بأرجُل الحشرات عن طريق خيطٍ رفيعٍ، ثمّ أطلقوا الحشرات. وبسبب الثقل في أرجُل الحشرات، لم تكن تستطيع الطيران جيّداً: تطير من مكانٍ، ثمّ تهبط حالاً في مكانٍ آخر. وبهذا الشكل استطاع الجميع أن يغشّوا؛ لأنّه كان من السهل الإمساك بالحشرة التي لها ثقل في أرجُلها. بعد أن يغشّ أحدهم من الورقة، يُطلق الحشرة. عندما فُتح الباب فجأةً! ودخل المدير، وبعد أن طارت إحدى الحشرات أمام عيني المدير ذهاباً وإياباً، وقفت على رأسه الأصلع.

سأل متين:

- ماذا فعلوا لكم يا أبي؟

قال أبي:

- كانوا على وشك طرد أحد زملائنا من المدرسة، ولكنّه نجا بصعوبة.

قال أبو نورتان:

- زملينا هذا الآن بروفسور.

قال أحد زملاء أبي سائلاً جدّي:

- هل غششتم أنتم أيضاً في المدرسة يا سيّدي؟

قال جدّي:

- وأيّ طالب لم يغشّ في حياته الدراسيّة؟

وبدأ يحكي: كانوا يدخلون امتحان الكيمياء كلّ ثلاثة طلّابٍ مع بعض. دخل جدّي غرفة الامتحان مع زميلين له، وكان هو آخرَهم. الصديق الذي كان قبله هو أكثر طلّاب الصفّ كسلاً. عند أيّ سؤالٍ يسأله المدرّس يحني رأسه بدون إصدار أيّ صوت.

غضب مدرّس الكيمياء، ثمّ قال: «ألا تعرف شيئاً يا بنيّ؟». ولكي يسأله سؤالاً سهلاً أشار إلى الإبريق الذي على الطاولة، وسأله: «ماذا يوجد في داخله؟». عندما سكت مجدّداً كأنّه أخرس، قال له الطالب الذي خلفه هامساً: «قل شيئاً، ما به لسانك ارتبط بِغُلّ؟». سأل المدرّس مجدّداً: «ماذا يوجد داخل الإبريق يا بنيّ؟». قال الطالب: «يوجد بَغلٌ يا أستاذي».

كنت أشعر بالفضول حيال ما رووه في تلك اللّيلة؛ ولذلك في اليوم التالي بعد أن لعبنا كرة الطائرة مع معلّمنا في حديقة المدرسة، جلسنا على العشب معاً، وفي أثناء جلوسنا استغللت الفرصة، وسألت المعلّم:

- هل غششتم في حياتكم يا أستاذي؟

وفجأةً! كأنّه وجد متّسعاً من الوقت ليحكي، قال:

- غششت...

ثمّ أضاف:

- ولكنّ كلّ صفّي كان قد غشّ. كان أحد زملائنا المجتهدين قد حلّ أسئلة الامتحان بسرعة، وكتب الأجوبة على كرتونةٍ كبيرةٍ، ثمّ علّقها على عصا طويلة، ومدّها من نافذة الحديقة، فصرنا ننظر إلى النافذة ونكتب الأجوبة.

في اليوم التالي، كان معلّمنا يأخذ التفقّد في درس العلوم الأُسريّة. يجلس في المقعد، على يميني توركان، وعلى يساري مراد. حكيت لكَ

عن مراد هذا في واحدة من رسائلي. مراد هذا الذي عندما يستوقفه المعلّم قائلاً: «انهض يا مراد!». فيقول مراد: «أنا؟»، «هل تقصدني أنا؟». مراد الآن في صفّنا، رسب في السنة الفائتة، وصار أصدقاؤه في المدرسة الإعداديّة. ليس كسولاً، ولكنّ الدرس لا يدخل في رأسه، إلّا أنّه طفلٌ جيّد.

في ذلك الدرس، لم يكن توركان دارساً لسببٍ ما. توسّلوا إليّ لكي أساعدهما في الغشّ. قلت:

- لا أكتب لأحدٍ يا أولاد، ولكنْ من الممكن أن أهمس.

أملى علينا المعلّم الأسئلة:

- ماذا علينا أن نفعل حتّى نحمي الطفل من المرض؟

- ماذا علينا أن نفعل حتّى نحمي الأطفال من الأمراض الرئيسة؟

- اشرحوا فوائد اللّعب والألعاب.

- هل يربّي الضربُ الإنسان؟

ولأنّني درست هذه الأقسام في المساء الماضي، وفي هذا الصباح أيضاً، عرفت في أيّة صفحةٍ كانت موجودة. كان كتاب العلوم الأسريّة موجوداً أمام توركان. قلت لتوركان ومراد هامساً:

- افتحوا الكتاب على الصفحات: خمسين، والواحدة والخمسين، والثانية والخمسين.

وبدأت أنا بكتابة الأجوبة.

قال مراد الموجود على يساري:

- أنت تخدعينني!

همست له:

- لماذا؟

- في الصفحة خمسين يوجد عظم الورك.

- افتح الصفحات التالية!

- فتحت. يوجد العضلات، بعدها النتوءات العظميّة..

فجأةً! وقع نظري على الكتاب الذي يخفيه تحت المقعد. كان بيده كتاب العلوم الطبيعيّة عوضاً عن العلوم الأسريّة.

همست له:

- ليس هذا الكتاب، افتح كتاب العلوم الأسريّة!

فتح مراد كتاب العلوم الأسريّة، وبدأ يكتب بسرعةٍ كالبرق، وهو ينظر إلى الكتاب. سلّم كلٌّ من توركان ومراد ورقتيهما قبلي وخرجا، ثمّ خرجت بعدهما.

وفي الخارج، قال لي مراد:

- لم تكن الصفحة خمسون موجودةً في كتابي.

قلت له:

- كيف؟ لا يمكن. إنّها موجودةٌ بالتأكيد.

قال: والله غير موجودة! بعد الصفحةِ الثامنةِ والأربعين مباشرةً تأتي الصفحةُ الخامسةُ والستّون.

ذهب وأحضر كتابه. نظرت فلحظت في الكتاب عدم وجود أسئلة الوحدة الرابعة التي سأل منها المعلّم. وفي المقابل، فإنّ أسئلة هذه الوحدة الموجودة بين الصفحة الثالثة والثلاثين حتّى الصفحة الثامنة والأربعين طُبعت في الكتاب مرّتين.

قلت:

- ماذا فعلت إذنْ يا مراد؟

- نسخت ما كان مكتوباً في الصفحة التالية للصفحة الثامنة والأربعين.

كان معلّمنا يقرأ علينا الدرجات التي حصلنا عليها في الامتحان الكتابي. حصلنا أنا وتوركان على درجة «جيّد جدّاً».

قال معلّمنا:

- الآن سأقرأ عليكم الأجوبة التي كتبها زميلكم مراد، استمعوا جيّداً! السؤال الأوّل: «ماذا علينا أن نفعل حتّى نحمي الطفل من المرض؟». الآن سأقرأ عليكم إجابة مراد: «حتّى تدوم أكثر، وتبقى نظيفةً وجميلةً، يجب أن نحافظ على نظافتها، وأن ننظّفها كلّما اتّسخت، وأن تُكوى على نحوٍ مستمرّ».

ملأت الضحكات الصفّ.

صرخ معلّمنا:

- اسكتوا!

بعدها قال:

- سأقرأ السؤال الثاني الآن: «ماذا علينا أن نفعل حتّى نحمي الأطفال من الأمراض الرئيسة؟». إجابة مراد هي: «يجب أن نُفرشِها باستمرار، ثمّ بعد تنظيف الغبار منها نعلّقها على مشجب الثياب، كلّ قطعةٍ في مكانها. وبعد أن يمرّ موسمها نصرّها ونضعها في الصناديق. إن اتّسخت كثيراً ننظّفها بالكثير من الماء الساخن والصابون، ونعلّقها بالخيوط والأسلاك حتّى تجفّ».

كان الأطفال ينبطحون تحت المقاعد ضاحكين.

وبسبب سخرية زملائنا وضحكاتهم، نهض مراد باكياً وقال:

- ولكنْ يا أستاذي، كتبتُها، وأنا أنقل من الكتاب.

قال معلّمنا:

- فهمت؛ لقد غششت، ولكنّك كتبت عن «العناية بالثياب» عوضاً عن «العناية بالطفل».

- هذا ما أخبرتني به زينب يا أستاذي.

نظر إليّ معلّمنا وقال:

- هاااا، لم تساعدي على الغشّ فحسب، بل وأعطيتِ أجوبةً خاطئةً أيضاً.

لم يعد هناك شيء يمكن إنكاره بعد الآن. قلت:

- لم أعطِه أجوبةً خاطئةً يا أستاذي. أخبرته فقط في أيّة صفحةٍ من الكتاب توجد الأجوبة.

عندما نظر المعلّم في كتاب مراد عرف مصدر الخطأ، ولكنّ معلّمنا قال:

- يجب عليّ أن أخبر أمّكِ بهذا الأمر.

استدعوا أمّي إلى المدرسة، وأخبروها بفعلتي. لم يبقَ شيءٌ لم يقله لي أبي وأمّي في ذلك المساء.

قال أبي:

- معيبٌ جدّاً يا ابنتي، جدّاً...!

من الجيّد أنّ جدّي كان عندنا في تلك اللّيلة، فقال لهم محتدّاً:

- اتركوا البنت يا روحي. وماذا صار يعني؟ لم تغشّ هي، بل ساعدت غيرها على الغشّ.

قالت أمّي:

- أليس كِلا الأمرين سواء؟

- خلّصونا، خلّصونا... ومن منكم لم يغشّ؟

قال متين:

- ولكنْ لم يُضبطوا، وهُم يغشّون.

وماذا أفعل؟ صارت وانتهت.. ولكنّني انزعجت كثيراً. وأكثر ما أزعجني كان متين. يسخر منّي باستمرارٍ قائلاً: «شيءٌ معيبٌ، شيءٌ معيبٌ...! وهل يقوم شخصٌ بالغشّ ويُمسك به؟ شيءٌ معيب!».

أنتظر رسائلك وأخبارك بفارغ الصبر. اكتب إليّ مطوّلاً، تمام؟

وداعاً. أرجو لك أيّاماً جميلة. بالتوفيق.

زينب يالكر

ما حالة البيت؟

إسطنبول، 26 شباط / فبراير 1964

أختي زينب:

أشكركِ جدّاً على رسالتكِ التي أرسلتِها بتاريخ 12 شباط / فبراير، وعلى الصورة التي أرسلتِها أيضاً.

أتّفق معكِ على حزنكِ بسبب الحادثة التي رويتِها لي. أردتِ الخير لزميلك، ولكنّكِ أصبحتِ في موقف المذنبة. حزنت وغضبت في الوقت نفسه من زميلك مراد.

ألا تذكرين زميلنا حسين؟ هو أيضاً ارتكب خطأً مشابهاً لما فعله مراد الذي في صفّكم، ووقعنا ضاحكين، ولكنّ حسين لم يلقِ اللّوم على غيره. أنتِ تعرفينه، إنّه صديقٌ جيّدٌ جدّاً. حكيت لكِ في واحدةٍ من رسائلي الفائتة عن تضحيته، وعن عدم الوشاية بصديقه الذي دفعه من أعلى الشجرة وأسقطه.

هل ذهبت إلى بيت حسين عندما كنتِ في إسطنبول؟ يعيشون في

واحدٍ من البيوت العشوائيّة الصغيرة. حتّى لو لم تكوني تعرفين بيتهم، فإنّكِ ستدركين أنّه طفلٌ فقير.

أعرف حال بيتهم؛ لأنّني أذهب لزيارتهم باستمرار. سبعة أشخاصٍ يعيشون في غرفتين صغيرتين. ربّما بسبب هذا الازدحام والدخل المحدود فلا رفاهية في بيتهم. بما أنّ حسين هو صديقي المقرّب، فإنّه يشكو لي من قلّة الرفاهية في بيتهم. سأحكي لكِ عن مآسيه: في بعض الصباحات عندما يأتي إلى المدرسة، وعيناه منفوختان ومتورّمتان، أعرف أنّه كان يبكي في بيته. عموماً فإنّ وجه حسين لا يضحك كثيراً، ولكنّه ليس عابساً أيضاً.

في أحد الأصباح الفائتة، أتى بعينين منفوختين أيضاً. ولكيلا ينتبه أحدٌ إلى أنّه قد بكى لم يتحدّث إلى أحد. جلس في مقعده. دخلنا الصفّ أيضاً بدون أن نتحدّث إليه. في ذلك اليوم، وفي درس اللّغة التركيّة، كان معلّمنا يشرح لنا حالات الاسم سائلاً: «ما أنواع الحالات الموجودة في الاسم؟». وكنّا نجيب: «حالة –i، حالة –e، حالة –de، حالة –den، والحالة المجرّدة».

بعد أن شرح لنا معلّمنا ذلك، راح دمير يقرأ القصّة التي عنوانها: «البيت ذو النافذة الذهبيّة». ربّما تعرفين هذه القصّة. تقول: ثمّة بيتٌ صغيرٌ في الغابة تعيش فيه عائلةٌ فقيرةٌ، ولهذه العائلة طفلة. ويُرى من بيتهم هذا بيتٌ آخر على مبعدةٍ منهم. عند حلول المساء، تلمع نوافذ هذا البيت بلونٍ أصفرَ ساطع. ثار فضول هذه الطفلة الصغيرة حول النافذة الذهبيّة لذلك البيت. وفي أحد الأيّام، سلكت طريقها للذهاب إلى هناك، مشت ومشت، وفي النهاية وجدت البيت، ولكنْ في ذلك الوقت كان قد حلّ اللّيل؛ فقضت ليلتها هناك ونامت. عند استيقاظها نظرت وإذا ببيتٍ مقابلٍ لذلك البيت

يلمع مثل الذهب، وعندما علمت أنّ ذلك البيت، الواقع مقابل البيت ذي النوافذ الذهبيّة، هو بيتها، دُهشت. وفي ذلك الوقت، أدركت أنّ انعكاس أشعّة الشمس على النوافذ حوّلها إلى ذهب.

بعدما قرأ دمير هذه القصّة، سأل معلّمنا:

- ما العبرة المستفادة من هذه القصّة؟

أجاب عن سؤاله بنفسه قائلاً:

- يجب أن يكون الناس راضين عن الوضع الذي هُم فيه. في كثيرٍ من الأحيان، ومثل الفتاة الصغيرة التي في هذه القصّة، لا يمكننا معرفة السعادة التي نحن فيها. فقط عندما نبتعد عمّا نحن فيه، ندرك أنّنا كنّا نعيش في سعادة؛ هذا يعني أنّ أفضل بيتٍ هو بيتنا.

بعد أن حكى هذا، وقرأ جملةً تحتوي على كلمة «بيت» من القصّة السابقة قال:

- يا حسين، ما الحالة الموجودة في البيت؟

حسين الذي كان جالساً في المقعد الخلفيّ، مهموماً بحزنه، غير مستمعٍ إلى المعلم في الغالب، نهض بخجل. كرّر المعلّم سؤاله:

- ما حالة البيت؟

ظنّ حسين أنّ المعلّم يسأل عن حال بيته هو، وقال بصوتٍ هامس:

- ليست جيّدةً يا أستاذي.

- أنا أسأل عن حالة «البيت». ما نوع الحالة الموجودة في البيت؟

وبصوتٍ باكٍ ومشروخٍ قال حسين، الذي لم يكن راغباً بالحديث عن حالة البيت أمام كلّ هؤلاء الزملاء:

- حالة البيت... ليست جيّدةً يا أستاذ...

قال المعلّم:

- أيّة حالةٍ من حالات البيت ليست جيّدة؟

قال:

- لم يكن جيّداً في أيّ وقت، ولكنّ حالته اليوم كانت الأسوأ...

أنا الوحيد الذي فهم ما يريده حسين. كان الزملاء يضحكون لعدم فهمهم أيّ شيءٍ من كلامه.

سأل المعلّم:

- لماذا ليست جيّدة؟

قال حسين:

- لأنّ...

وبصوتٍ مرتجفٍ، وبصعوبةٍ، حاول إتمام كلامه:

- يريد صاحب البيت إخراجنا من البيت؛ لأنّنا لا نستطيع دفع الأُجرة...

عندما غمر الضحكُ الصفَّ، جلس حسين، ووضع رأسه بين يديه.

قرأ معلّمنا هذه الجملة: «عندما رأت الفتاة الصغيرة أمامها البيتَ ذا النافذة الذهبيّة...».

- أنت قُل يا دمير، ما حالة «البيت»؟ ما حالة البيت هنا؟

قال دمير:

- حالة -i يا أستاذي.

سأل المعلّم حسين مجدّداً:

- ما حالة «البيت»؟

ولأنّ حسين لم يفهم الموضوع مجدّداً قال:

- في حالةٍ جيّدة...

فهم «حالة -i» على أنّها «حالة جيّدة»(*).

غمر الضحكُ الصفَّ مرّةً أُخرى.

سأل المعلّم:

- ما عدد الحالات الموجودة في «البيت» يا حسين؟

- الحالة الجيّدة، والحالة غير الجيّدة أيضاً.

كنت أنا فقط من يعرف أنّ حالة بيت حسين لم تكن جيّدةً في أيّ وقت.

عندما أدرك معلّمنا متأخّراً ما عَناهُ حسين، غيّر الموضوع وقال مستمرّاً في الشرح:

- ومجدّداً، فإنّ أفضل بيتٍ هو البيت الذي نعيش فيه، يجب علينا أن ندرك قيمة بيتنا.

في المساء، وفي أثناء عودتنا من المدرسة، حاولت أن أهدّئ حسين قليلاً.

كيف الطقس في أنقرة؟ إنّه باردٌ جدّاً هنا. البارحة هطل الثلج هنا، ولكنّه لم يبِنْ. حالة بيتنا جيّدةٌ، ولكنّ الغرفة التي أنام فيها ليست جيّدة؛ المدفأة التي في الصالون لا تُدفئ الغرفة التي أنام فيها. كيف حال بيتكم؟

أنتظر رسائلكِ يا زينب.

صديقك الذي لا ينساكِ

أحمد طاراباي

(*) في قواعد اللّغة التركيّة يُعرّف الاسم عند إضافة اللاحقة -i إليه. وفي اللّغة التركيّة كلمة جيد تعني: «iyi» وهي مشابهة في لفظها للفظ حرف «i» الذي يلفظ «إي». (م)

أيّة كذبةٍ أختلق يا ترى؟

أنقرة، 16 آذار / مارس 1964

أحمد:

أعتذر من تأخّري في الردّ على رسالتك التي أرسلتها بتاريخ 26 شباط / فبراير. نجهّز أنفسنا لحفل 23 نيسان / أبريل. وقع على عاتقي الكثير من المهام بسبب هذا الحفل. التحضير للحفل من جهة، وتحضير دروسي من جهةٍ أُخرى، لم يتيحا لي وقتاً كي أكتب رسالة. ولكنّني كتبت رسالةً إلى حسين. حزنت كثيراً لما كتبته حول حسين في الرسالة الفائتة، ما دفعني إلى كتابة رسالةٍ ودودةٍ له بدون أن أذكر ما كتبتَه لي عنه.

مرّت أحداثٌ مدهشةٌ في الأيّام التي لم أكتب إليك رسائل فيها. سأحكي لك عن واحدةٍ منها فقط. وقعت هذه الحادثة لـمتين: أحياناً، يكذب متين على أبي، فيغضب أبي كثيراً من متين عندما يكتشف كذبه. يُجلسه أمامه، ويبدأ الوعظ:

– يا بنيّ، افعل ما تريد، ولكنْ لا تكذب! فليس في الدنيا ما هو أسوأ من الكذب. عندما يكذب الإنسان، فإنّه يضطرّ إلى أن يكذب كذبةً أكبر

حتّى يغطّي كذبته تلك، ثمّ يكذب كذبةً أُخرى أكبر منها حتّى لا تنكشف تلك الكذبة. كلّ كذبةٍ تولّد كذبةً أُخرى أكبر؛ لهذا لا تكذب!

أبي يقول هذا، ولكنّه بهذا أيضاً يجبر متين على أن يكذب؛ لأنّ متين عندما يرتكب خطأً صغيراً، يكاد لا يندرج تحت الأخطاء، فإنّ أبي يوبّخه. ولكي يتخلّص أخي من التوبيخ يضطرّ إلى الكذب. في النهاية، تنكشف كذبته بالطبع، فيبدأ أبي بالنصح.

في أحد المساءات قال لي متين:

- أيّة كذبةٍ أختلق لأبي يا ترى؟

منذ أيّامٍ وأبي يقول لمتين أن يذهب إلى الحلّاق ويقصّ شعره؛ لأنّه طال. ومتين بدوره ينسى الذهاب بسبب انشغاله باللّعب. في ذلك الصباح أكّد أبي على متين أن يذهب إلى الحلّاق قائلاً:

- عندما أعود إلى البيت مساءً لن أراك هكذا.

قلتُ لمتين:

- قل الحقيقة، فإن كذبتك ستنكشف عاجلاً أم آجلاً...

- إن قلت الحقيقة سيغضب أبي. ماذا لو قلت: إنّني أوقعت النقود؟

- أنت تعرف، قلت له ذلك ذات مرّة، وبعدها ظهرت النقود في جيبك، وانكشفت كذبتك.

- إذنْ، سأقول: إنّني اشتريت كتاباً من الجمعيّة التعاونيّة في المدرسة.

- الأفضل أن تقول الحقيقة.

- سأقول: إنّ محلّ الحلّاق كان مزدحماً؛ انتظرت دوري، ولم يأتِ.

لأبي صديقٌ اسمه ضياء، في ذلك المساء أتى هو وزوجته لزيارتنا. قال

بأنّه قلقٌ على أبي؛ لأنّه لم يلتقِ به منذ زمن. كان قد حان وقت وصول أبي، ولكنّه تأخّر لسببٍ ما.

قالت أمّي:

- لا بدّ من أن يأتي الآن..

عندما تأخّر أبي أكثر، بدأت أمّي تقلق. قالت:

- ليس من عادته التأخّر هكذا أبداً، ماذا حدث يا ترى؟

قال ضياء بيك:

- ربّما طرأ له عملٌ ما.

قالت أمّي:

- في هذه الحال من المفترض أن يخبرنا.

تناولنا طعامنا أنا ومتين؛ أمّا أمّي، فلم تأكل؛ لأنّها تنتظر أبي.

مرّ وقتٌ طويل. نام متين. وبينما نهض ضياء بيك وزوجته، وهُما على وشك الرحيل، رنّ جرس الباب.

ركضت أمّي بحماسٍ وقالت:

- ها قد أتى!

قال ضياء بيك:

- لنختبئ ونفاجئه.

ذهب مع زوجته إلى الغرفة المجاورة. كان القادم أبي.

قالت أمّي:

- أين كنت؟ لقد قلقت كثيراً. هل طرأ لك عمل؟

قال أبي:

- مرض ضياء، فزرته.

قالت أمّي:

- هااا! ولكنّك تأخّرت كثيراً.

- إنّه مريض؛ لا يمكن أن أتركه بسرعة.

- عليه العافية، هل مرضه ثقيل؟ واخ، واخ!

كان أبي سيقول أشياء أُخرى، ولكنّ ضياء وزوجته ظهرا من الغرفة التي اختبآ فيها، وهُما يضحكان. دُهش أبي، وقال لهما:

- أووو، أنتما كنتما هنا؟

- قلنا لنصنع لك مفاجأة.

قالت أمّي، وهي تضحك:

- ويا لها من مفاجأة!

جلسوا جميعاً إلى المائدة.

سأل أبي:

- هل نام متين؟

قلت:

- تعب من التفكير في الكذبة التي يمكن له أن يلفّقها ونام. نسي اليوم أن يذهب إلى الحلّاق ويقصّ شعره. كان يحاول أن يختلق كذبةً ما؛ لأنّكم ستغضبون.

قال أبي:

- تأخّر الوقت. هيّا، نامي أنتِ أيضاً.

وبهذا الشكل نجا متين من التوبيخ في الصباح التالي.

أنتظر رسائلك يا أحمد. أرجو لك الأفضل.

زينب يالكر

احتفاليّة عيد الطفل

إسطنبول، 24 نيسان / أبريل 1964

أختي زينب:

بعد رسالتكِ التي أرسلتِها بتاريخ 16 آذار / مارس، أرسلتِ بطاقةً تقولين فيها: «هل استأتَ لأنّني أرسل ردوداً متأخّرةً، ولذلك لا ترسل إليّ رسائل؟». لا، أنا لم أسْتأ. ولماذا أستاء؟ نحن أيضاً كانت لدينا احتفاليّة في 23 نيسان / أبريل، وكنّا نتجهّز لها. مرّ الوقت، وأنا أقول: اليوم، أو غداً سأكتب. وفي النهاية، أقمنا الاحتفاليّة البارحة، وارتحت. بعدها على الفور بدأت بكتابة رسالةٍ إليكِ.

كانت احتفاليّة البارحة جميلةً جدّاً جدّاً. هل تعلمين لماذا كانت جميلة؟ كان هناك الكثير من الخيبات. كنت أنا صاحب أكبر خيبة.

معلّم الصفّ الثالث أكثر من يهتمّ بالاحتفاليّة؛ أمّا معلّم الموسيقا، فجهّز أيضاً أغنيات ورقصات، في حين كتب معلّم صفّنا مسرحيّةً لعرضها في الاحتفاليّة.

أكثر الكبار الذين أعرفهم لا يحبّون عملهم، ويفضّلون عمل شيءٍ

آخر. لنأخذ أبي مثلاً: يقول لنا دائماً بأنّه لو درس لصار شاعراً كبيراً. حتّى الآن يكتب شعراً كلّما سنحت له الفرصة؛ أمّا عمّي، فهو تقنيّ، يتمنّى لو كان طبيباً.

يعتقد معلّمنا أنّ من المفترض أن يكون كاتباً. قال لنا عدّة مرّاتٍ في الدروس: «كنت سأصير كاتباً، ولكنْ لا يوجد نصيب».

ما فهمته أنّ عين كلّ شخصٍ على عملٍ آخر غير الذي يعمل به.

طلب مديرنا إلى معلّمنا اختيار واحدةٍ من المسرحيّات المكتوبة، ولكنّ أيّاً منها لم تعجبه، فكتب مسرحيّةً بنفسه. كانت مسرحيّةً مؤلمةً جدّاً. لأشرح لكِ موضوعها على نحوٍ مختصر: يوجد ولدٌ عاقٌّ جدّاً؛ لا توجد سيّئةٌ إلّا ويرتكبها بحقّ أمّه وأبيه. يهرب من المدرسة، ومن العمل، وفي النهاية يصير عديم الأخلاق. أصبح سارقاً. لم تستطع أمّه تحمّل ما سمعته من مآسٍ فماتت. يأخذ الولد المال من أبيه عنوةً، وإن لم يُعطه يضربه. وفي النهاية يسجنونه بسبب جريمةٍ ارتكبها. بعد أن ينهي مدّة محكوميّته ويخرج من السجن، يثوب إلى رشده؛ يعود إلى بيت والده، ويقبّل يده طالباً منه السماح. يتوسّل إليه قائلاً: «يا أبي الحبيب، لم أستمع إلى أيٍّ من نصائحك، أو إلى كلامك، وصرت على ما أنا عليه، ولكنّني عدت الآن إلى رشدي. سامحني!». ثمّ يقول الأب المسنّ، وهو يبكي: «الأب يسامح ابنه دائماً. سامحتك. ليسامحك الله أيضاً...». ولكنّه لكثرة انفعاله لا يستطع التحمّل، فيسقط ويموت.

كانت المسرحيّة مؤلمةً حقّاً. كنّا في الصفّ نبكي كلّما قرأناها.

قلت للمعلّم:

- أليس من الأفضل لو كانت مضحكةً يا أستاذي؟

قال:

- أنت تطلع لي من كلّ مكانٍ يا أحمد! هل تسخر منّي؟

مع أنّني كنت أريد أن أحكي شيئاً آخر. كنت أودّ القول: إنّه عوضاً عن لصق اللحى والشوارب على وجوهنا، ولعب دور الرجُل الكبير، ألم يكن من الأفضل لو قمنا بتمثيل بعض المشاهد من حياتنا المدرسيّة، التي تناسب أعمارنا؟ ولكنّني لم أستطع شرح ما أريد.

رأيت ذلك في احتفاليّاتٍ أُخرى قبل ذلك؛ أطفال ركّبوا شوارب ولحى، يقفون على المسرح مثل أقزام السيرك. مهما تكلّموا بألم، فإنّهم سيبدون مضحكين. مهما تكلّموا على نحوٍ مثيرٍ للشفقة، فإنّ المتفرّجين سيضحكون. ولأنّ هذا ما سيحدث، أردت القول بأنْ نمثّل مسرحيّةً مضحكةً من البداية، ولكنّني سكتُّ عندما وبّخني المعلّم.

ثمّة خمسة أدوارٍ رئيسة في هذه المسرحيّة التي لخّصتُ لكِ موضوعها. من المحتمل أنّ معلّمنا غضب من اقتراحي. قال لي:

- أنت من سيأخذ دور الولد السيّئ؛ تلعبه جيّداً. إنّه دورٌ مناسبٌ لكَ تماماً...

دمير هو من سيكون أبي، وميني هي أمّي.

حفظنا المسرحيّة. تدرّبنا على المسرح. في يوم التدريب الأخير هطل مطر غزير. تعرفين، عندما يهطل المطر لوقتٍ طويلٍ، يتسرّب الماء من السقف إلى الداخل. في ذلك اليوم بدا المطر كأنّه يهطل على خشبة المسرح. وضعت الدلاء، والعلب، والتنكات هنا وهناك على المسرح حتّى لا تتبلّل ألبسة الأطفال المرميّة على الأرض برذاذ الأمطار.

وكان يجب أن تؤدّى رقصةٌ صينيّة. وضعوني بين الذين سيرقصون

الرقصة الصينيّة أيضاً. رأى معلّم الموسيقا أطفالاً في عروض المدارس الأُخرى يرقصون رقصات صينيّة، فأُعجب بها كثيراً.

قلت:

- أليس من الأفضل أن نؤدّي رقصة (الزيبِك)؟(*)

قال معلّم الموسيقا: إنّ الزيبِك تُرقص في كلّ احتفاليّةٍ، وإنّه من الأفضل لو غيّرناها.

قلت:

- يا أستاذي، هل يا ترى يرقص الأطفال الصينيّون، الذين يدرسون في المدارس الابتدائيّة، رقصة الزيبِك الخاصّة بنا في الاحتفاليّات؟

قال: «لا تتحذلق!».

ولكنّني ضحكت عندما تخيّلت طفلاً صينيّاً يدبك الزيبِك. أظنّ أنّهم كانوا سيضحكون علينا أيضاً لو رأونا نرقص الرقص الصينيّ. أجرينا تدريب الرقصة الصينيّة النهائيّ تحت السقف القديم الذي يتسرّب منه المطر، وبين الدلاء والتنكات، وبينما كنّا نرقص، كانت خشبات المسرح تصدر صريراً.

قال لي أستاذ الموسيقا:

- لا تقف هكذا كأنّك تدبك الزيبِك. هذه رقصة صينيّة، عليك أن ترقص بنعومةٍ، وخفّةٍ، ولطافة.

كنت أحاول أن أعمل حركاتٍ ناعمةً وثقيلةً، ولكنْ لأنّني كنت معتاداً دبكة الزيبِك، كنت أشرد وأبدأ بالقفز.

(*) رقصة الزيبِك: هي الرقصة الشعبية الأكثر انتشاراً غرب الأناضول. يمكن أداؤها على نحوٍ إفرادي، أو ثنائي، أو جماعي أيضاً. (م).

- أحمد، لا تقفز هكذا! تنعكس روح الصينيّين في الرقص الصينيّ. الصينيّون رقيقون.

حسناً، ولكنْ ماذا عساي أن أفعل إن كانت روح الصينيّ رقيقةً، وأنا روحي ليست كذلك؟

كان معلّم الموسيقا يعزف على البيانو بينما كنّا نرقص. وفي أثناء شرودي وقفزي مجدّداً، نهض المعلّم من وراء البيانو، وبينما كان متّجهاً نحوي ضربت قدمُه أحدَ الدلاء فأسقطه. تناثرت المياه المنسكبة من الدلو. بعد كلّ هذه المصاعب، وفي المساء، تمّ التدريب الأخير بنجاح.

في يوم العرض كنّا متحمّسين للغاية، تدافعنا على خشبة المسرح لننظر من خلال الستائر إلى الصالة. كانت الصالة ممتلئةً بالناس.

اصطففنا على خشبة المسرح، من كلّ صفٍّ خمسون طفلاً. رُفعت الستارة. أنشدنا النشيد الوطنيّ، ثمّ دخلنا نحن الكواليسَ، بينما بقي على المسرح مجموعةٌ من الصفّين: الأوّل، والثاني. غنّوا أغنية (اليوم هو 23 من نيسان، فيه تغمر البهجة الإنسان). كنّا نسمع من الداخل التصفيق القادم من الصالة.

لم يكن أستاذ الموسيقا مسروراً من الجوقة على الإطلاق. قال للأطفال في الكواليس:

- ما هذه الجوقة؟ هل هذا ما علّمتكم إيّاه؟ عوضاً عن أن تكون جوقةً ذات صوتين، صارت جوقةً ذات عشرين صوتاً!

أتى دور رقصتنا الصينيّة. كانت الفتيات اللّاتي يرتدين البلوزات فوق التنانير المصنوعة من الأقمشة الملوّنة واللمّاعة، يحملن بأيديهنّ صوانيَ؛ أمّا الصبيان، فقد لوّنوا عيونهم وحواجبهم بطلاءٍ أسْود، وجعلوها شبيهةً بأعين الصينيّين. صنعوا لنا أيضاً شوارب متدلّيةً من الطلاء الأسْود.

رُفعت الستارة. بدأ معلّم الموسيقا بعزف البيانو. ونحن بدورنا صعدنا إلى المنصّة. بدأت الفتيات بالمرور بيننا والصواني في أيديهنّ، ينحنين وينهضن. وفي ذلك الوقت تماماً حدثت الكارثة.

كنت شارداً وغير مدركٍ ما إذا كنت أنطّ وأقفز كثيراً، ولكنّ تنّورة إحدى الفتيات المنحنيات دخلت وعلقت بين خشبات المسرح المتباعدة. لم تستطع الفتاة بأيّ شكلٍ تخليص تنّورتها والتحرّك من مكانها. كنّا عائدين إلى الكواليس، بينما كانت الفتاة متجمّدةً في مكانها. عندما صرت بجانب الفتاة، قفزت مرّةً أُخرى لعلّ خشبات الأرضيّة تُفتح، وعندها تباعدت الخشبتان، ولكنّهما تلاصقتا مرّةً أُخرى قبل أن تحرّر الفتاة تنّورتها، فعلقت التنّورة على نحوٍ كامل. عندما تدخّلت الفتاة لتخليص تنّورتها، ألا تنزلق التنّورة من خصرها إلى الأرض؟ بقيت المسكينة في الوسط بسروالها، واندلع الضحك من الصالة.

صرخ معلّم الموسيقا من الكواليس:

- الستارة، الستارة، أسدلوا الستارة!

أُسدلت الستارة وسط تصفيقٍ هائل!

ثمّ مثّلوا مسرحيّاتٍ أُخرى، وغنّوا الأغاني. وفي النهاية كان دور مسرحيّتنا.

معلّمنا هو من عمل المكياج لنا. بدت ميني بثياب الأمّ القديمة كالعجوز القزمة. قام المعلّم الذي دهن الكثير من الصمغ بين فمي وأنفي، بلصق شاربين مزيّفين ظهرا مثل عصا البراصيا. ولأنّها كانت ثقيلةً سقطت. دهن معلّمنا صمغاً أكثر على شفتي العليا، وألصق الشاربين مرّةً أُخرى.

وضع الصمغ على خدّي دمير أيضاً، ثمّ ألصق قطناً. ولأنّ دمير كان

يمثّل دور أبي، فقد كانت لحيته ثقيلةً، وكذلك كان شارِباه. عندما انتهى مكياجنا قال معلّمنا:

- حتّى يبدو دمير مسنّاً أكثر، يجب أن يضع نظّارات أيضاً.

لم تخطر النظّارات في باله قبل ذلك نهائيّاً. وأين يمكن لنا أن نجد نظّاراتٍ في ذلك الوقت؟ خلع السيّد المدير نظّاراته، وأعطاها لدمير، وقال له:

- الله يخليك انتبه، لا توقِعها وتكسرها! لا أستطيع رؤية أيّ شيءٍ بدون نظّارات.

عندما وضع دمير النظّارات، بدا مسنّاً قزماً حقيقيّاً كما لو كان واحداً من الأقزام السبعة. قال:

- أنا لا أستطيع رؤية أيّ شيءٍ بهذه النظّارات.

وحقّاً كان لا يستطيع الرؤية. عندما فُتحت الستارة، لم يستطع إيجاد المنصّة وصَدم رأسه بالحائط. جررناه نحن من ظهره ووجّهناه إلى المنصّة.

كان الفصل الأوّل من المسرحيّة ناجحاً للغاية. أدركنا ذلك من خلال التصفيق.

بدأنا بتمثيل الفصل الثاني. كنتُ أضرب أمّي؛ يعني: ميني. وكان أبي؛ يعني: دمير، يوبّخني أيضاً. ولكنّ دمير لم يكن يستطيع رؤيتي بالنظّارات، فكان ينظر إلى الحائط، وظهره إلى الجمهور، معتقداً أنّه يوجّه الكلام إليّ. صرخ، وهو يشدّ قبضته:

- آآه أيّها الولد الظالم. هل كبّرناك وطوّلناك من أجل هذا؟

وقفت أمام دمير على الفور وهمست له:

- التفت إلى هذا الاتّجاه، نحن هنا!

بينما كنت أضرب أمّي، كان على دمير أن يحاول حماية ميني، ولكنّ دمير لم يستطع إيجادنا على المنصّة بأيّ شكل. كان يمدّ يديه إلى الأمام كأنّه يلعب لعبة المسّاكة، وهو مغمض العينين. يصرخ نحو الباب قائلاً:

- لا تضرب! لا تضرب! لا تُرفع اليدُ على الأمّ، ولدٌ غدّار، لا تضرب!

نحن على اليمين، ودمير يصرخ نحو اليسار. وحتّى يسمع صوتي، ويلتفت نحونا، وكما يحدث في الأفلام، خرجت عن نصّ المسرحيّة، وقلت له ضاحكاً ببرودة:

- ها ها ها! أضرب، ولمَ لا أضرب، أليست أمّي؟ أضربها!

يلتفت دمير نحو صوتنا، ولكنّه بعد وقتٍ قليلٍ، تشوّش نظره، والتفت نحو المتفرّجين قائلاً:

- لا تضرب! اليد التي تُمدّ إلى الأمّ تصير حجراً.

وأنا بدوري أُطلِق ضحكاتٍ خبيثةً علّه يتّجه جهة صوتي:

- ها ها ها!

أدركتُ أنّ دمير لن يتّجه نحونا، فجررت ميني، واتّجهت نحوه.

- أيّها الولد العاق!

- أبي، نحن هنا، التفت نحونا.

دمير طفلٌ ذكيٌّ، فهم الوضع على الفور وقال:

- أنا لا ألتفت إليكَ. أنا أكبر منك، أنا أبوك، أنت التفت نحوي أيّها الولد العاق!

وبعدها أصبحنا نتفوّه بكلماتٍ خارج نصّ المسرحيّة:

- لمن تقول هذا يا أبي؟ أنا هنا.

- أنا لا أقول لك ذلك، ولا أتحدّث إليك..

- هل تتكلّم مع الحيطان يا أبي؟

- الحيطان تفهم الحكي، وأنت لا تفهم. ولدٌ عاق!

ثمّ ماتت ميني، وهي تئنّ قائلة:

- لو وَلدتُ حجراً بدلاً منك!

عندما ماتت ميني، كان على دمير أن ينكبّ عليها باكياً، ولكنّه انكبّ على خشبة المسرح وقال باحثاً عن ميني:

- أين أنتِ، أين أنتِ؟

قالت ميني، وهي تجرّ نفسها نحو دمير:

- أنا هنا، أنا ميّتة..

أمسكتُ دمير ورميته فوق ميني قائلاً له:

- هيا، اذهب إليها أنت أيضاً!

وانتهى الفصل الثاني من المسرحيّة.

وفي الكواليس، وبّخ المعلّم دمير. فقال دمير:

- وماذا أفعل يا أستاذي؟ لا أستطيع أن أرى شيئاً بهذه النظّارات...

فكّرنا بأن يمثّل الفصل الأخير بدون نظّارات، ولكنْ لم يكن من المناسب أن يموت الرجُل العجوز، الذي كان يرتدي النظّارات سابقاً، بدونها الآن.

قال السيّد المدير:

- انظر من فوق عدستيّ النظّارات!

ولأنّ دمير صار يرى من فوق عدستيّ النظّارات، لم يحدث خللٌ كبير،

ولكنّ المتفرّجين الذين انزعجوا في أحد مشاهد الفصول السابقة، صاروا يضحكون على كلّ ما نفعله، وما نقوله، حتّى إنّهم كانوا يضحكون في المشاهد التي توجّب عليهم البكاء فيها.

في المشهد الثالث، كنت قد خرجت من السجن، وفي طريق العودة إلى البيت، نادماً على كلّ ما فعلته. أطلب السماح من أبي. كان المتفرّجون يضحكون حتّى على هذا المشهد. وهل يُضحك على شيءٍ كهذا؟

انحنيت وقبّلت يد أبي. عندما انحنيتُ نظرتُ وإذْ بأحد الشاربين المزيّفين على الأرض. وقع الشارب الثقيل عن شفتي. ولأنّني لا أستطع أن أجلّس نفسي بشارب واحد، خرجت عن النصّ، وقلت لأبي، وأنا أنكبّ على قدميه:

- لأقبّل قدمَيك يا أبي الحبيب!

ثمّ تناولتُ الشارب من الأرض، وألصقته على شفتي. يا أختي، المصائب تأتي مجتمعة. كان شاربي الأيسر هو الذي سقط. ولأنّني لم أكن أعرف أيّ شاربٍ قد وقع، فكنت أحاول أن ألصق الشارب الساقط على جهة اليمين فوق الشارب القديم. فهمس لي دمير: «ألصقه على اليسار!». ولكنّه لم يُلصق بأيّ شكل. نظرت، ولم أجد حلّاً، فأمسكتُ شاربي الأيسر بيدي، وتظاهرتُ بأنني أفتِله.

قال أبي:

- سامحتك يا بنيّ...

وأنا بدوري كنت أفتِلُ شاربي أمام أبي.

ولأنّه لم يكن من المناسب فعل ذلك، قلت لأبي:

- كنت سأحلق هذين الشاربين يا أبي لو لم تسامحني...

ثمّ نزعت الشاربين ورميتهما.

قال دمير:

- ماذا فعلت يا بنيّ؟

قلت:

- قليل ما أفعله من أجلك يا أبي، فداك هذان الشاربان!

وصلنا إلى آخر المسرحيّة. كان على دمير أن يعانقني ويبكي، ثمّ يقع على الأرض قائلاً لي: «سامحتك، ليسامحك الله أيضاً!». ويموت.

بدأ دمير بالبكاء، ولكنّه كان يبكي حقّاً. وحسب ما قال لنا لاحقاً، تأثّر بالمسرحيّة وانفعل؛ ولهذا كان يبكي. كانت الدموع تنهمر بغزارةٍ على القطن الملصق على خدّيه. كنت أعتقد بأنّه يمثّل البكاء، ولكنّ الحقيقة أنّ عينيه دمعتا بسبب النظّارات، ثمّ بسبب انفعاله، لم يستطع إمساك دموعه.

قال دمير، وهو يعانقني:

- آآهٍ يا ولدي...!

تعانقنا، ثمّ عندما ابتعدنا، نظرتُ فلم أجد أيّ أثرٍ للحية أبي. وبينما كنت أفكّر بمصير لحية الرجُل، مددت يدي إلى وجهي، لو حدث أيّ شيء إلّا هذا! لقوّة معانقتنا -نحن الاثنين- انتقل الصمغ الموجود على شفتي إلى خدّيّ، والتصقت لحية أبي كما هي على وجهي؛ وبذلك صرت أنا الأب.

كان على أبي أن يقع على الأرض ويموت، ولكنّه لم يمت بأيّ شكل.

همست له:

- هيّا مُت يا دمير!

فقال لي:

- اللّحية ملصقةٌ عليك، من منّا سيموت الآن؟

- أنت الأب، أنت ستموت. هيّا اسقط على الأرض!

لم يرمِ نفسه على الأرض بأيّ شكل.

- هيّا ياهووووه!

انسلّ نحوي وقال:

- سأرمي نفسي إلى الأرض، ولكنْ ماذا لو كُسرت نظّارات المدير؟

- يا أخي، مُت ولتنتهِ هذه المسرحيّة. فُضحنا. مُت وخلّصنا!

قال دمير:

- أنا سامحتك، ليسامحك الله أيضاً!

بعد ذلك نزع النظّارات بهدوء، ووضعها على الطاولة، وقال: «ها أنا أموت الآن!». ورمى نفسه على الأرض.

وأنا بدوري استلقيت فوقه، ثمّ أُسدلت الستارة. أُسدلت ولكنّنا كنّا في مقدّمة المنصّة إلى حدّ أنّنا بقينا كلانا أمام الستارة؛ جسدانا أمام الستارة، وأرجُلنا خلفها.

يرتفع صوت التصفيق والضحك.

قلت لدمير:

- لا يمكننا البقاء مستلقين هكذا، هيّا لننهض!

قال:

- وهل ينهض الميّت؟ إنّني ميّت، فلْتنهضْ أنت.

سحبنا أحدهم من خلف الستارة من قدمَينا إلى الداخل. نظرنا وإذْ به المعلّم. همس دمير:

- احترقنا يا أحمد!

انتقلنا إلى الكواليس، وكلانا خائف. كان المعلّمون والمدير هناك تنهمر من أعينهم الدموع بسبب الضحك.

وبهذا الشكل مرّت احتفاليّة 23 نيسان / أبريل. وبعد هذه الاحتفاليّة كان الجميع يقولون بأنّ لدمير موهبة كبيرة في المسرح؛ لأنّ الدراما التي كتبها لنا معلّمنا تحوّلت إلى كوميديا جميلةٍ جدّاً.

بدأ ربيعٌ لطيفٌ جدّاً في إسطنبول. إلى اللّقاء في إسطنبول في العطلة الصيفيّة. أرجو لكِ الخير والسلامة.

أحمد طاراباي

مسابقة رواية الطفل

إسطنبول، 25 نيسان / أبريل 1964

أختي زينب:

البارحة أرسلتُ إليكِ رسالةً بالبريد. واليوم أكتب إليكِ رسالةً أُخرى. ربّما ستتفاجئين؛ لأنّني أكتب إليكِ رسالةً مباشرةً بعد يومٍ من تلك الرسالة. أكتب هذه الرسالة لأستشيرك بشأن أمرٍ ما. إن وافقتني في الرأي، فربّما نتعاون معاً في هذا الموضوع.

علمت حديثاً بأنّه قد افتُتِحتْ مسابقةٌ لرواية الطفل. انظري بماذا فكّرت: لو رتّبنا الرسائل التي تبادلناها متسلسلةً حسب التاريخ، ألن تصبح روايةً للأطفال؟ إنّني أحتفظ بكلّ الرسائل التي أرسلتِها إليّ. وقد كتبتِ لي أنتِ في إحدى رسائلك بأنّكِ تحتفظين بكلّ الرسائل التي كتبتُها إليكِ في ملفٍّ خاصّ.

ماذا تقولين، هل نشارك في هذه المسابقة؟ إن كنتِ توافقينني الرأي، فأرسلي لي كلّ رسائلي الموجودة عندك بالبريد الجويّ؛ لأنّه لم يتبقّ سوى القليل من الوقت للمشاركة في المسابقة. إنْ ربحنا في المسابقة، سيكون

نجاحاً لكلينا. سنشترك في المسابقة باسمينا معاً. أخبريني إن كنتِ لا تَرين إشراك رسائلنا في المسابقة مناسباً.

لديّ طلبٌ منكِ: إن أردتِ أن نشترك في المسابقة فلا تخبري أحداً بذلك، تمام؟ إن ربحنا سنكون قد فاجأنا عائلتَينا بذلك، وإن لم نربح، لن نخبر أحداً بأنّنا اشتركنا في المسابقة، ويبقى الأمر بيننا.

أنتظر ردّكِ. مع سلامي ومحبّتي يا أختي.

أحمد طاراباي

ستكون الأوّل

أنقرة، 27 نيسان / أبريل 1964

صديقي العزيز أحمد:

استلمت رسالتكَ قبل قليل. سأردّ عليك على الفور. عند انتهائي من كتابة هذه الرسالة، سأحزم رسائلكَ التي عندي وأرسلها إليك بالبريد.

أظنّ أنّ عرضك حول المشاركة في المسابقة مناسبٌ جدّاً. لا أريد أن أشائمك، ولكنّ نسبة فوزنا ربّما تكون ضئيلةً جدّاً. هل تعرف لماذا؟ لأنّنا برسائلنا هذه كنّا ننتقد ونذمّ مَن هم أكبر منّا سنّاً، والأهالي، والمعلّمين باستمرار، وإنّ الكبار، والأهالي، والأساتذة هُم من سوف يقرأ الروايات المشاركة في المسابقة ويقيّمها. لا أظنّ أنّهم سوف يعطون درجةً جيّدةً لروايةٍ تنتقدهم. حتّى إنّهم من الممكن أن يغضبوا منّا قائلين: «ما هؤلاء الأولاد!».

والأسوأ من ذلك، بما أنّك ستكتب اسمك وعنوانك على الرواية عند إرسالها، فهل تريد أن يعاودوا إرسال الرسائل إلى بيوتنا ونقع في مشكلة؟ وإن كان لا بدّ من ذلك، فمن الممكن أن نكتب أسماء مستعارة تحت

كلّ رسالة. وكاسْمٍ مستعارٍ فأنا أختار زينب، وأنت اختلق لنفسك اسماً مستعاراً.

لا أريدك أن تفهم من كلماتي هذه أنّني لا أودّ المشاركة في المسابقة. أعتقد بأنّ رسائلنا مجتمعةً تُشكّل رواية. أرسل الرواية إلى المسابقة. إن لم نربح، فماذا سيحدث؟ عدم الفوز لا يعني الخسارة. قبل قليل، وعندما وصلت رسالتكَ الأخيرة، قرأتُ بعض رسائلك القديمة. أوغلنا كثيراً في انتقاد الكبار. لو تعرف ماذا كتبتَ! لو يعرفون ما كتبته لكَ أنا أيضاً! خاصّةً عندما تجمّعت هذه الرسائل معاً، فقد صارت ثقيلةً جدّاً. الحقيقة أنّنا روينا الأحداث على نحوٍ مبالغٍ فيه كثيراً...

لو كانت لجنة التحكيم التي ستقرأ الروايات المشاركة في المسابقة مكوّنةً من الأطفال وليس الكبار، لكانت حصلت روايتنا على الدرجة الأولى، ولكنْ مع ذلك، يتراءى لي أنّ لدينا قليلاً من الحظّ. فكّرت ببعض روايات الأطفال التي قرأتها إلى الآن: الحرب من أجل دراسة طفلٍ قرويٍّ فقير.. المغامرات الفضوليّة للأطفال الذين ذهبوا في رحلة.. طفل فقير يعمل على رعاية أمّه المريضة ومساعدة أخيه.. كلّها رواياتٌ ممتلئةٌ بالنصائح والعِبر المستخلصة من نهاياتها؛ أمّا روايتنا، فلا مثيل لها.

حتّى لو لم تربح روايتنا، فستكون درجتك هي الأولى؛ لأنّك عندما تصبح أباً في يومٍ ما، ستقول لطفلك، مثل كلّ الآباء: إنّك كنت الأوّل. (انتبه، إيّاكَ أن تضع رسالتي الأخيرة هذه بين الرسائل التي ستُرسلُها إلى المسابقة!).

لا أقول ذلك لأواسيكَ، فليس مهمّاً إن لم نربح. ألم تقل: إنّك تريد أن تصبح كاتباً عندما تكبر؟ يمكنك في ذلك الوقت أن تطبع هذه الرسائل على شكل كتاب.

أرجو لكَ حظّاً سعيداً. أُرسلُ سلاماتي الممتلئة بالأشواق إلى زملائي كلّهم.

زينب يالكر

رسالة من الكاتب إلى الأطفال

أنقرة، 11 نيسان / أبريل 1967

أحبّائي الأطفال!

لا، ليس «أحبّائي الأطفال»، بل أطفالي الأحبّاء.

أحبّكم كلّكم مثل أطفالي. وكما هي الحال في الحبّ كلّه، فثمّة القليل من الأنانيّة في هذه المحبّة أيضاً؛ لأنّنا نحن -الذين تقدّمنا في العمر- نعتقد ونؤمن بأنّنا سنستمرّ في العيش معكم. أنا لا أحبّ أطفالي، أو الأطفال الأتراك فقط، بل أحبّ الأطفال الأمريكيّين، والروس، والألمان، والأرمن، والصينيّين، والغجر، وكلّ الأطفال.

ثمّة شيءٌ تعرفونه جيّداً، لأشرحه هنا أيضاً. ومثل ما فهمتم بسهولةٍ، فالرسائل الموجودة في هذا الكتاب لم يكتبها طفلان اسمهما: زينب، وأحمد لبعضهما، بل أنا من كتبها، وأنا من اختلق اسم زينب وأحمد. إنّكم تعرفون جيّداً أنّه من غير الممكن لطفلين في الصفّ الخامس أن يكتبا كلّ هذه الرسائل، بهذا الطول، وبدون أيّ خطأ. لو أتى اثنان منكما وتراسلا، ثمّ جمعا الرسائل، فمن المؤكّد أنّهما سيخطئان لغويّاً وإملائيّاً، ويرتكبان

أخطاء أُخرى أيضاً، ولكنْ ما يمكن أن تكتبوه، أحبّتي، سيكون حتماً أجمل ممّا كتبته أنا؛ لأنّ ما ستكتبونه سيكون طبيعيّاً، ونابعاً من قلوبكم. أكبر فرقٍ بين الكبار والأطفال هو الآتي: مع تقدّمكم في العمر ستصبحون مثلنا، وتبتعدون شيئاً فشيئاً عن فطرتكم. حاولت في هذا الكتاب أن أفعل المستحيل، وهو: أن أضع نفسي مكانكم. إنّه شيءٌ لا يمكن حدوثه. كأنّ بين الكبار والأطفال ألفاً، أو ألفي سنة؛ ولهذا فإنّنا -نحن الكبار- ننسى طفولتنا. أمّكم، وأبوكم، ومعلّمكم نسوا طفولتهم.

هذه الرسائل التي اختلقتها على لسانَي طفلين اسمهما: زينب، وأحمد، دخلت بالفعل إحدى مسابقات الرواية، ولم تنل أيّة درجة. لأخبركم بأنّه لا ظلم في هذا. هذه الرواية المشكّلة من رسائل لا يمكن أن تنال أيّة درجةٍ في المسابقات؛ لأنّ الكبار الذين هُم أعضاء لجنة التحكيم، والذين قرأوا هذه الرواية، نسوا طفولتهم كأنّه قد مرّ عليها ألف عام، أو هكذا يتظاهرون. هذا ما شعر به زينب وأحمد أيضاً.

ومثل كلّ روايات الأطفال التي كُتبت، أردتُ أنا أيضاً أن أعطيكم نصائح من خلال الرسائل التي جُمعت بهذا الكتاب. ومع ذلك، فإنّ الطريقة التي تُقدَّمُ بها هذه النصائح ليست كالتي يقدّمها الكبار الآخرون للأطفال، ولكنْ لا تعتقدوا أنّه في حياتي الواقعيّة يمكنني فعل ذلك لأولادي، فأنا أعامل أولادي مثل كلّ الكبار الآخرين؛ لأنّني نسيت طفولتي، كأنّ آلاف السنوات قد مرّت عليها. وحتّى لو أدركنا أنّ هذا خطأ، فليس بمقدورنا التصرّف على نحوٍ مغاير.

أردت فعل شيءٍ آخر من خلال الرسائل المجموعة في هذا الكتاب، وهو الآتي: لم أتعامل معكم على أساس أنّكم أطفالٌ، وأنا كبيرٌ، بل

عَددتُكم كباراً مثلي؛ لأنّه لا يمكنني أن أكون طفلاً مثلكم. لم أضعكم موضع الأطفال، بل وضعتكم موضع الكبار، ومع ذلك فقد حاولت ألّا أبتعد عن كونكم أطفالاً، ولهذا فإنّني أحاول أن أشرح لكم ما حاولت فعله في هذا الكتاب. أعتقد أنّكم ستفهمون كلّ ما أقوله وفقاً لمعاييركم الخاصّة.

أرجو لكم جميعاً النجاح يا أطفالي الأحبّاء.

عزيز نِسين

الرسالة الثانية
من مؤلّف هذا الكتاب إلى قرّائه

أعزّائي القرّاء!

أنا لا أؤيّد إخفاء أيّة حقيقةٍ عنكم لمجرّد أنّكم صغار السنّ، كما أنّه من واجب الكبار أن يخبروكم بكلّ موضوعٍ يتحدّثون عنه. حتّى إنّه يجب أن يكون لديكم علم بالمشكلات السياسيّة المعقّدة، والمشكلات الجنسيّة أيضاً. لا يوجد مشكلة لا يفهمها الصغار، ولكنْ على الأكثر، من الممكن أن تختلف طريقة عرض المواضيع وفقاً لأعمار المستمعين، فمثلاً: إذا حاول الناس الذين في سنّ الأربعين شرح أيّ موضوعٍ للأطفال الذين في سنّ العاشرة بالأسلوب الذي يتحدّثون به فيما بينهم، فبالتأكيد لن يفهم الأطفال أيّ شيءٍ من هذا، لكنْ بالتأكيد يمكن تفسير هذا الموضوع بطريقةٍ يفهمها الأطفال في سنّ الثانية عشرة.

لطالما أردت أن أطلعكم على حقيقةٍ تتعلّق بهذه الرواية، ولكنّني لم أكن أستطيع إيجاد طريقةٍ مناسبةٍ للشرح. ما أريد شرحه هو الآتي:

شاركت هذه الرواية التي قرأتموها في مسابقةٍ لرواية الطفل نظّمها أحد المصارف. كان يوجد غير الدرجات الأولى، والثانية، والثالثة، خمس جوائز

ترضية. لم تحصل هذه الرواية على أيّة درجة. لماذا لم تحصل على أيّة درجةٍ في المسابقة؟ لقد حدثتْ معي حادثة أتاحت لي فرصة معرفة السبب.

في عام 1975 دخلتُ عمر الستّين، وعلى ضوء ذلك، قامت إحدى دور النشر التي طبعت كتبي بتنظيم حفلٍ لميلادي الستّين. حكى لي أحد المتحدّثين في هذا الحفل، وهو أوناط قوطلار، عن بعض ذكرياته، ففهمت من إحدى ذكرياته سبب عدم فوز «أطفال هذه الأيّام الرائعون» بالمسابقة.

وحتّى لحظة كلامه عن تلك الذكرى، لم أكن أعرف أنّ أوناط قوطلار هو أوّل عضوٍ في لجنة المسابقة.

سأنقل إلى هنا ما حكاه أوناط قوطلار في حفل ميلادي الستّين. عندما تقرؤون ذلك ستعلمون لماذا لم تفُز «أطفال هذه الأيّام الرائعون» بمسابقة رواية الطفل. وحتّى لو علمتم، فماذا سيحدث؟ أعتقد أنّ العبرة التي ستستخلصونها هي الآتية: إن كنتم تعتقدون أنّه من الصواب عدم فوز رواية «أطفال هذه الأيّام الرائعون»، فستصبحون هكذا كما ذكرت الرواية، وتتصرّفون بهذا الشكل، وإن لم تجدوا ذلك صواباً فإنّكم ستحاولون ألّا ترتكبوا إجحافاً كهذا. لكنّ الغرض من إضافة هذا الشرح إلى الإصدار السادس من هذه الرواية هو أن تستخلصوا عِبرةً كهذه.

الآن، دعونا نقرأ كلمة أوناط قوطلار التي ألقاها:

الضيوف المحترمون:

على الرغم من أنّه قد أتيحت لي الفرصة للتعرّف إلى السيّد عزيز نِسين شخصياً قبل بضع سنواتٍ فقط، فقد كانت مفاجأةً سارّةً أنّني مُنحت شرف التحدّث في الذكرى الستّين لميلاده. عزيز نِسين ليس فقط اسماً عظيماً في الأدب التركيّ، يمثّل شعبنا على أوسع نطاق، ولكنّه أيضاً يقدّم

للعالم أجمع الوجه المبتسم والمفكّر لبلد نصر الدين خوجا. بعد إذنكم، سأحكي لكم اليوم حدثاً، أو ذكرى متعلّقة بعزيز نسين، ربّما لا يعرفها هو، ولكنّه يشعر بالفضول لمعرفتها: كانت في عام 1963 أو 1964 على ما أذكر. كانت مجلّة ضوغان كارديش، التي عملتُ فيها كرئيس تحرير، قد نظّمت مسابقةً لرواية الطفل، وكان من دواعي سروري أن تُنظّم مثل هذه المبادرة التي ستمكّن الكتّاب الأتراك من التركيز على مجال أدب الأطفال المهمل. طلب منّي رئيس تحرير المجلّة وداد إن تور، إدارة الموضوع. أوصيت بعض المؤلّفين بإدراج أسمائهم في لجنة التحكيم. كنت أنا وأحمد تيجير سنشرف على أوّل إقصاء. وستقرّر الجوائز من قِبل لجنة التحكيم المؤلّفة من: طاهر ألانغو، ورؤوف موطلو آي، وبهجت نجاتي جيل، ومحمد فؤاد، وأحمد ك تيجير. وفور الإعلان عن المسابقة بدأت الأعمال تنهمر. شاركت في المسابقة أكثر من مئة رواية. كانت المغلّفات سريّة. وفقط عندما يُعلن عن النتائج سنعرف لمن يعود كلّ عمل. هذا العمل الذي بدأته كان ممتعاً في البداية، ولكنّه سرعان ما صار مملّاً. كانت الأعمال في كثيرٍ من الأحيان مسوّداتٍ بدائيّةً، ضعيفةً، غير ناجحةٍ، تشرح طفولة كتّابها الشخصيّة أكثر ممّا تلج عالم الأطفال. في بعض الأحيان كنت أصادف أعمالاً بارعة. في ذلك الوقت، كان ابني لا يزال صغيراً جدّاً، وكنت أقرأ الأعمال بصوتٍ عالٍ أمام أقاربي في المنزل، حتّى أكون أكثر موضوعيّة. في تلك الأثناء أتى إليّ عملٌ يحكي عن رسائل متبادلة بين طفلين. لا أستطيع الجزم إن كان عنوانه مطابقاً لعنوان الكتاب الذي طُبع الآن، لكنّني أتذكّر جيّداً أنّه ومن الصفحة الأولى اعترت وجهينا أنا وزوجتي ابتسامة بريئة. كان هذا الكتاب تحفةً فنيّةً بسيطةً، يعكس عالمنا الحقيقيّ من خلال عيون الأطفال عوضاً عن إعطاء الأحلام لهم، ويقوم بذلك بروح الدعابة

والنقد. مع التقدّم في الصفحات أصبح من المستحيل القراءة بصوتٍ عالٍ. كنّا أنا وزوجتي ننفجر من الضحك في بعض المقاطع. عندما وصلت إلى الصفحات الأخيرة خمّنت شيئاً؛ هذا العمل الذي يعرض عالم الكبار ونفاقهم، وأكاذيبهم، وظلمهم في المجتمع، وهراءهم في مجال التعليم من وجهة نظر الطفل، سيفوز بالجائزة بالتأكيد. وأدركت على الفور أنّ الكاتب هو عزيز نِسين. ولكنّ ما أثار انفعالي ليس عزيز نِسين؛ لأنّني خمّنت إلى حدٍّ ما أنّ هناك كتّاباً مشهورين آخرين من بين المشاركين، لكنّ هذا الكتاب كانت له أصالة وقيمة خاصّة به. مرّ من الغربلة الأولى 18 كتاباً، وعقدت لجنة التحكيم اجتماعها الأوّل. حضرت الاجتماع الأوّل هذا كمتفرّج؛ لأرى كيف سيكون ردّ فعل كتابي المفضّل. ومع ذلك، ومنذ الحوار الأوّل، واجهت حكماً خيّب أملي. كانت لجنة التحكيم مصرّةً على إقصاء عمل عزيز نِسين من الجولة الأولى. انتقد غالبيّة أعضاء التحكيم -وهُم أربعة معلّمين- الكتابَ على نحوٍ قطعيٍّ، ووجدوه غير صحيح من ناحية التعليم، مهيناً للمعلّمين. راقبت بدهشةٍ مواقف هؤلاء الأشخاص، الذين أحبّهم وأقدّرهم ككتّاب، بعيداً عن كونهم معلّمين. وُزّعت الجوائز على روايات أُخرى، وعندما غادرت الاجتماع، كنت أفكّر بمدى كون أبطال عزيز نِسين محقّين. في رأيي، وبعيداً عن الاستهزاء بالمعلّمين، كان هذا الكتاب ينقذ مجتمعنا من السخرية من خلال إظهار عيوب التعليم. لدى الممثّل والفكاهيّ البلغاريّ العظيم تودور دينوف مقولة أستذكرها كثيراً: عندما جاء إلى تركيا لأوّل مرّة كضيفٍ سينمائيّ، خاطب الفكاهيّين الأتراك بالرسالة الآتية: «الفكاهة تنقذ عالمنا من السخرية». أودّ أن أهنّئ فنّاننا الموقّر الذي أنقذ بلدنا المحاط بالظلم، والقبح، والقمع، من كونه سخافةً، على أمل الاحتفال بسنواتٍ عديدةٍ أُخرى معاً.

(من الصحف)

في تاريخ 15 كانون الثاني / يناير 1967 برز الخبر الآتي في الصفحة الأولى من صحيفة (يني إسطنبول):

لو تُركت العقوبة على عاتق الأطفال:

أجاب بنجاح طلّاب الصفّ الثاني من إحدى المدارس الابتدائيّة عن السؤال الآتي: «لو كنتم آباء، وكان آباؤكم أطفالَكم، كيف ستعاقبونهم في حال ارتكابهم خطأ؟».

كان الأطفال الذين يبلغ متوسّط أعمارهم 8 سنوات يحاولون الإجابة عن الاستبيان الآتي الذي كتبه معلّمهم: «لو كنتم آباء، وآباؤكم أطفالكم، كيف ستعاقبونهم في حال ارتكابهم خطأ؟». كان قلم رصاص الأطفال الصغار، الذي لا يعرف إثارة الامتحان، والذي يحاول سكب مشاعرهم بأيديهم الصغيرة الصادقة على الورق، يسرد الكلمات الآتية:

أركّبه على حصانٍ أعرج، وأغطّيه بملاءة، وأعلّق في أعلى الملاءة سكّيناً. فكلّما عرج الحصان، يلمس السكّين رأسه، علّه يتعقّل.

كشف هذا الاستطلاع، الذي أُجريَ في الصفّ الثاني بمدرسة المارشال

فوزي تشَقمَق الابتدائيّة، في حيّ أسن تيبه، في منطقة غازيتيجيلار، عن جوهر العائلات، ومخيّلة الأطفال، ومدى قساوة العقوبة التي يتلقّونها.

أحد الآباء، المعروف بين الصحفيّين بكثرة ثرثرته ونصحه لطفله، كلّما سنحت له الفرصة، قال بأنّ العقوبة التي يطبّقها عليه طفله لو تبادلا الأماكن كانت «تركيب سحّابٍ على فمه».

أجابت طفلةٌ لها زوجة أب: «لا أخرجه للتنزّه». وأجاب طفلٌ أبوه لبّان: «أجعله يأكل بجانب الحمير». كما أجاب طفلٌ يتعرّض للتعذيب: «لا يمكن، حتّى لو صار طفلاً، فاليد لا تُمدّ على الأب».

كان نصف طلّاب المدرسة من أبناء عائلات الصحفيّين، ونصفهم الآخر من الأحياء الفقيرة المحيطة. وكشف هذا الاستطلاع الفرق بين هاتين المجموعتين من ناحية الأدب والتعليم بكلّ ما فيها من عُري.

أجاب الأطفال الذين يعيشون ضمن شروطٍ طبيعيّةٍ إجاباتٍ حول عقوباتٍ رأوا أنّ آباءهم يستحقّونها، مثل: «أؤنّبه على نحوٍ مهذّب»، «أضرب مؤخّرته برفق»، «لا أقدّم له الطعام»، «أضعه في مرحاض فيه فأرة وأقفل عليه»، «أضربه بالإبرة»، «أرميه في البحر، مع أنّه يعرف السباحة»، في حين كانت إجابات الأطفال الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة أقسى بكثير مثل: «أسكب قِدْراً من الحساء على رأسه»، «أعلّقه بالسقف من قدميه»، «أقطّعه بالفأس»، «أكبّله»، «أربطه بشجرة وأضربه بالسوط»، «آكله»، «أقطّعه مثل البسطرمة»، «أضربه حتّى يعود الحمار من السقاية»، «أسلقه بالماء المغليّ»...

في عيد الطفل بتاريخ 23 نيسان / أبريل 1967 كُتبت المقالة الآتية في الصفحة الأولى من صحيفة جمهوريّات:

طفلٌ من بين ثلاثة غير راضٍ عن أمّه

شُكران صونار

متى شاءت الأمّهات، فلديهنّ فرصةٌ لإبداء الرأي حول أطفالهنّ، وانتقادهم، وبيان ما يعجبهنّ، أو ما لا يجدْنه صحيحاً من الأفعال التي يفعلونها. ومع ذلك، لا يمكن القول: إنّ الأطفال لديهم الفرصة للتعبير بحريّةٍ عن أفكارهم حول الأمّهات. ما رأي الأطفال في أمّهاتهم اللّواتي يجب أن يحبّوهنّ، ويحترموهنّ على نحوٍ طبيعيّ؟

في الاستطلاع الذي أجريناه بين طلّاب مدرستي: غازي باشا، وسلطان سليم الابتدائيّتين حول هذا الموضوع، ذكر 235 من 350 طفلاً في سنّ المدرسة الابتدائيّة أنّهم يحبّون أمّهاتهم كثيراً، ولكنّهم مع ذلك، لم يتمكّنوا من العثور في أمّهم على بعض الصفات التي يجب أن تتمتّع بها الأمّ المثاليّة. وذكر 105 أطفال من بين 350 طفلاً أنّهم لا يرون أيّ فرقٍ بين أمّهم والأمّ المثاليّة في مخيّلتهم. إذا أخذنا في الحسبان أنّه ثمّة من لا يجرؤ على قول الصدق على الرغم من أنّه يُطلب من الأطفال عدم كتابة أسمائهم على الأوراق حتّى يكونوا صادقين، وأنّ أحداً لن يعرف ما كتبوه، فقد تبيّن

أنّ عدد الأطفال الذين لا يجدون صفات الأمّ المثاليّة في أمّهم هُم الغالبيّة العظمى.

ثلاثة أسئلة

في الأسئلة الإنشائيّة التي طرحناها على طلّاب مدرستي: غازي باشا، وسليم باشا الابتدائيّتين، طلبنا إليهم وصف الأمّ المثاليّة، ووصف أمّهاتهم، والفروقات بين الأمّ المثاليّة وأمّهاتهم.

في التصنيف الذي أُجريَ في نهاية الاستبيان، تبيّن أنّ الأطفال كانوا يتوقّعون معاملةً أكثر وديّةً من أمّهاتهم: ذكر 157 من أصل 350 طفلاً أنّهم يريدون أمّاً تعتني بهم عن كثب، و137 منهم قالوا: إنّهم يريدون أمّاً تتعامل مع مشكلاتهم وديّاً، واشتكى 11 منهم من دقّة والدتهم المفرطة.

أكثر صفةٍ تجعل الأطفال يشكون من أمّهاتهم هي حدّة الانفعال. اشتكى 78 طفلاً من أنّ أمّهاتهم عصبيّات المزاج، واشترط 73 منهم أنّ الأمّ المثاليّة ليست عصبيّة المزاج.

على عكس التقديرات، فإنّ القضيّة الثالثة التي يوليها الأطفال أهميّةً للأمّ المثاليّة، التي تجعلهم يشكون من أمّهاتهم، هي الجمال، خاصّةً جمال المظهر، الأطفال الإناث خصوصاً، فقد أعطين أهميّةً واسعةً لملابس أمّهاتهنّ، وشرحن تلك الأوصاف مطوّلاً. عدد الأطفال الذين زعموا أنّ الأمّ المثاليّة يجب أن ترتدي ملابس جيّدة هو 88. ذكر 91 طفلاً أنّهم يريدون أمّاً جميلةً، منهم 38 طفلاً أعربوا عن حزنهم بسبب لباس والدتهم القبيح في المنزل، و3 أطفال ذكروا بأنّ أمّهاتهم قبيحات.

الوجه المقطّب

هناك مسألة أُخرى يتّفق عليها الأطفال أكثر من غيرها، وهي أنّ الأمّ يجب أن تكون طيّبة القلب، مبتسمةً، وشخصيّتها محبّبةً، ومتفهّمةً تجاه محيطها. إجمالي عدد الأطفال الذين يرغبون في رؤية هذه الصفات في أمّهاتهم، والذين يشتكون من وجه أمّهاتهم المقطّب هو 215.

يمكن سرد الصفات الأُخرى التي يحدّدها أطفال المدارس الابتدائيّة في وصف الأمّ المثاليّة، التي لا يمكنهم العثور عليها في أمّهاتهم على النحو الآتي:

أمٌّ مثقّفة (87 طفلاً)، أمٌّ نظيفةٌ، ومجتهدةٌ، ومضحّيةٌ (178 طفلاً)، أمٌّ لا تشعر بالمسؤوليّة الكافية للاهتمام بأطفالها وعائلتها، ولكنّها تتماشى جيّداً مع من حولها، وتلتزم بالقواعد الأخلاقيّة، وليس لديها عادات مثل: الكحول، أو السجائر (181 طفل).

جمهوريت – 24 نسيان / أبريل 1967

(...)

حقيقة

احذرْن أيّتها الأمّهات! قد تكون واحدةٌ من الكلمات التي ذُكرت في الأعلى تعود إلى أحد أطفالكنّ، أو أنّها مشابهةٌ للأفكار التي تدور في رأس طفلكنّ الصغير؛ لأنّ هذه الكتابات مأخوذةٌ من صفات الأمّ المثاليّة التي كتبها أطفال المدارس الابتدائيّة على أوراقٍ بلا أسماء. وربّما تصف هذه الأوصاف النوع المثاليّ للأمّ التي يرغب طفلكنّ برؤيتها في شخصكنّ. إنّها حقيقةٌ طبيعيّةٌ للغاية لا جدال فيها، وهي أنّ كلّ طفلٍ يحبّ أمّه، باستثناء بعض الحالات الخاصّة النادرة جدّاً. لكنّ حبّ الطفل لأمّه لا يعني أبداً أنّه يحبّها بكلّ صفاتها، والدليل الواضح على ذلك هو أنّ 235 من أصل 350 طفلاً شاركوا في هذا الاستطلاع، قالوا: إنّ هناك صفاتٍ معيّنةً في أمّهاتهم لا يحبّونها. أيّتها الأمّهات، ألا تُردْنَ معرفة رأي أطفالكنّ فيكنّ، وما هي صفاتكنّ التي يشتكون منها؟

إذا أردتُنّ أن تحللن محلّ الأمّ المثاليّة لطفلكنّ، فإنّ أوّل شيءٍ ستفعلْنه وفقاً لنتائج الاستطلاع هو محاولة التحكّم بأعصابكنّ؛ لأنّ أطفالكنّ في الغالب يشكون من غضبكنّ.

وبمجرّد أن تتمكنَّ من التحكّم بغضبكنّ، حاولن الاقتراب من

أطفالكنّ ومساعدتهم كما لو كانوا أصدقاءكنّ. تأكّدْنَ من وجودكنّ معهم في أثناء دراستهم، وعندما يواجهون مسائل لا يمكنهم حلّها بمفردهم.

بالنظر إلى أنّ لدى أطفالكنّ عالماً داخليّاً غنيّاً مثلكنّ على الأقلّ، فأعطيْنَهم أهميّةً لشخصيّتهم، ولا تنسَيْن رغبتهم الدائمة بأن يروكنّ جميلات. لا تتجوّلن في المنزل بشعرٍ غير مُسرّح، وجوارب متهدّلة.

يجب أن تعاملن أطفالكنّ كأصدقاء، حتّى إنّه يجب عليكنّ اللّعب معهم. كما يجب أن تكُنّ دائماً مبتسمات ولطيفات، وألّا تكنّ جادّات جدّاً، أو مقطّبات الوجوه.

لا تكنَّ سبباً لفقدهم متعة العيش في سنٍّ مبكّرةٍ بسبب جدّيّتكنّ الشديدة، مع عدم نسيان أنّه من حقّ الطفل الاستمتاع فقط بكونه طفلاً.

غونايدن – 29 آذار / مارس 1972

الأطفال لا يحبّون أمّهاتهم اللّواتي يدخنَّ

(بيهان غورتونا)

في الاستطلاع الذي أُجريَ بين طلّاب المدارس الابتدائيّة في حيّ قاضي كوي، تبيّن أنّ واحداً من كلّ ثلاثة طلّاب يشتكي من أمّه. كما أنّ ثمانين في المئة من الأطفال يرغبون بأمّهاتٍ شقراواتٍ، ويكرهون الأمّهات اللّواتي يشربن الكحول.

الحقيقة التي كشفها الاستبيان

في الاستطلاع الذي أُجريَ بين طلّاب المدارس الابتدائيّة في قاضي كوي، تبيّن أنّ واحداً من كلّ ثلاثة طلّاب يشتكي من أمّه.

أجرى عالم النفس إشِك بيرقدار أوغلو -الذي أثاره الفضول حول رأي الأطفال بأمّهاتهم- دراسةً استقصائيّةً حول هذا الموضوع بين طلّاب المدارس الابتدائيّة في قاضي كوي. في الاستطلاع الذي أُجريَ على 350 طالباً تتراوح أعمارهم بين 9 و12 عاماً، قال 157 طالباً: إنّ أمّهاتهم يهتمِمْن بهم عن كثب، وقال 140 منهم: إنّ أمّهاتهم يتعاملن مع مشكلاتهم بطريقةٍ وديّةٍ، ولكنّهم اشتكوا من دقّة أمّهاتهم المفرطة.

يقول عالم النفس إيشِك بيرقدار أوغلو: «في الاستطلاع الذي أجريته، فإنّ 80 في المئة من الأطفال يرغبون بأمّهاتٍ شقراوات، ويعود سبب ذلك إلى أنّ الأطفال يرون الأمّهات الشقراوات ناعمات. لا يرغب العديد من الطلّاب أيضاً بأمّهاتٍ يغضبْن. إضافةً إلى ذلك، لا يرغب الطلّاب، على نحوٍ خاص، بالأمّهات اللّواتي يشربن الكحول ويدخنّ».

يني إسطنبول – 8 نيسان / أبريل 1972

الله، الأمّ والأب، الزواج، التلفاز، السينما، الطعام، الطبيعة: هي مفاهيم كثيراً ما نصادفها ونستخدمها في حياتنا اليوميّة. كما جرى البحث في آراء قرّاء يني إسطنبول الصغار حول هذه القضايا، وتحديد أفكارهم من خلال إجراء محادثات طويلة مع طلّاب المدارس الابتدائيّة. تراوحت أعمار جميع الطلّاب الذين أجابوا عن أسئلتنا بين 7 و9 سنوات تقريباً.

الأم والأب

أمّي وأبي هما أفضل الكبار في العالم. إنّهما يُحبّاني مثل معلّمي. يشتريان لي الحلوى والكعك. لا أستطيع البقاء في أيّ مكانٍ دونهما. أمّي وأبي لطيفان كلاهما.

زينب كوكسال

الزواج

سوف تتزوّج أختي الكبيرة بعد شهر. إنّني حزينةٌ جدّاً. في ذلك الوقت ستغادرنا.

رنا تيزجان

كان معظم الطلّاب الآخرين يخجلون من قول أيّ شيء حول هذا الموضوع.

السينما

أحبّ الذهاب إلى السينما كثيراً، ولكنْ تُعرض أفلام رعاة البقر على نحوٍ ضئيلٍ جدّاً.

كامل كوكسال

الله

إنّ الله يراقب كلّ أفعالنا. يغضب كثيراً من الخطايا.

عليا غوران

عزيز نِسين

(20/ 12/ 1915 -6/ 7/ 1985)

أديبٌ تركيٌّ، اسْمه الأصليّ محمد نصرت نِسين، واتّخذ اسماً وهميّاً هو (عزيز نِسين)؛ لحماية نفسه من الملاحقات الأمنيّة على خلفيّة كتاباته التي انتقد فيها واقع تركيا، ويُعدّ واحداً من أفضل كُتّاب الأدب السّاخر. نال العديد من الجوائز، منها: جائزة السّعفة الذهبيّة من إيطاليا عام 1956، وجائزة المجْمَع اللّغويّ التركيّ عام 1969، وترك أكثر من 100 عملٍ في الرّواية، والمسرح، والقصّة القصيرة.

عمل في الصحافة، وتعاون مع الأديب التركيّ صباح الدين علي في إصدار الجريدة الشهيرة (ماركو باشا)، التي اعتُقل في عام 1947 بسبب مقالاته فيها، وأُغلقت الجريدة، ثمّ عاود إصدارها تحت أسماء مختلفة.

في عام 1973 أنشأ مؤسّسةً لدعم تعليم الأطفال ورعايتهم، تحمل اسْمه، وتُموّل من عائدات أعماله.

من مؤلفاته:

زوبك

سرنامة

بتوش الحلوة

أطفال هذه الأيّام الرائعون

الحمار الميّت

الطريق الوحيد

حدث في إحدى الدول

محمد عبد القادر عبداللي

من مواليد سوريا - إدلب 1991. عاش في مدينة دمشق؛ حيث درس الهندسة الميكانيكيّة في جامعة دمشق، ثمّ انتقل إلى تركيا؛ حيث درس اللّغة التركيّة في جامعة تشوكوروفا في مدينة أضنا. بعد ذلك درس الهندسة المدنيّة في الجامعة نفسها.

عمل في مجال الترجمة، والترجمة المحلّفة، والترجمة الفوريّة من وإلى اللّغتين: العربيّة، والتركيّة. ترجم عشرات المقالات والأبحاث.

صدر له:

عمل الشيطان، حسين رحمي غوربنار.

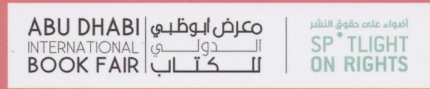
إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع





زينب وأحمد طفلان فرّقهما عن تشارك مقاعد الدراسة انتقال زينب مع عائلتها إلى أنقرة، وبقاء صديقها في إسطنبول، فأصبحت الرسائل طريقتهما في الحفاظ على صداقتهما عبر تبادل القصص الطريفة، والمغامرات اليوميّة، ومناقشة غرائب عالم البالغين: ارتباك الكبار أمام مديريهم، واستماتة الأهل لاستعراض مواهب أطفالهم "الرائعين" أمام الضيوف، وإصرار الآباء على أنّهم جميعاً كانوا متفوّقين، ومطيعين، وصادقين، وبالطبع الأوائل على صفّهم.

في هذه الرواية المكتوبة من أجل الأطفال، والآباء، والمعلّمين على حدٍّ سواء، يعيد عزيز نِسين بناء الأحداث من المنظور الذي يرى به الأطفالُ العالم، ليحكموا على سلوك الكبار والمعايير المزدوجة التي يعيشونها. على غرار كتبه المثيرة للجدل دوماً، يستكشف هذا الكتاب عالم الطفولة ويسأل: ماذا يحدث للصغار عندما يكبرون؟



تمّت ترجمة ونشر هذا الكتاب بدعم من مبادرة أضواء على حقوق النشر التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب ٢٠٢١ والذي ينظمه مركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب أو جودة الترجمة.






ISBN 978-9933-641-77-1